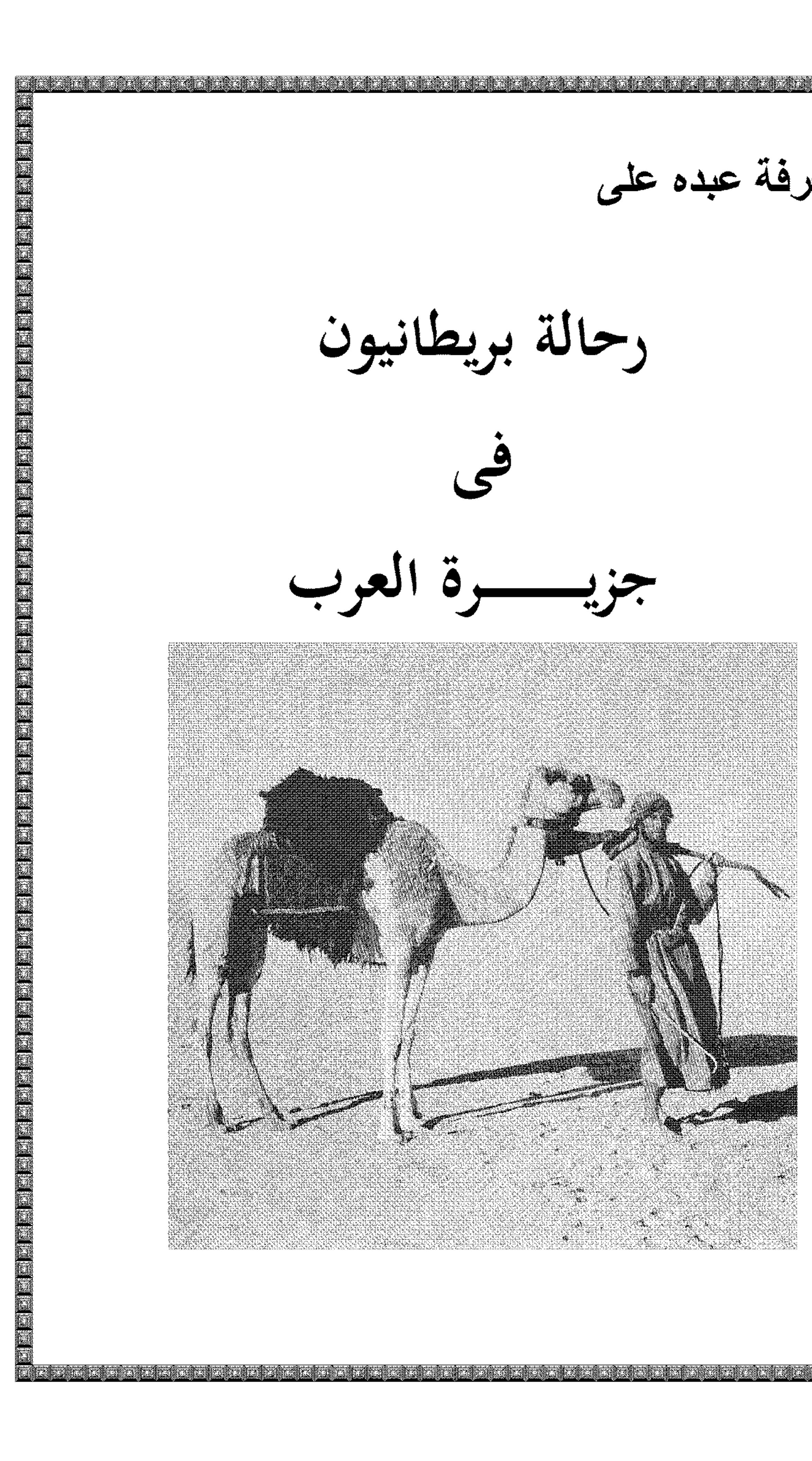
عرفة عبده على

رحالة بريطانيون

فى

جزيـــــرة العرب



الفهرس

تقـــــديـــم

كلمـا ازددت شغفـاً بـأدب الرحـلات ، ازددت قناعـة بـأن مركـز الانبهـار الحقيقـي لرحالـة الغـرب كـان في الجزيـرة العربيـة ، وكـان هنـاك أكثـر مـن نـداء استجـاب لـه هـؤلاء القادمـون من قلب الحضـارة الأوروبية إلي تلك الأرض البعيـدة .. كـان هنـاك " نـداء الإسـلام " ثـم " نـداء الصحـراء وعالمهـا السـاحـر " ثـم " صـورة العربـي الفـارس " في نجـد ... و آلاف الحكايـات والأسـاطير الـتي شكلـت سحـر الشـرق .. ثم هـذه " الحيـاة المطلقـة " بـين الرمـال المتعـددة الألـوان و الظـلال والفضـاء الممتـد بـلا حـدود ، الـتي حركـت مخيـلات الشعـراء و الأدبـاء و الرحالـة و الفنـانين والمغـامرين ، وجميعهـم كـانوا ينتمـون إلي عصـر رومانسـي واحـد ، وهـذه الرومانسـية الفريـدة هامـت بـالعربي دون غـيره .. ذلـك " البـدوي الحـر ، الشجـاع ، الجميـل " والـذي وصـفه " ريتشـارد بيرتـون " بأنـه " خليط نبيـل حقـاً مـن العـزم و اللطف و الكرم " !

والغـالبيـة مـن هـؤلاء الرحالـة الغربيـون ، تركـوا لنـا أدق وأجمـل الآثـار عـن جزيرة العرب ، و قدمـوا في كتاباتهـم تفاصيـل بالغـة الأهميـة ، تناولـوا فيهـا الجوانـب السياسيـة والإداريـة و الاجتماعيـة والاقتصـادية و الدينيـة ، ولا شـك أن هـذه الكتابات شكلـت مصـدراً هامـاً عند كتابة تاريخ جزيـرة العـرب .

لقد ملأت " جزيرة العرب " مخيلات الغربيين بلا حـدود ، وحين بدأ البعض في الوصـول إليهـا إكتشـفوا أن الخيـال دون الحقيقـة وأن المخيلـة دون الخلـق .. بعضـهـم جـاء مـن كتـب رائـد التـاريخ العلمـى " هيرودوت " الـذى كتـب : إنها آخـر بقعـة فى

جنوب الأرض ، إنها فى الحقيقة قلب الأرض ، وقد إمتدت على مساحة مليون وربع المليون ميل مربع ، يحيط بها المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى ، تمددت على تقاطع الطرق بين ثلاث قارات ، تملؤها واحات نجد الرائعة وصحاريها الهائلة من الدهناء إلى النفود ، وترتفع شاهقة فيها جبال الحجاز حتى اليمن وفى منبسطها : مكة أم القرى وسيدة المدائن .

ويختصر " بيتر برنت " جزيرة العرب بالقول أنها : تلك المنطقة التى ظلت الشمس طوال عشرين ألف عام تحولها دون هوادة إلى رمل وصخر ، لكن من شبه الجزيرة هذه خرجت أكثر الهجرات خصوبة في تاريخ العالم ، ومنها خرجت أيضاً تلك الدعوة المشرقة بالإيمان حتى أن التجاوب الذى أثارته غير التاريخ فى ثلاث قارات !

ولقد كانت رحلات البريطانيين أبرز مساهمات " العصر الفيكتورى " فى إكتشاف جزيرة العرب فكان الإنبهار الحقيقى لرحالة الغرب فى " جزيرة العرب " ، والتى شهدت منذ بدايات القرن التاسع عشر توافد كثير من هؤلاء الرحالة والمستشرقين البريطانيين ، وغيرهم ، والتى كانت تموج بأحداث وتطورات سياسية هائلة ، ولكونها المنطقة الوحيدة التى لم يتيسر للرواد الأوائل زيارتها والوقوف على أحوالها السياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية ، وتنوعت شخصيات هؤلاء الرحالة ، وتباينت أهدافهم ، وإختلفت مصادر تمويلهم .. وشكلت مدوناتهم منظومة هائلة عن جزيرة العرب ومصدر المعرفة الغربية الأول عن حياة سكانها وتركيباتهم السياسية والقبلية والإجتماعية ، مع الوضع في الإعتبار تفاوت القيمة العلمية لكتابات ومعلومات هؤلاء الرحالة البريطانيين ، الذين إستهوتهم جزيرة

العرب بسحرها وغموضها ، فكانوا حريصين على التعرف والتعريف بما مر بهم من بلاد وعباد ، وحيث إعتمدوا أسلوب الوصف العلمى القائم على أساس المشاهدة والمعاينة ، ووصف دقيق للمدن والقرى والصحارى والجبال وكثبان الرمال ، والقلاع والحصون ، ومناهل الآبار وموارد المياه ، وعرفوا الغامض من أحوالها وأخبارها .

ومع اتساع الإمبراطورية البريطانية وتعاظم قوتها البحرية لم تعد معرفة جزيرة العرب نوعاً من الترف بل أصبحت ضرورة ملحة ، وكان لهذا التحول في المشهد العالمي معزى كبيراً ، حيث أضاف بعداً جديداً على العلاقات البريطانية العربية . ومن ثم اضطر الرحالة البريطانيون للجزيرة العربية أن ينظروا إلي الأرض العربية كأرض حضارة عتيقة ما ترك الدهر عليها أثراً والتي لا زال يسكنها عرف "أقل تطوراً " و " أدنى تحضراً " يعوزه التنوير والتحضر ، وفي ظل هذا المفهوم الإمبريالي لدور الرجل الأبيض ، نما اعتقاد آخر يرى أن الغرب يعرف عن الشرق أكثر مما يعرفه أهل الشرق عن أنفسهم حيث أعتبر العلماء الغربيون أنفسهم حاملي سراج المعرفة والتحضر دون منازع فكثيراً ما استشهد الرحالة الأوربيون بروايات بعضهم البعض لتعزيز آرائهم وإلباسها ثوب الموضوعية والصحة . فلم يكن معظم الرحالة البريطانيين إلي الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر وصدر القرن العشرين – من أمثال بيرتون **Burton** ، وبلجريف **Palgrave** ، وداوتي **Doughty** ، ولورانس **Lawrence** ، وفيلبي **Philiby** أدباء عظماء فحسب ، بل كانوا (عدا داوتي) عملاء استعماريين للحكومة البريطانية ، حيث أرسلوا إلي الجزيرة العربية لرعاية المصالح الإمبريالية البريطانية في المنطقة ، ورغم ما امتاز به وصف رحلاتهم شكلاً وأسلوباً ، إلا أن

رؤيتهم للعالم العربي قد شكلتها اعتبارات سياسية (ليس لها أدنى صلة بالحقائق الواقعية ، حيث إن المعرفة الحقة لا علاقة لها بالسياسة كما يقرر إدوارد سعيد) .

وبقدر ما سحرت " جزيرة العرب " هؤلاء الرجال ، اجتذبت وسحرت أيضاً " نساء الغرب " اللاتي اجتزن الشرق ليصلن إلي الجزيرة العربية ، وبعضهن خضن أكثر المغامرات مشقة في التاريخ ، وبعضهن اكتسبن خبرة ببعض المناطق ، و مهارة ودراية في كيفية التعامل مع أهل الجزيرة ، و أفادت كتاباتهن في إثراء معلوماتنا في جوانب عدة ، في التاريخ الحديث للجزيرة و أوضاع القبائل ولهجاتها ، وشخصيات لعبت أدواراً هامة ، ومدن وقرى وأودية وبوادي ، وتجارة وصناعة ، و إحصاءات سكانية .

كما تميزت كتابات بعضهن بالحرص على توثيقها ، خاصة فيما يتعلق بالروايات التاريخية و أحداث التاريخ المحلي ، والأشخاص الذين قابلوهم ونقلن عنهم المعلومات و الانطباعات ، و الإشارة إلي طرز العمارة المحلية ، وأساليب البناء والمواد المستخدمة والنقوش التي ازدانت بها البيوت ، و أهمية هذه المعطيات في التعامل و التكيف مع البيئة المحلية .

ولكن ما هي دوافع و أهداف الرحالات الغربيات في الشرق العربي .. " أكان ترحالهم مدفوعاً بهوس أم هاجس ؟ .. أو بحثاً عن مغامرة فذة أو حب مثير ؟ .. أو أنه جاء أحياناً بدافع العلم والسياسة أو غير ذلك "كما تساءل د. عدنان البني ... مما لا شك فيه أنهن تأثرن في البداية بالحكايات و

الروايات المثيرة عن الشرق الساحر وجاذبية الصحراء وبلاد ألف ليلة وليلة ، وربما كان رحيلهن المغامر إلي الشرق هرباً من تجربة حب فاشلة ، بحثاً عن تجربة جديدة على الطريقة الرومانسية .

وتحتل الأهداف السياسية – مكانة خاصة – لاستكشاف عالم راكبي الآبل وحاملي السيوف ، وربما بقصد تحويل سلوكيات المرأة العربية المسلمة لتحاكي السلوكيات الأوروبية ، وتحويل المجتمع من التقاليد العثمانية الشرقية لينفتح على تقاليد الغرب !

وقد أتاح لهن ولوج " عالم الحريم " وصف أدق لجانب هام من الحياة الاجتماعية في جزيرة العرب ... هذا العالم الغامض شكل " قدس الأقداس " فلم يكن مسموحاً للرجال مجرد الاقتراب منه .. سواء في خيمة البدوي ، أو دار أحد الأثرياء أو في قصر من قصور الحكام .

ومن الناحية السياسية ، فقد قامت بعض الرحالات بخدمة أوطانهن بشكل فاق قدرات كثير من الرجال وعلى رأسهن " جيرترود بل " وبعضهن تركن بصمات واضحة في تاريخ أدب الرحلة ، و إذا كانت بعض كتابات الرجال لم تسجل بدقة أحوال البلاد والعباد ، بل كانت مجرد انطباعات و تفسيرات ذاتية ، فان الرحالات الغربيات سجلن انطباعاتهن وآدائهن إلي جانب نقد ما لا يروق لهن والاهتمام بأدق التفاصيل .. طبيعة نسائية في كل زمان ومكان ! ..

وبعض انطباعاتهن تخللها إيحاء إلي القراء بالتعاطف مع أهل هذه البلاد و تراثها مثل " آن بلنت " و " جين دجبي " إلي جانب ما أثروا به القراء من معارف علمية .

وبعض الرحالات الأوروبيات – وأكثرهن انجليزيات —كن زوجات لدبلوماسيين " ايزابيل بيرتون " و " فورتلي مونتاجو " التي رافقت زوجها في بداية القرن الثامن عشر عندما عين سفيراً لدى الباب العالي .. وبعضهن كن أديبات شاعرات " آن بلنت " وبعضهن ينتمين إلي عائلات أوروبية ارستقراطية "جيرترود بل " .. كن منعمات في بلادهن ثم عشن ظروفاً صعبة وقاسية في بلاد العرب .. عشن في خيمة ، وامتطين الجمل وقمن بحلب الناقة !

هؤلاء الرحالة البريطانيون ورحلاتهم الفيكتورية ، وما تميزت به حياتهم ومغامراتهم من إستهانة في مواجهة المخاطر والصعاب ولحظات رهيبة في مواجهة الموت .. مما يغرينا بالتساؤل : من هؤلاء الرحالة .. ولماذا تحملوا كل هذه الأهوال في رحيلهم اليومى المغامر ؟!

الكابتن سادلير في مهمة خاصة !

من الملاحظ ندرة كتابات الجغرافيين العرب والرحالة الأجانب عن المناطق الشمالية والشرقية للجزيرة العربية ٠٠ وبحلول عام ١٨٠٠ م فأن معظم المناطق المهمة في جنوب الجزيرة العربية وغربها كانت قد تمت زيارتها من قبل الرحالة الأوروبيين ، غير أن أحداً منهم لم يتجاوز الساحل الشرقي سوى بضعة أميال إلي الداخل ، وأول من زار الجزيرة العربية من الشرق واستمر في سيره غرباً هو الضابط البريطاني : جورج فورستر سادلير .

استمر مد الحركة السلفية الإصلاحية منطلقة من الدرعية عاصمة ابن سعود عام ١٨١٠ م وكادت أن تصل بنفوذها أبواب دمشق في بلاد الشام ، ولهذا أرسلت الحكومة العثمانية إمدادات إلي محمد علي باشا في مصر عام ١٨١١ م وأمرته بغزو الجزيرة العربية والقضاء على الدعوة الجديدة فيها ، فنزل طوسون باشا يقود الجيش المصري بثيابه الحمر ، وتدريبه وتسليحه الأوروبي المتميز . جرت الحرب بينه وبين عبد الله ابن سعود ، فسقطت مدن الحجاز الواحدة تلو الأخرى . وتحالفت بعض القبائل مع الجيش الغازي حتى عام ١٨١٤م وعلى الرغم من محاولات الصلح إلا أن الأحداث أخذت تتسارع فعهد محمد علي باشا إمرة الجيش إلي ابنه إبراهيم باشا ، فأندفع نحو الدرعية في مارس عام ١٨١٨ م ، فحاصرها ستة أشهر فسقطت بعد أن خلفت المعركة آلاف القتلى والجرحى ٠

وأمام هذه التطورات الجديدة قررت الحكومة البريطانية في بومباي أن ترسل ضابطاً من ذوي المهام الخاصة كمبعوث دبلوماسي إلي المنطقة ، فوقع اختيارها على الكابتن ج . فورستر سادلير في صيف عام ١٨١٩ م الذي أنطلق على ظهر بارجة حربية في مهمة خاصة محددة واضحة ٠

" تهنئة الباشا على النجاحات التي حققها ضد الوهابيين . والتي من نتائجها الاستيلاء على مدينتهم الأساسية " الدرعية " ، واستطلاع مدى ميل إبراهيم باشا للتعاون مع الحكومة البريطانية لتخفيف أعمال القرصنة في مياه الخليج العربي

لقد أرادت الحكومة البريطانية في الهند أن تفاوض إبراهيم باشا بعد وصوله إلي نجد والحساء ليساعدها في وقف هذا الجهاد الإسلامي ، الذي كان يهدد تجارتها من وإلي الهند . وما قصة التهنئة إلا ذريعة لتأمين مصلحة بريطانيا في المنطقة من جهة ، واستغلال بعثة سادلير إلي الجزيرة العربية للحصول على مذكرة تفصيلية عن الوضع الاجتماعي للسكان بعد دخول جيش محمد علي إلي الجزيرة العربية ، ورصد الجوانب الطبوغرافية والمسالك والطرق المؤدية إلي أهم التجمعات السكنية فيها ٠

ونظراً لجهل السلطات البريطانية في الهند بالمكان الدقيق لتواجد إبراهيم باشا في الجزيرة العربية فقد وجه الكابتن سادلير في البداية إلي عمان لزيارة سلطان مسقط سعيد بن سلطان ، والتباحث معه عن كيفية القيام بهجوم مشترك ضد القواسم ، وعن إمكانية التعاون مع إبراهيم باشا فيما لو كان ذلك هو الخيار الوحيد المتاح أمام بريطانيا ، ولكن سادلير لم

يجد الإمـام علـي استعـداد لقبـول تلـك الخطــة ، بـل وجـد فقـط المعلومات الهامـة التي تمكنـه من اللحاق بإبـراهيـم باشا ٠

شــرع سـادليـر فـي رحلتـه فـي الثـامـن والعشـريـن مـن شهـر يـونيـو عـام ١٨١٩ م فـأجتـاز مضـارب بنــي خـالـد وبلــغ الهفـوف فــي واحــة الحســاء بعـد خمسـة عشـر يـومـاً مـن السفـر الممـل ، وكـانـت قبيلـة بنــي خالـد بقيـادة الشيـخ ابـن عريعــر مـن أقـوى قبـائـل المنطقـة . وليــس في المنطقـة الكثيـر مـن المـدن ، وكـانـت مـدينـة الحسـا هـي مقـر الحـاكـم العــام فـي المنطقـة . وجـد سـادليـر أن الإحســاء والقطيـف كـانــت تابعــة للأتــراك ، وأن البـاشـا إبـراهيـم كـان قـد تــرك المنطقـة لحلفـائـه وانسحـب . كــان سـادليـر الرجـل الأوروبــي الثانــي الـذي زار الهفـوف بعـد رينـودي شـاتيـون ولـم يقـدم لنـا مـن الوصـف سـوى مـا ذكــره عـن أسـوارهـا الطينيـة وعـن قصـص الحـرب التـي تــدور فـي المنطقـة وأن فـي الحسـا بحيـرات وبعض الينابيــع .

لقـــد أجبــر " سـادليــر " علــى القيــام بـرحلـة شـاقـة طـولهـا أثنــي عشـر ألـف ميـل عبــر صحـراء جـزيـرة العــرب مبتــدءاً بالقطيـف على الخليـج العربـي حتـــى ينبـــع علــى ســاحــل البحــر الأحمـــر ٠٠ كــانــت مغـامرة لــم يسبــق لأي أوروبــي أن حـاول القيـام بهـــا !

تـركــز القسـم الرئيســي مـن رحلــة الكـابتن سادليـر عبـر منـاطق هجـر أو البحـرين ونجـد التـي كانـت مقـر سكني قبـائـل البـدو ، الـذيـن لابـد لـنمط حيـاتهم الخاصة وللصحاري التي اتخـذوهـا لهـم موطنـاً ، مـن أن تمنـع حـدوث أي تحـول ملمـوس في سلـوكهـم وعاداتهـن وأسلـوب حكمهـم ٠

ويذكر الكابتن سادلير أن الاحساء والقطيف واكبر قسم من هذه المنطقة كانت قد أخضعت من قبل الأتراك ، وبينما كان إبراهيم باشا يسحب جنوده من هذه المواضع ، أعيدت الإحساء والبلدان التابعة لها إلي " بني خالد " الذين وصفهم " نيبور " بأنهم أقوى القبائل العربية ، ولكن بشرط أن يدفعوا جزية للباشا مقابل تكاليف الحرب ولإعادة توطين القبائل في أماكنها السابقة .

رأى سادلير الدمار الذي خلفته الحرب في كل مكان ٠٠٠ أوصلهم السير خلال أربعة أيام طوال إلي وادي حنيفة ، وعبر قفر من الرمال ، والحصى ، إلي شقراء ، ومن المؤسف ألا يذكر سادلير شيئاً عن المكان الذي لم يسبق لأي أوروبي أن رآه من قبل ، وبعد اجتياز جزء آخر من النفوذ ، وصلوا إلي عنيزة ، حيث قيل لسادلير أن إبراهيم باشا قد توقف في الرس على بعد مسيرة يومين من هناك ، فأسرع ، ولكنه عندما بلغها لم يجد سوى الجيش ، إذ أن إبراهيم باشا كان قد توجه إلي المدينة !

على أن نتيجة ملاحقته الملحة للباشا أكسبته تميزاً لم يسع له حيث أصبح أول أوروبي معروف يجتاز الجزيرة العربية من شرقها إلي غربها . توقفت قافلة سادلير أياماً قليلة خارج منفوحة فدون ملاحظات تلقى ضوءاً على حجم وطبيعة التدمير فيها وفي الرياض . لقد خربت الأسوار لكن البساتين لم تمس بسوء . ولجأ كثير من سكان الدرعية إلي بساتين الرياض ومنفوحة . يروي سادلير : " تابعنا طريقنا إلي منفوحة التي تقع إلي الجنوب ، وعسكرنا على مسافة ميل من ذلك المكان الذي يحيط به خرائب أسوار وأبراج ، وهذا يدل على أنها كانت قبل ذلك في حالة ازدهار . أما الدرعية فتقع في واد عميق شمال غرب منفوحة تبعد عنها

حوالي عشرة أميال تقريباً . إنها الآن في حالة خراب ، ومن بقى من أهلها على قيد الحياة أو فر من القتل اتخذ منفوحة ملجأ ٠

٠٠٠ توقفنا هنا لمدة ثلاثة أيام وكان لدي خلالها وقت لأزور منفوحة التي تحتوي على ألفي عائلة . وفيها بعض الدور الحسنة المبنية من الطين والحجارة ، وبعضها يتكون من طابقين وأسطحها مستوية . وكانت البلدة محاطة بسور وخندق وأمر الباشا بتسويتهما بالأرض . تقع قرية الرياض إلي الشمال على مسافة ميل ، ويفصل بينها خرائب الأسوار والدور . وسكان الرياض أقل من سكان منفوحة . ويحيط بكل قرية بساتين نخيل كثيرة ترويها مياه غزيرة من آبار عميقة . وفي فصل الشتاء تتجمع مجاري السيول من الجبال العارية لتكون وادياً كبيراً يفيض عن مجراه . وكان أهلها في أسوأ حال مرت بهم منذ قيام دولة الوهابيين . وسويت أسوارهم بالأرض وهي وسيلة الأمان الرئيسة لممتلكاتهم ، و وجد كثير من أهالي الدرعية ملجأ لهم في بساتين النخل . وقد استهلكت جيوش الأتراك محصول السنة ولم يبق قمح ولا شعير يمكن شراؤه . ولا يوجد في هاتين القريتين حصان واحد ٠

ومضمون التقرير أن الرياض ، حتى قبل هدم أسوارها – رغم أهميتها – لم تصنف أكثر من قرية . من الواضح أنها تدهورت كثيراً منذ سنة ١٧٧٣ م (١١٨٧ هـ) وتفوقت عليها منفوحة مرة أخرى ٠

على رغم حال الأهالي التعيسة فقد أظهروا مقاومة للقافلة المرافقة لسادلير . وفي آخر الأمر وافقوا على بيع بعض المواد الغذائية

لكن بأسعار ابتزازية . شاهد سادلير بعد أيام قليلة التدمير الشامل للدرعية ولم ير شخصاً واحداً مقيماً بين الخرائب وكانت كل بساتين النخيل قد قطعت . ومع أن الزمن كان في وسط الصيف فقد سقطت أمطار غزيرة لا سابق لها في الذاكرة المعروفة . وأهل البلد يترنحون من النكبات التي حلت بهم قريباً وأصبح يخيم عليهم جو عام من توقع حدوث شر . لقد تغير كل شيء وانقلبت الموازين كما قال رجل مسن من أهل منفوحة : " الله أكبر ! لقد عشت حتى رأيت ثلاث عجايب بيوم واحد : تركي ، وافريجي (يقصد سادلير) بمنفوحة ، وسيل وسط القيظ !!

وصف سادلير قافلة الحج الشامي ، وحاول إعطاء فكرة عن المدينة المنورة وأبوابها ومعالمها (لكن لا يسمح لغير المسلمين بدخول هذه البقعة المقدسة) ..

وصلت قافلة حجاج دمشق وهي في طريقها إلي مكة صباح هذا اليوم ، إذ إن باشا الشام ، وهو صالح باشا (ذو ثلاث حواشي) ، مكلف بحماية الحجاج ويوضع الغطاء الجديد للكعبة . أما إبراهيم باشا ، الذي يتمتع أيضاً بمنصب ثلاث الحواشي ، فإنه مكلف بتأمين حماية للقوافل من هذا المكان إلي مكة ، لأنه يعتبر باشا جدة وأرض محمد المقدسة . كنت متشوقاً إلي تشكيل تقييم لأعداد الحجيج الذين وصلوا في حماية باشا الشام ومشاهدتهم وهم يقتربون من المدينة المنورة ، لكني لم أستطع أن أحقق هذا الأمل . كان ضمن حاشية الباشا عدة مدافع لغرض إطلاق نيران التحيات في مناسبات معينة ...

ليس في حوزتي وصف كامل للمدينة المنورة لأنه لا يسمح لغير المسلمين بدخول هذه البقعة المقدسة ، فلم أحصل على فكرة كاملة عنها .

تقـع المـدينـة المنـورة فـي غـور وسـط أعظـم الجبـال الصخـريـة الجـرداء . أسـوارهـا وحصـونـهـا مبنيـة مـن الحجـارة والكلـس ، وجميـع مـآذنهـا ملسـاء ومطـروشـة ، وهـي تهـيء لسكانها ملجـأ راشعـاً . لهـا ثـلاث بـوابـات ، إحـداهـا لـدمشـق ، وهـي أقـرب إلـي كونـهـا قلعـة مـن كـونـهـا بـوابـة ، نصـب علـى هـذا الحصـن عـدد مـن المدافـع ، وفـي هـذه النقطـة بالذات ينشـر العلـم الأخضـر أيـام الجمع . أمـا البـوابتـان الباقيتـان فهمـا لجمـان ومصـر ، فـوق كـل منهمـا فتحتـان لثلاثـة مـدافـع . تنشـر في الأعيـاد أعـلام خضـراء على هاتيـن البوابتيـن . تـوجـد داخـل المـدينـة حـديقـة واسعـة يكثـر فيهـا النخيـل والرمـان وكـروم العنـب وبعض الفاكهـة ذات النـوع الجيـد .

فـي شمـالـي المـدينـة زروع نخيـل واسعـة وحـدائـق فيهـا سكـان كثيـرون ، وإلـي الغـرب آبـار علـى التـي تحـولـت إلـي دمـار فـي هـذه الأيـام . وفـي هـذا الـوادي الممتـد بيـن الجبـال التـي في الجهـة الجنـوبيـة الغـربيـة عـدة قـرى ومـزروعات نخيـل ٠

وعنـدمـا اكتمـلت تـرتيبـات مسيـرنـا تقـرر أن يكـون الرحيـل في الخامـس عشـر مـن الشهـر الجـاري . النسـاء يتقـدمـن الطـابـور فـي عـربـات (التختروان) التـي تـوصـف بـأنهـا خشنـة جـداً وغيـر مـريحـة أبـداً . تتـركـب كل عـربـة مـن عمـوديـن أو دعـامتيـن طـويلتيـن متـوازيتيـن ، تثبـت في مـركـزهـا منصـة عليهـا عـرش مغطـى بالقمـاش لكـي لا يختـرقـه بصـر ولا هـواء . يحمـل هـذه الآلـة جمـلان أحدهمـا متقـدم والآخـر مـن ورائـه بحيث يقحـم رأسـه فـي جسـم العـربـة لكـي يتمكـن مـن رؤيـة طـريقـه ، وتـرتفـع نهايـات الأعمـدة فـوق جهـازي الجمليـن .

واصلت قافلة سادلير السير باتجاه آبار علي ، في طريق جبلي ، صادفتهم شجيرات كثيرة لكنها عديمة النفع ، بينما تزداد الجبال الصخرية إرتفاعاً ٠٠ تابعوا طريقهم حتى وصلوا في السابع عشر من سبتمبر إلي " الجديدة " وهي قرية بائسة مبنية بيوتها من الحجارة ، وتحتوي بعض حدائق النخيل ، والماء فيها عذب ٠٠ كان مدخل واديها منيع التحصينات ذات يوم ٠٠ ثم واصلوا السير حتى قرية " الحمراء " ٠٠ وعبر طريق صخري وعر ، توجهوا غرباً إلي " بير السلطان " ٠٠ ومنها إلي "ميلحا" ٠٠ وفي العشرين من سبتمبر ، كتب سادلير :

انطلقنا من ميلحا حيث تأخذ الطبيعة مظهراً جديداً ، فتنفتح على سهل واسع يطوقه البحر الأحمر من جهة الغرب . وصلنا ينبع في العاشرة صباحاً ، وهو ميناء عربي بحري متواضع محاط بسور من الحجارة غير المتماسكة ، ويبدو عليه أنه يتداعى وقد قاموا برفعه حديثاً على نمط الأسوار القديمة ذات التطويق الكامل ليؤمن حماية لجميع السكان . لا تزال الأسوار القديمة وإحدى بواباتها قائمة ، لكنها لا توحي بقدم تركيبها على الرغم من أن ينبع ميناء قديم جداً . والمنطقة التي يطوقها هذا السور فسيحة تكفي لاستيعاب خمسة أضعاف عدد البيوت ، لذلك لا تزال بقع واسعة عديدة مخصصة لأكوام الروث والمقابر والحفر المعدة للجمال والخيول الميتة ، مما يؤدي إلي تلويث هوائها ٠

ليس لينبع مصدر ثابت للماء ، إذ يحصل عليه بجمع ماء المطر في حفر عميقة مغطاة ، ولا يتوقع لهذا الماء أن يبقى بحالة جيدة أو يتحسن نتيجة لحفظه فيها لأن بناءها سيء ولأنهم لا يهتمون كثيراً بصفاء الماء عندما يخزنونه . أما الآبار الغائرة في البلد فتعطي ماء يصل في رداءة

رائحته إلي ردائة الماء الآسن الذي يتجمع في جوف سفينة . وقد صدف أن الأمطار لم تهطل في هذه المدينة منذ ثلاث سنوات مما أدى بينبع إلي أن تصبح شبه مهجورة . بينما يمكن الحصول على ماء طيب من آبار على بعد ثلاثة أو أربعة أميال بالقرب من بقايا حصن رفعه طوسون باشا لحماية معسكره ٠

كانت ينبع مستودعاً للذخيرة ومركزاً لتدريب الجند من أجل تعزيز جيش الباشا بالإضافة إلي أنها نقطة التجمع بين الطريق البحري الآتي من قناة السويس والقصير والطريق البري الذي تسلكه القوافل الآتية من السويس خلال أربعة وعشرين يوماً ، مع العلم أن مؤن الماء على هذا الطريق غير مستقرة ٠

هنالك بلدة أخرى تدعى ينبع تبعد مسافة قصيرة إلي الجنوب منها باتجاه الداخل ، يكثر فيها الماء وتنتج حدائقها خضاراً تمول المرفأ البحري . لم أستطع أن أزور هذا المكان لأن الجو كان شديد الحرارة والرطوبة ، كما أن صحتي ضعفت كثيراً . وقد اقترحت مرة أن نغير اتجاه المسير بالتحرك نحو ينبع الثانية لاعتقادي بأن ظهور الماء والحدائق سيهيء لي وسيلة استجمام !

ثم تحدث سادلير عن مدينة " جدة " وعمارة منازلها المتميزة وتنوع الجنسيات في شوارعها ، فكتب : أما مدينة جدة فهي ذات بناء جيد ، إذ تحوي كثيراً من المنازل الفسيحة الشامخة ، ونادراً ما تتمكن من استيعاب الحجاج والأشخاص الذين تهيأت لهم ظروف الثراء ، أما المعوزون وأولئك الذين أنفقوا ما لديهم من مال خلال مواصلتهم رحلة طويلة شاقة لأداء هذه الشعيرة

من دينهم فهم معرضون إلـي أقصى أنواع البؤس بشكل مستمر . كمـا توجد عـدة مخيمات لأمثـال هؤلاء النـاس خـارج المدينـة ، وإنـي لأرى أن هــذه الزيــادة فــي أعداد النـاس لتحتـاج إلـي مؤن تكفـي ثـلاثـة آلاف شخـص . يتكـون هــذا الحشد من هنـود شقـوا طريقهم من أبعـد الأصقـاع عبر سـرات ومالبـار وكلكـوتـا ، وأتــى بعضهم من السند ، وغرب كثيـرون من عمـان والساحل المحـاذي لهـا ، مفضلين طريق البحر الأحمر ليدركـوا الواجبـات الدينيـة المتعاقبـة والمتوافقـة ، كمـا يـرى عدد لا بـأس به من مسلمـي الملايـو ، ويعـود عـدد كبيـر مـن الأتـراك مـن هــذا الطريق نحو القصير ومنها إلـي القاهـرة ومصـر العليا ، كمـا أنـي لاحظت عـدداً كبيراً من عرب المغرب أيضــاً ٠

فــي تقـريـر للجمعيـة الأدبيـة فـي بـومبـاي ، نشـر في إبريـل عـام ١٨٢١ م جـاء فيـه : " لا يتصـور أنه بوسع الكـابتن سادليـر أن يعطـي تلك الدقـة الجغرافيـة البالغـة عن طريقـه الـذي ربمـا كـان يرغـب فـي أن يسلكه مهمـا كـان السفر نـاشطاً وفريـداً عبــر دولــة لـم يسبـق أن تأكـد فيهـا موضـع مضبوط لبلـدة واحـدة منهـا ، وغيـر مــزود بالأجهـزة الضـرورية مـن جهــة أخـرى ، لكنـه بـلا شـك كـان يقظــاً وحريصــاً أولاً على تحديد اتجـاه مسيرتـه بواسطــة بـوصلــة في غايــة الجـودة ، ثـم ملاحظـة الـزمن الـدقيق الـذي يستغرقه ترحـالـه فـي كل يـوم ، فعن طريـق مثل هذه الوسائل ربما أمكنه الوصول إلـي أقرب نقطة نحو الحقيقـة " !

رحـــلات " ويلستـــد "

فـــي جـزيـرة العـــــــــرب

ممــا لا شــك فيــه ، أن مـدونـات الرحـالـة البـريطـانييـن ، وغيـرهـم ، تمثــل وثـائـق بالغــة الأهميــة لـدراسـة تـاريـخ جـزيـرة العـرب ، تحتشـد بالمعلومــات وتحتفــل بــأدق التفـاصيــل ، وتـــلال المـدونــات والوثـائــق والمـذكـرات والتقـاريـر التــي خلفهـا هــؤلاء الـرحـالــة : تـدعـونــا إلــي التفكـــر والتــأمـل خـاصـة وأنهـا كتبـت من وجهـة نظـر غـربيــة !

لقـــد كـان لهـؤلاء الرحـالــة دوافـع متعـددة لخـدمـة مصـالـح بـلادهـم ، كمـا كـانــت دوائـر الاستشــراق التــي مـولــت معظــم هــذه الـرحـــلات ، لهـا صلاتهـا القـويــة مــع وزارات الخـارجيــة وشئــون المستعمـرات مـع الــدول الأوربيـة بهــدف تسهيـل مهمـة المستعمـر فـي البـلاد المستعمـرة ، وكـان لهـا صــلات قـويـة بحركـات التنصـيـر فـي العـالـم الإسـلامــي ، ولا يكـون ذلـك إلا بـدراسـة مـاضـي الأمـم وتاريخهـا لمحـاولـة الـوصـول إليهـا مـن أقـرب الطـرق وضربهـا فـي المكـان المـوجـع لهــا ٠

كـــان " ج . أر . ويلستـــد " ضـابطــاً إنجلـزيــاً طمـوحــاً يـأمـل فـــي أن يحالفــه الحـظ فـي اختــراق جـزيـرة العـرب المجهـولـة مـن خـلال مخططيــن اثنيـن رسمهمـا لنفســه : الأول كـان الانطـلاق من مسقـط والتـوجـه داخل الجـزيـرة العربيــة حتــى " الـدرعيــة " قـاعــدة نجــد ، والمخطـط الثانــي كـان مـن خـلال مرافقـة جيش محمـد علـي فـي بـلاد عسيـر عــام ١٨٣٥ م ٠٠ وعلى الرغـم مـن إخفـاق ويلستـد فـي تحقيـق أي مـن مخططيـه بالكامـل ، إذ لم يتمكـن مـن انطلاقتـه

من مسقط نحو الدرعية من تجاوز ما هو أبعد من بلدة " عبري " كما لم ينجح في مسعاه الثاني بسبب تعثر حملة محمد علي باشا في بلاد عسير ، وعلى الرغم من ذلك ، فأن ما قدمه من وصف ومعلومات عن المناطق التي تجول بها داخل عمان وعلى السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية وعلى امتداد الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، تضمن الكثير من الاستكشافات الجديدة في عصره ٠٠

وقد زار ولستد الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي ، فسجل في مؤلفه السابق مشاهداته وانطباعاته . وقد حدث على يديه تقدماً معرفياً حقيقياً خاصة بالمناطق الداخلية من عمان . فقد وصل إليها في (١٨٣٥ – ١٨٣٦) وكان ضابطاً في الأسطول وشارك فترة في عملية مسح شواطيء الجزيرة العربية ، وهو من أوائل الذين سجلوا جانباً من النقوش والكتابات الحجرية باللغة الحميرية القديمة . وكان من الذين سجلوا انطباعات جميلة عن الجزيرة " إنني أكاد أقول إننا أخيراً وصلنا إلي الأرض العربية المباركة التي كنت أعتقد من قبل أنها لا توجد إلا في خيال شعرائنا القدامى " ، ويمضي في إبداء إعجابه " هل هذه هي الأرض التي قيل لنا إنها صحراء قفراء لا حياة فيها ولا ماء ؟ ها هنا ، على مدى البصر حقول شاسعة تمتد أميالاً وأميال ، وجداول الماء الرقراق تنساب تحت أقدامنا كأنها ينابيع الجنة . وعلامات السعادة والرضى على وجوه الفلاحين تضيف لمسات أخرى جميلة على الصورة الباسمة ٠٠٠٠ " . ويتضح من كتاباته أنه استمتع كثيراً بالعيش في مجتمع العرب ، وأعجب جداً بصلابتهم وجلدهم واعتزازهم بقيمهم . وكان ولستد يتمتع بحق بموهبة المستكشف الجيد ، ألا وهي القدرة الغريزية على تفهم الأهالي الذين يلتقي بهم ، ويتعاطف معهم . بل كان شديد الإعجاب بالبدو فيقول

(حسب بيدول) : " لو قارنا بين شخصية البدوي وجيرانه ، فلكم تبدو قامة البدوي سامقة عالية فوق الآخرين . إن حسه الوطني واستقلاله الطبيعي يضعانه في مستوى رفيع ۰۰۰ " . ويبقى لما كتبه ولستد أيضاً عن جزيرة سوقطرة وساحل الحجاز أهمية لا تنكر ، مع أن نهايته كانت مأساوية بحق ، فعندما عاد إلي مسقط في ١٨٣٧ أصيب بنوبة حمى حادة . وفي لحظة يأس ، أو ألم ، أو فقدان وعي قرر أن يتخلص من حياته بأن وضع مسدسه في فمه وأطلق طلقتين غير أنه لسوء حظه لم يمت ، وإنما ظل حياً ، معلقاً بين الحياة والموت بضع سنين ، حتى وافاه الأجل وعمره لم يتجاوز بعد السابعة والثلاثين ۰

في الجزء الثاني من كتاب ويلستد ، تناول بالتفصيل مسوحاته الشاملة للساحل الشرقي للبحر الأحمر ، بدءاً من السيس والطور وخليج العقبة ، وانتهاء بباب المندب ۰۰۰ وكتب عن رابغ : " شرم رابغ معروف بأنه مكان للتوقف على خط سير القوافل بين ينبع وجدة ، ويشكل الحدود الجغرافية الثابتة للأرض المقدسة ، وعرفانا بها يحلق الحجاج ، عند وصولهم إلي هذه الحدود ، رؤوسهم ويرتدون ملابس الإحرام . أما كمية التمور التي يجنونها من البساتين في رابغ فهي تفوق في كفايتها استهلاك المزارعين ، ويباع الفائض منها لشراء مختلف الحاجات النافعة وحاجات الزينة . فخلال موسم التمور الذي يمتد من بداية يوليو / تموز وحتى نهاية سبتمبر / أيلول يقيمون معرضاً سنوياً يفد عليه سكان المناطق المجاورة بأعداد كبيرة لمقايضة هذا الفائض بالسمك المملح المقدد على الساحل والحبوب والقماش ، ومواد أخرى تجلب من جدة . ثم يعاد بيع هذه الحاجات بالمفرد على العرب في داخل البر ، وبذلك يزود جميع أفراد قبيلة حزب من هذا المرفأ فقط بالحاجات الأجنبية القليلة التي

يحتاجونها . ويقيم في هذا المكان أثناء هذه الشهور أشخاص آخرون كثيرون ، يجذبهم إليه رخص الطعام ، ويعتاشون على الأرباح التي يحصلون عليها من صيد الأسماك واللؤلؤ الذي يجمعونه ، ثم يعودون في نهاية الموسم إلي حرفهم السابقة ٠٠٠٠ "

ثم زار ويلستد " جزيرة حرامل " التي تبعد عن الساحل بنحو ثمانية أميال وتغطيها شجيرات كثيرة ٠٠ ثم قرية " طوال " على البر المقابل للجزيرة وأهلها يعيشون على صيد السمك وجمع اللؤلؤ ، وأشار ويلستد إلي أن قبيلة الطوال تمتلك نحو أربعين زورقاً تعمل في تجارة اللؤلؤ ٠٠ ثم يرحل بنا إلي شرم " أبحر " وتحدث عن صيادي اللؤلؤ " تلك الحرفة الشاقة الخطيرة التي يمارسها الغواصون العرب بروح جسورة " ٠٠٠ فكتب :

أعتقد أن العمق غير الاعتيادي الذي يغوص إليه الغواصون العرب فات أنظار رحالة سابقين ، إذ لا يوجد في كل أرجاء الكرة الأرضية من يمارس هذه الحرفة الشاقة بروح جسورة مثل روح هؤلاء الغواصين . وترددت حكايات مبالغ فيها حول صيادي اللؤلؤ في الخليج العربي . ولأنني أتحدث من وجهة ملاحظاتي الشخصية ، أستطيع أن أجزم أن أولئك الغواصين يندر أن يغوصوا إلي عمق يتجاوز إحدى عشرة أو اثنتا عشرة قامة ، بل حتى عند هذا العمق يبدون دوماً علامات التعب الشديد . ولكن في البحر الأحمر غاص رباننا " سرور " المتقدم في السن والذي سبق أن ذكرناه بعبارات الإطراء والإجلال ، مرات متكررة إلي عمق خمس وعشرين قامة بدون أن يبدي أدنى علامات للتعب . وقبل سنوات قليلة غرقت سفينة وسط المياه الضحلة الخارجية

مقابل جدة إلي عمق تسع عشرة قامة ، فزارها سرور عدة أيام متتالية ، وظل تحت الماء وقتاً كافياً ليقطع بالنشار المسامير اللولبية النحاسية التي برزت من هيكل السفينة ، كما أمضى وقتاً طويلاً " في داخل المياه العميقة " يغوص بحثاً عن المرجان الأسود ، أو " اليسر " كما يسميه العرب ، وهو فصيلة من المرجان تكثر قرب جدة وينبع وأمكان أخرى مجاورة لهما . جميع أبناء سرور مثله ماهرون في السباحة والغوص . ورأيتهم مرات متكررة يبقون طائفين على سطح الأمواج يرقبون هبوط " روبيه " يقذفها أحد الملاحين من على ظهر المركب ولم يخفقوا أبداً في الإمساك بها قبل وصولها إلي قاع البحر وحين يكون الجو دافئاً ؟ إذ لا يرحب العرب بالجو البارد هنا أو في الخليج العربي ؟ تلاحظ هؤلاء الغواصين الشباب في مرات متكررة يتلقون دورة تدريبية منتظمة في فن السباحة والغوص يثابرون فيها إلي أن يتدفق الدم من أعينهم وآذانهم وأنوفهم ، علاوة على ذلك عليهم أن يتحملوا تمريناً أشد قسوة قبل أن يحوزوا شهادة المهارة ، ولا يتم هذا التمرين حتى تتمزق طبلة الأذن . ويستطيع صبي من هؤلاء الصبية البرمائيين يكاد لا يتجاوز عمره ثلاثة عشر عاماً الغوص إلي عمق خمس وعشرين قامة . أما الوالد سرور الكهل فقد غاص مرات كثيرة إلي عمق ثلاثين قامة ...

تتكون الأدوات التي يستعين بها سرور في الغوص من حجر مشدود بحبل ، ويرسل الحبل بعده بسرعة ما أن يقفز في الماء . وبعد أن يكمل مهمته يجر الحبل بقوة مرسلاً إشارة لسحبه إلي سطح الماء . ولا يبدو أن سرور وأبناءه يظهرون خشية كبيرة من سمك القرش ، رغم أن سرور يحمل على ذراعه آثرا جرح كبير تلقاه أثناء صراع يائس مع أحد هذه الأسماك المخيفة . وتكون وسط الحيود البحرية بين الحين

والحين كثيرة ونهمة جداً بحيث تقطع سمكة المرجان التي نصطادها بالصنارة أحياناً من القاع إلي نصفين قبل أن نسحبها إلي سطح الماء . في هذا المكان استدعت الضرورة مرات كثيرة أن يغوص سرور لتخليص مرساة المركب . ولم يظهر عزوفاً عن فعل ذلك . وبتسليح نفسه بمجرد سكين يربطها بحبل في رسغ يده يقذف نفسه نحو أعماق المياه بلا خوف ٠٠٠٠

تمتد سلسلة من الجبال القاحلة العارية (وهي جزء من السلسلة الجبلية الكبرى التي تكاد تطوق شبه الجزيرة العربية) من جدة إلي العقبة ، تقترب في بعض الأماكن من ساحل البحر وتتجه نحو الداخل مكونة أضلاعاً تزداد في الارتفاع كلما تقهقرت من البحر . ويمكن رؤية هذه التلال من مسافة أربعين إلي سبعين ميلاً حين يكون الجو صافياً ، وأعلاها ارتفاعاً جبل " صبح " وجبل " رضوى " وقمم " المويلح " التي وصفتها وصفاً مفصلاً ٠٠٠٠

واصل ويلستد السير في الأراضي المنخفضة بين سلاسل جبلية والشاطيء ، وقال أن الساحل باتجاه الجنوب من " ينبع " إلي " جدة " تميزه شواطيء رملية ذات قواعد مرجانية ٠٠ وتحدث عن السكان المحليين ، وعن مناخ المنطقة والرياح البحرية القوية ٠٠ وأضاف ويلستد :

يختلف البدو الذين يقطنون في هذا الجزء من الساحل اختلافاً قليلاً في عاداتهم وأحوالهم الاجتماعية عن أولئك البدو الذين يسكنون الصحاري الداخلية . لكنني لاحظت اختلافاً كبيراً بين المظهر الشخصي لعرب الحجاز وأولئك الذين يسكنون على حدود شواطيء الجانب العربي من الخليج العربي .

فعرب ساحل الخليج العربي لهم وجوه بيضوية وشعر أسود قصير على العموم وحواجب لها نفس اللون وبشرة صقلية ، وهم أقل سمرة من سكان الهند . أما أولئك الذين سكنون قرب البحر الأحمر فهم نحيفون ولكنهم يتميزون ببنية قوية وقامة قصيرة ، وشكل وجوههم أكثر استطالة ، وخدودهم غائرة ، ويرسلون شعرهم حتى الخصر باستثناء عقصتين طويلتين على جانبي الوجه (يعتنون بهما عناية فائقة) ، ولون بشرتهم أقل سمرة ، ويعانون على العموم من اعتلالات جلدية . ولا يبعث تعبير وجوههم السرور ويغلب عليها السكر والخبث ٠

وبدو الساحل البحري ، حالهم حال البدو في الداخل ، معتدلون جداً في أسلوب معيشتهم ، وذلك من جزاء عوز الطعام . فبضع تمرات ، وشيء من السمك المملح ، وجرعة من الماء ، وفنجان قهوة في بعض الأحيان تؤلف طعامهم المعتاد . ويضاف إلي هذه ، في مناسبات الأعياد ، خروف مع شيء من الرز أو خبز ليس فيه خميرة . وهذه هي جميع وسائل الترف التي يملكونها على الإطلاق . كما أن العسل قد يشكل مادة من المواد الغذائية الرئيسية لدى جميع الفئات . فالنحل يعيش في تجاويف الصخور ويقتات الرحيم من نباتات مزهرة كثيرة تغطي الجزء الشمالي من الحجاز : لقد ورد ذكر العسل مراراً في القرآن و وصف بأنه طعام صحي ومغذ . وكان العسل إحدى وسائل الترف القليلة التي أنغمس فيها الرسول محمد (ص) . هكذا كان حال الطعام الاعتيادي لأولئك الذين يقطنون في القرى والبلدان على الساحل البحري . لكن طعام البدو الذين ينتقلون من مكان إلي آخر برفقة جمالهم أكثر تقلقلاً وضآلة . فقد علمت أنهم يتولون رحلة تستغرق عشرة أيام أو أثنى عشر يوما ولا شيء يحملون معهم سوى كيس مملوء بالكعك المصنوع من الطحين الذي يمزجونه بحليب الناقة أو المعزى وقربة

مــاء فقطعتــان من الكعـك تـزنــان حـوالــي خمســة أونســات وجـرعــة من المــاء يشربونها مرتيـن كـل أربـع وعشـريـن ساعـة همـا الغـذاء الوحيـد الـذي يعتاشـون عليه في مثـل هـذه المناسبـات . لكـن رغـم أنهـم يتحملـون هــذا الغـذاء الشحيـح صابريـن ، لا يتورعـون في الجري نحو التطـرف فـي الانغماس النهم فـي الطعام أينما تحيـن الفرصـــة ٠

تتكـــون مساكــن هــؤلاء البــدو مـن أكـــواخ أو خيـــام صغيــرة . وتشيــد الأكـواخ ، كمـا فـي " رابـــغ " ، مـن الأعشـاب الخشنـــة والحلفـاء . أمــا الخيــام ، كما فـي " عينـونـــه " وعلـى الساحـل المقابـل " للحســانـــي " فهـي تشيـد من قمـاش خشـن يلقـي فـوق بعض العصـي المثبتـة في الأرض . ولا توفـر هـذه الخيـام سـوى حمايــة قليلــة مــن نوائــب الحــر والبـــرد الــذي يكـون قـاسيـاً جـداً أثنــاء مـوسـم الشتــاء . وللحصـول على مـأوى يقيهـم من الريـاح الشـديـدة القـادمــة مـن الشمــال يلجــأون إلــي تشييـــد أكواخهــم خلـــف بعـض الروابـــي أو بـين الأشجـــار حيــث يستفيـدون من المراعي المنتشـرة إلي جوارهـا . ويتكـون سـلاحهـم من رمح يبلـــغ طولـه حـوالـي ثمانيـة أقدام وهـو مـدبـب مـن الطرفيـن وخنجـر صغيـر أو خنجـر كبيـر معقـوف ذي شكـل شبــه دائـري وشفـرة عريضــة وبندقيــة خـرطـوش لهـا ماسـورة ذات طـول يفـوق الطـول المعتــاد ، وفــي بعض الأحيــان سيـف طـويـل حــاد لــه حــدان مشقـوقــان فــي نهايتــه . ويظهــر أن قليــلاً ، باستثنــاء شيـوخهم ، يمتلكـون مسـدســات ٠

وجـدنـــا علــى الساحـل العربــي والنـوبــي سـلالــة مــن صيــادي الأسمــاك يحملـون اسـم " الحتيمـــي " ، ومــن تشـابــه عـاداتهـم الحاليــة فهـم ، بــلا ريـب بقـــايا سـلالــة " آكلــي السمــك " (الإكثيـوفـاغـــي) الـذيـن وصفهـم " دائـودرس سيكلـس " وصفـاً دقيقـــاً ٠

توجد هذه السلالة من صيادي الأسماك في مختلف أطراف الحجاز ، ولديهم مخيمات كبيرة قرب " الليث " إلي الجنوب من جدة . وكان أولئك الذين التقيناهم يجوبون شاطيء البحر باستمرار في فرق صغيرة للحصول على وجبة غير ثابتة وضئيلة من السمك الذي يلتقطه أولئك الأكثر بؤساً من وسط الصخور أو من الشاطيء الرملي ، بينما يتنقل أولئك الأكثر رخاء ، والذين يمتلكون زوارق وينغمسون في الميل إلي التجوال ، من مكان إلي مكان آخر ، ويعتاشون في الأساس على نفس الطعام ولكنه يتغير بين فينة وأخرى بما يستطيعون الحصول عليه من بيع لؤلؤهم ٠٠٠٠

يحمل أولئك الذين يمتلكون زوارق خيامهم ، التي تتكون من قماش من الوبر يلقي فوق بضع عصى ، وتنصب هذه الخيام في وهدة صغيرة أو خلف جرف صخري لغرض الاختفاء عن الأنظار . لكن أولئك الذين لا يملكون خياماً يكادون يعيشون في العراء ، ويعتمدون في حماية أنفسهم على الشقوق والتجاويف التي توفرها الصخور . يحمي البدو في خيامهم نسائهم وأطفالهم . وتتكون ممتلكاتهم من قوارب صغيرة ، وعدة لصيد الأسماك وشباك صيد ، وعدد قليل من الماعز أو الأغنام وحجز لطحن الذرة ٠٠٠

ثم تحدث ويلستد عن موسم الحج وأعداد الحجاج والنظم التي وضعتها الحكومة المصرية لتيسير نقل الحجيج عبر الموانـي المختلفة ٠٠ وكتب ويلستد :

أشارت الحسابات إلي وصول عشرين ألف حاج هذا العام (عام ١٨٣١) من الموانيء المصرية . أولئك الذين يفدون من الحبشة ، ومناطق

أخرى من داخل أفريقيا يركبون الزوارق في معظم الأحيان من "مصـوع" و " سواكن " و " القصير " ٠

أما أولئك الذي يفدون من تركيا ودول البربر فيركبون الزوارق من السويس . ويوجد في السويس حوالي سبعين زورقاً ، وفي القصير خمسون زورقاً تعمل عملاً متواصلاً من شهر يناير / كانون الثاني إلي شهر يوليو / تموز لنقل الحجاج ٠

الأنظمة التي وضعها محمد علي في مختلف الموانيء المتصلة بركوب الحجاج ، ومرورهم ، ونزولهم أنظمة حكيمة وصحيحة . فقد حددت الأنظمة عدد المسافرين على كل مركب بحسب حجمه ، وهو عدد لا يجوز لأي مركب تجاوزه . ويقوم الكثير من هذه الزوارق بعدة رحلات بحرية أثناء الموسم . ولمنع حصول اضطراب أو ممارسة أية مفاضلة غير مشروعة ، يحفظ سجل بالحجاج عند وصولهم وبالتالي يركبون الزوارق على وفق تسلسلهم في السجل . أما رسم المرور فلا يمكن تحديده تحديداً دقيقاً ، لما كان الجميع يدفعون كل بحسب قدرته المالية . ولكن متوسط هذا الرسم يبلغ بين الطبقات الوسطى ستة دولارات لكل حاج قادم من السويس وأربعة دولارات للذي يأتي من القصير ٠

يوفر الحجاج مؤنهم ومائهم بأنفسهم . ويحصلون على المؤن من البدو في مختلف المراسي ، حيث تجلب القبائل البدوية الأغنام والماعز لبيعها كلما شوهد قارب يقترب من الساحل . ولما كان الحجاج لا يحملون إطلاقاً كمية من الماء تزيد عن ما يكفيهم لثلاثة أو أربعة أيام ، فهم يواجهون في بعض الأحيان عوزاً كبيراً من الماء حين تحتجز الرياح

المعاكسة الزوارق في أماكن لا يستطيعون الحصول منها على هذه المادة الضرورية ٠

أسلوب إبحار الزوارق على طول الساحل العربي عن طريق الممر الداخلي يكون على الوجه الآتي : تبحر الزوارق بعد أن تبلغ الشمس ارتفاعاً كافياً ليستطيع البحارة تمييز الصخور العديدة التي تنتشر في القنال ، بينما يساعد نسيم البر الزوارق في الإقلاع من الأشرام ويزيد سرعة تقدمها بضعة أميال . وعند التوجه إلي أسفل البحر في تقدمها التدريجي ترسو دائماً حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر . ولا يبدي الحجاج سوى قلق قليل جداً في بلوغ نهاية رحلتهم البحرية ، بحيث إذا وفرت رياح معاكسة ، قرب العصر ، أية إمكانية في تأخر توقفها ساعتين أو ثلاث ساعات فوق ما هو معتاد تعود الزوارق قافلة إلي نقطة احتماء غادرتها مؤخراً ، وترسو هناك حتى صباح اليوم التالي ، مهما أصبحت الرياح مواتية . ولا تلقي هذه الزوارق ، سوى الكبيرة منها مراسيها أو كلاليبها ، ولكن حين يقترب الزورق اقتراباً كافياً من الحيود الصخرية يخفض الشراع ، ويقفز اثنان أو ثلاثة من طاقم الزورق وبأيدهم حبال يربطون بها الزورق إلي الصخور بواسطة كلاليب . وحين يسحب الزورق إلي جنب الشاطيء الرملي ينزل الحجاج إلي البر ويطهون وجبة عشائهم ٠٠٠

لما كانت مراكب البغلة الكبيرة لا تستطيع الاقتراب اقتراباً كافياً من جدة لإنزال ركابها تتوجه زوارق صغيرة نحوها مباشرة ما إن تعبر هذه المراكب بوابة الميناء . عندئذ يرى الشخص الغريب منظراً ممتعاً دائب الحركة ، يسوده تشاحن وشجار كثير ودائم بين الحجاج وأصحاب الزوارق . إذ ينظر أصحاب الزوارق ، كما هو الحال في أية أراضي أخرى ، إلي

القادمين الجـدد كلعبـة مناسبـة ويبـدون لهم أقصـى درجـات التملمـل لابتزازهـم بـلا رحمـة ٠

لا يـراعـي جنـس الحجـاج فـي هـذه المنـاسبـات سـوى مراعـاة قليلـة . فالكـل يجـهـد فـي الوصـول إلـي الشاطـيء فـي أقـرب وقـت ممكـن ، ومـن ثـم تـزدحم الشـوارع بحشـد من البشـر أكثـر تنـافـراً من أي حشـد يحتمـل أن يجتمـع في بقعـة واحـدة فـي أي جـزء من أجـزاء الكـرة الأرضيــة ٠٠٠٠

ثـم تحـدث ويلستـد عـن وصـول قـوافـل الحـج : المغربيـة والفارسيـة واليمنيـة وقـدر أعـدادهـا بمائـة وعشـريـن ألـف حـاج ٠٠ وسجـل ملاحظاتـه عن حـركـة التجـارة فـي جـدة ٠٠ فكتـب :

تبـاع البضـائـع التـي تجلـب إلـي جـدة فـي الـوقـت الحـاضـر إمـا أثنـاء مـوسم الحـج إلـي الحجـاج الـذيـن يعيـدون بيعهـا فـي تـركيـا وسـوريـا وغيرهمـا أو تستهلـك فـي مكـة وجـدة ومـدن أخـرى فـي الحجـاز . حمـولات السفـن القـادمـة مـن البنغـال أكثـر تنـوعـاً مـن تلـك القـادمـة مـن مـوانــيء أخـرى ، وبعضهـا يصـل مبـاشـرة مـن كلكتـا وهـي محملـة فقـط بالـرز والسكـر وقمـاش موسليـن دكـاً والبضـائـع الضـروريـة ، وتجلـب سفـن أخـرى أقمشـة زرقـاء ناعمـة ، وقمـاش الكمبـريـك القطنـي الأبيـض الناعـم الـذي تصنـع منـه مـلابس الإحـرام ، والصبـغ النيلـي . وحيـن تـرسـو السفـن عنـد سـاحـل مـالابـار تمـلأ بخشـب الصـاج (التيـك) ، وزيـت جـوز الهنـد ، والفلفـل الأسـود ، والزنجبيـل المجفـف ، والكركـم ، وغيرهـا ، وتبحـر متوجهـة مباشـرة إلي البحـر الأحمـر . لكـن هـذا النـوع من التجـارة اضمحـل تدريجيـاً أثنـاء السنوات العشـرة الماضية ،

أمـا الـذين ظلـوا يشـتغلون بهـذه التجـارة فهـم بشـق الأنفس يربحـون منهـا مـا يسـد معيشتهم ٠

المـواد الرئيسيـة التـي تستـورد مـن " بـوشهـر " و " البصـرة " هـي القمـح والتبـغ والسجـاد الفارسـي وهـذا الأخيـر يشتريـه بالـدرجـة الأولـى شيـوخ البـدو ، حيـث لا يستغنـي الشيخ عن فـرش سجـادة فـارسيـة علـى الأقل في خيمتـه . كمـا تجلـب من هناك تمـور البحريـن والبصرة التي لها قيمة عاليـة في الحجـاز . لكـن الأربـاح المتأنيـة من نقـل الحجـاج تشكـل المـورد الرئيسـي للمراكب التـي تتاجـر من هـذه المـوانـيء ٠٠٠

وتجلـب مـن جـزر المـلايـو بضائـع قليلـة فضـلاً عن التوابـل الشائعـة الاستعمـال في الحجـاز . وتكمـل السفـن المتوجهـة من هنـاك حمـولاتهـا بتحميـل الرز مـن ساحـل مـالابـار . ويصـل كثيـر من الحجـاج سنـويـاً فـي هـذه المراكب . وتستخـدم أربعـة مراكـب فـي نقـل الحجـاج وإدارة التجـارة المحـدودة ، ويحتكـر محمـد علي بـاشا كليهمـا . ورغـم أن رسـم المـرور محـدد بمبلـغ كبيـر ، تـزدحـم هـذه المراكـب ازدحـامـاً مفـرطـاً بالحجـاج نتيجـة استحالـة الحصـول علـى ممـر آخـر بـأيـة وسيلـة . فحيـن يغـادر مـركـب شراعـي صغيـر تبلـغ حمولتـه مائتـي طـن ميـنـاء مخـا للقيـام بهـذه الرحلـة الطويلـة ، تجـده يحمـل مائتيـن وسبعيـن مسافـراً معبئيـن على متنـه فضـلاً عن طـاقـم المركـب ٠٠٠

بمعـزل عن التجـارة التـي تتـم فـي مراكـب ذات أشـرعـة مـرتعـة بلـغ عددهـا هـذا العـام ستـة وعشريـن مـركبـاً (حـوالـي عشـرة آلاف طـن) ، يـوجـد أيضـاً فـرع آخـر للتجـارة لا يستهـان بـه تستخـدم فيـه مـراكـب بغلـة كبيـرة

تبحر أثناء الشهور التي يكون فيها الجو لطيفاً بين الهند وموانيء الخليج العربي والبحر الأحمر ٠

تدفع العائدات المترتبة على هذه الواردات المتوجهة إلي مختلف الموانيء في معظمها بالنقد ، مع بضع لؤلؤات متوسطة النوعية ، وعدة صناديق من الخرز الأحمر ومصنوعات نحاسية قديمة وغير ذلك . وتحمل جميع هذه المراكب عند عودتها بحمولات البن في عدن والمخبا ٠

كانت تجارة البن ، التي تأتي بعد تجارة الحبوب ، تعد سابقاً فرعاً رئيسياً من فروع التجارة بين جدة ومصر ، لكنها انحسرت انحساراً كبيراً منذ استيراد البن الأمريكي والهندي الغربي إلي موانيء البحر الأبيض المتوسط ، وآسيا الصغرى ، والجزء الأوروبي من تركيا وسوريا ٠٠٠٠

لما كانت تربة شبه الجزيرة العربية المجدية لا تنتج سوى كميات قليلة من الحبوب ، وهي غير قادرة تماماً على سد حاجة حشود الحجاج الذين يتدفقون على مكة أثناء موسم الحج ، أسهمت مصر منذ وقت طويل في تجهيز احتياجاتها ٠

ثم وصف ويلستد مدينة " جدة " وسورها وشوارعها ومنازلها "حيث أنقى طرز العمارة الإسلامية " وسكانها وسماتهم ، فكتب :

وجدة بلدة مشيدة تشييداً جيداً ، وهي مبنية على منحنى يرتفع تدريجياً من البحر ، ومحاطة من جانب البر بسور تسنده في مكانات معينة أبراج مراقبة ٠ وتوجد في السور بوابتان هما باب مكة وباب

المدينـة وكلاهمـا محصـن ، وسريتـا مدفعيـة على كـلا جانبـي البلـدة لتحمـي الميـنـاء ٠

شـوارع المدينـة فسيحـة وطلقـة الهـواء والمنـازل شامخـة ومبنيـة بنـاءً جيداً من الحجـر المرجـانـي . وتـرى أنقـى طـرز العمـارة العربيـة الإسلاميـة هنـا وفـي " صنعـاء " و " المخـا " وبعض البلـدات الأخـرى فـي الجـزء الأسفل من البحـر الأحمـر . ولكـن حيـن نتـوجـه نحـو الشمـال نفقـد كثيـراً مـن هـذه المزايـا المعماريـة العربيـة فتصبـح هـذه المـزايـا ممـزوجـة بمزايـا العمـارة المصريـة ٠

ولكـن يمكن تقفـي إمتـداد نفـس الأسلوب علـى طـول جميـع الشاطـيء الجنوبي وحـدود الخليج العربـي حتـى بغـداد ، التـي تحققـت فيها تحققـاً كـاملاً ، وبفضـل رعايـة الخلفـاء الرائعـة ، مفـاهيم الرقـة والأناقـة والفخامـة الشـرقية ٠ إذ هنـاك ، كمـا فـي البلـدات الحديثـة التـي ذكـرت أسمـائها بشـكل القـوس المـدور البيضوي المستدق الرأس المدخل للمنازل على اختلاف مستوياتهـا . وتنسجـم مـع ترتيبهـا الغريـب هذا شبـابيك بـارزة شـبيهة بتلـك التـي نراهـا فـي أكسـفورد ، وكـوفنتري وبلـدات أخـرى قديمـة فـي إنكلتـرا . وقـد زينـت واجهـات هـذه المنـازل وجوانبهـا بأعمـال خشـبية منقوشـة نقشـاً فخمـاً يـدخل الهـواء والضـوء مـن الفرج التي بينهـا . وهي من حيث الذوق والزينـة تسـاوي ، إن لـم تبـز ، الزخرفـة التشجيريـة الموجـودة فـي أجمـل كاتـدرائياتنا . وقـد لاحظـت بعضها مزججاً بالزجاج الملون والبيوت في معظمها مملوطـة ومزينـة بـالكثير من النقوش الشبكية العربية الطراز الضئيلة البروز . سقـوف هـذه البيوت مسطحة ، ولجدار الشرفة عـدة أشكال غريبـة الطـراز . وتخلق هذه البيوت سوية مـع المنـائر التزيينيـة الشاهقـة خروجـاً منسجماً علـى المظهـر العمل للأبنيـة المربعـة الكثيـرة ٠

وليس في جدة سوى اتساق قليل في بناء المنازل ، وتوزيع الغرف يساوي ترتيبها الغرف في بلدات عربية أخرى . أما أبراج الهواء الشائعة في بلاد فارس ومصر والتي تستقبل الهواء المنعش وتوزعه إلي الشقق السفلي من المنازل فليس لها وجود هنا . كما أن السكان لا يشيدون صروحهم بشكلأ ينتفع من الرياح الشمالية الباردة النافعة للصحة . قاعة الاستقبال فسيحة ورفيعة . ويبقى أهل المنزل أرض القاعة رطبة على الدوام ، وفيها يستقبلون الزوار ، وفيها يتمتع رب المنزل والخدم بنوم القيلولة ظهراً ٠

في كل منزل مهما كان حجمه وأهميته حوض ماء يملأ بمياه الأمطار . لكن الآبار التي تزود الجزء الأعظم من البلدة بهذه المادة الضرورية تقع على بعد حوالي ميل ونصف في اتجاه شرقي خارج سور البلدة . ولا توجد في جدة أبنية عامة مهمة . ولا يساوي حجم الجوامع حجم جوامع المخا . ويقيم حاكم البلدة في بناية تستحق الازدراء . سرايات القوافل رحبة ، وتوجد في داخلها ساحات واسعة لها ممرات مقوسة رفيعة ، وهي توفر ملتجأ هادئاً للعديد من التجار الذين يتخذون منها مسكناً لهم ومستودعاً لسلعهم ٠

لدي ملاحظات قليلة تتعلق بسكان جدة الذين يتكونون من عرق مختلط جداً بحيث لا يملك الأفراد سوى سمات مشتركة قليلة وتجعلهم بشرتهم الصفراء وشكلهم النحيف متميزين عن البدو رغم انهم يمتلكون عيوناً واسعة ومتلألئة ولهم أنوف معقوفة وخصائص معبرة عن ذلك العرق . ولبعض الطبقات الدنيا الذين يعملون حمالين ويؤدون أعمالاً شاقة عضلات مفتولة ٠

وفــي جــدة ، كما في مناطــق أخــرى في أفريقيــا وشبــه الجـزيــرة العربيــة ، يمارس السكــان عــادة سخيفـة بقطـع ثـلاثـة شقـوق طويلـة على كـل خـد من خـدي أطفالهـم الرضـع ، وتبقـى نـدب هـذه الشقـوق ظاهـرة طـول العمـر . وذكـرت عـدة أسبـاب وراء ممـارسـة هـذا الطقـس . فالبعـض يقـول أن هـذه الشقـوق تـرمـز إلـي طهـارة مكـان مولـدهـم ، وبعضهـم يعتقـد أنهـا تمنـع تكـون أخـلاط سيئـة حـول العينيـن ، لكـن هـذه العـادة ليسـت عامـة ، فكثير من الأمهـات يعترضن عليها ٠

لا يملــك سكــان جــدة إلا القليــل مــن جــاذبيــة السلــوك التــي تميــز عــادة عـرب المـدن : فهـم علـى النقيـض ، ترتسـم ابتسامـة المرح دومـاً علـى محياهـم . وحيــن يتحـدثــون عـن أخطــر الأمـــور فــأن أي تلميــح ظـريــف وفكــه يكفــي لإضحاكهـم . لكـن هــذا المـزاج الميــال للمـرح يصحبــه الكثيـــــر مـن الدماثــة والأدب ، لا مع بعضهـم البعض ، بـل نحـو الغـربـاء أيضـاً . لقـد زرت بعضهـم مـراراً وتناولـت طعامـي معهـم فـي منازلهـم . ومهمـا كانـت مشاعرهـم الحقيقيـة تجــاه المسيحييــن ، لم يظهـروا أيـة عـلامـات تعصـب ظاهـرة . وأعتقـد أنهـم فـي هـذا مثلهـم مثـل الإنكليــز ، أفضـل من الأتراك بكثيــر ٠

وتجعــل الأمــانـــة الدقيقــة التــي دون بهـا بيـركهــارت كــل حقيقــة مهمــة تتصــل بتصرفاتهـم العائليــة والمحليـة جميع ملاحظـاتي عن ذلـك الموضـوع غيـر ضرورية كلياً . لكننــي أضفت علـى مـا دونـه بيركهـارت بعض التفاصيـل الممتعة التي ترتبط بتاريخهم السياسي والتي استقيتها من ملاحظـاتي الشخصية أثنتـاء أقامتنـا المؤقتـة هنــاك ٠

وتجـدر الإشــارة إلـــي أن كتــاب ويلستـد تضمـن معلـومـات جيـولـوجيــة وجغـرافيـة وآثـاريـة هـامـة وجـديـدة بالنسبـة لـذلـك العصـر ، كمـا حـاول ويلستـد

أن يعطـي الانطباع بـأنـه باحـث متعمـق في كـل جوانـب الدراسـات المتعلقـة ببلاد العرب والشرق عموماً ، فقد خاض أيضـاً فـي مسائـل العقائد والمذاهب والعادات والتقاليد والتاريخ والأنسـاب ٠٠ إلا أن معـرفتـه باللغة العربية كانت ضـعيفة ، كمـا كان حاد الطباع وشديد البخـل في تعامله مع مرافقي رحلاته من البدو ، غير أن مـا أنجـزه لا يجعلـه فـي مرتبـة سـابقيه مثـل : نيبـور وبوركهـارت وسيتزن ، فقـد جـاء ويلستد إلي جزيرة العرب حاملاً في رأسـه صـورة نمطيـة مترسـخة فـي عقلـه ترسـم العربي كبدوي يسكن الخيام ويجوب الصحراء على ظهر جملـه ، بـدائي فـي تفكيـره وسلوكه وجاهل في عقيدته ، مقارنة بالغربي المتحضر والمستنير !

بالجريف : نجد الفصاحة والرجولة وأخلاق الفروسية

رأينـــا الـرحـالـة مــن أوربــا يعبــرون تلـك الـرمـال ويتسلقــون الجبـال فـي الجنوب وغـرضهـم الظاهـر إقــرار مـواقــع المـدن والسهـول والوديــان بـدقــة ، وتلـــك المنــاطـــق التـــي وضعـــت علـى الخـارطـــة منـــذ مئــات السنيـن ، ولكـن المـرء يشـك بـأنهـم كـانــوا حقـاً يعملـون فـــي سبيـــل إتمـــام تلـك العمليـات بـل هـم بـدلاً مـن ذلــك يتحـركـون مـن خـــلال أرض أحـلام اليقظـة القـديمـة والأفكـار الخياليـة ، فهـم رسـل ذلـك الـوهـم الشـائـع والروابـط والصـلات بيـن أوروبـة التي أصبحـت غيـر مفهـومـة وبيـــن بـــلاد العـرب التـــي لـم تـوجــد أبـــداً ، وعلـــى فـرض وجـودهــا فهـــي تتـلاشـى رويـداً رويـــــداً ، فــي الوقـت الـذي يراقبــون تلاشيهـا التـدريجـــي ٠

وإزاء هـذه الخلفيـة السيـاسيـة المضطـربـة لا تـزال تظهـر لنـا صـورة بـلاد العــرب الاسطـوريـــة التـــي رسخـــت فـــي خيـــال الأوربييـن واستمـرت بشكـل لا يتـزعـزع ، والحقيقـة أن تلـك الخصـومـات التي حصلـت بين ملـوك وأمـراء شبـه الجـزيــرة والصدامـــات وذلـــك التغيـر فــي الـولاء والإخـــلاص الـذي كـــان سببـــه الـرؤسـاء القسـاة المتحجـري القلـوب ، كـل هـذا ساعـد علـى تأييـد وتعـزيـز ذلـك السحــر وذلـــك الافتتـــان مـــن قبـل الأوربييـــن . فالغـــارات الخـاطفــة والفتوحـــات الفجائيـة والطموحـات والمعـارك والعقـوبـات الفظيعـــة ، تلـك كـانـت هـي المـــادة التي تلمـح كالسـراب في الأحـــلام الغربيــــة !

ومـــن هـؤلاء الرحـالــة الـذيـن اجتـذبهم سحـر صحــراء العـرب ففتنتهـــم كـــان " وليـم جيفـــورد بالجـريـــف " الـذي سـرد رحلتـه الطويلـة في جــزيـــرة

العرب ، فكتب عن حائل والرياض والإحساء وبعض المناطق الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، وقد حاول صبغ تدوينه بالصبغة العلمية مستفيداً من تجاربه واختلاطه بالمسئولين وذوي النفوذ في البلاد التي زارها ، وكتابه مفيد لدراسة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لسكان الجزيرة في المناطق التي زارها ومر بها ٠٠٠ وقد جمع بالجريف بحق صفة الجاسوس والمبشر الذي جاء جزيرة العرب بصفة تاجر ورحالة ٠

ولد وليام بلجريف عام ١٨٢٦م لأب يهودي ، يدعى فرانسيس كوهين وأم مسيحية تدعى اليزابيث داوسون تيرنر . غير الأب اسم العائلة كوهين إلي اسم عائلة والدة زوجته فأصبح يعرف باسم فرانسيس بلجريف ، وتخلى عن ديانته اليهودية إلي المسيحية الروتستانتية ٠٠٠

تلقى بلجريلاِ الابن تعليمه الجامعي في كلية ترنتي ، بجامعة أكسفورد الشهيرة ، وتخرج فيها بتفوق . ثم التحق بعد تخرجه بالجيش البريطاني بالهند عام ١٨٤٧م ٠ في الهند ، تحول بلجريف عن مسيحية والديه البروتستانتية إلي المسيحية الكاثوليكية ، واستقال من الجيش ، وقرر أن يكون راهباً فأنضم إلي جماعة يسوع . عاد بلجريف إلي أوروبا ليدرس علم اللاهوت في كلية رومانو عام ١٨٥٣ م ، وبقى فيها حتى عام ١٨٥٧ م ، عندما انتقل إلي لبنان ليقوم بالأعمال التبشيرية لصالح جماعته الدينية التي أقامت لها مقراً في بلدة بكفيا لتمارس أعمالها في لبنان ، والمناطق المجاورة . وبدأ بعد ذلك بالسفر إلي مناطق جبال لبنان وسهول حوران في سورية داعياً لدينه بين العرب ، ولم تنته سنة ١٨٥٧م حتى أصبح المسئول الأول عن البعثات التبشيرية ، التي تنطلق من لبنان ،

ومسئولاً أيضاً عن المدارس التي أسستها جماعته في لبنان . وكان بلجريف يتسمى في لبنان باسم مايكل كوهين ٠

لم تستمر أعماله بلبنان كثيراً ، فقد اندلعت حرب أهلية في عام ١٨٦٠م اضطرت جماعته مع بعثاتهم التبشيرية إلي مغادرة لبنان . وتوجه بعد مغادرته لبنان إلي بريطانيا وإيرلندا ، وبدأ سلسلة من المحاضرات عن الأعمال التبشيرية في الشرق . ثم ذهب إلي فرنسا ، حيث التحق بالكلية الجزويتية في ليسيه . عرض بلغريف على المدير المشرف عليه في الكلية بيير سيبستين فويلوت فكرة العمل على تحويل سكان المناطق غير المعروفة في شمال الجزيرة العربية إلي الديانة المسيحية . استقبل مديره الفكرة بحماس ، وعرضها على الحكومة الفرنسية ، التي رحبت بها ، ورتبت مقابلة رسمية بين نابليون الثالث وبينه ، عرض خلالها فكرته على نابليون الثالث ، موضحاً أهميتها من الناحية السياسية ، فالوجود المسيحي في شمال الجزيرة سيسهل على فرنسا إيجاد موطيء قدم لها في بلاد العرب الشرقية . لاقى المشروع اهتمام الإمبراطور ، الذي تجاوبت الفكرة مع طموحاته السياسية في الشرق العربي ، فقبل تمويل الرحلة ومنح بلجريف مبلغ ستة آلاف فرنك لتحقيق غرضه ٠

بدأ بعد ذلك رحلته عن طريق القاهرة ، حيث كما يقول قام بمهمة سياسية كلفه إياها نابليون الثالث . ثم انتقل بعد أداء مهمته في القاهرة إلي بيروت ، حيث اختار رفيقاً يونانياً من زحلة ، اسمه جيرجيري لمرافقته في رحلته إلي الجزيرة العربية ٠

تسمى بلجريف باسم سليم أبو محمود إلياس وتسمى رفيقه باسم بركات الشامي مدعياً كلاهما ، أنهم أطباء من سورية ٠

أنطلــق بلجريــف ورفيقــه " بركـــات " مــن بيــروت إلــي حيفـــا ، فغــزة ، ومــن غــزة إلــي معــان ، التــي وصل إليها يــوم ١٨٦٢/٦/١٦م . مـن معــان ، التـي قال بلجريف عندما وصل إليهـا " إمـا أن تكـون هـذه الأرض قبــراً لنــا ، أو نعبرهــا مــن أولهــا إلـــي أخرهـــا " ، بــدأ عبـور الجزيــرة العربيـة ، فـزار الجـوف ، حائـل ، بريدة ، الريـاض ، الهفـوف ، القطيـف ، البحريـن ، قطـر ، وعمـان . واستمـرت الرحلـة مـا يقـارب العــام ٠

تـــوج بلجريـــف هـــذه الرحلـــة ، بكتـــاب مـــن جـــزأيـــن ، تحـــت عنـــوان " قصـــة رحلـــة عـــام ، عبـــر وسـط وشـرق الجزيـرة العربيـــة " (١٨٦٢ / ١٨٦٣م) ، تـــم نشـــره عـــام ١٨٦٥م . استقبـل الكتـاب عنـد صـدوره بكـل اهتمـام وتقديـر ، واعتبـر أعظـم عمـل تـم وضعـه عن شبـه الجزيـرة العربيـــة ، فترجـــم إلـــي اللغـــة الفرنسيـــة بعـــد عـــام مـــن نشـــره باللغـــة الإنجليزيـة ، ثـم ترجـم إلـي اللغـة الألمـانيـة . ومنحتـه الجمعيـة الجغرافيـة الفرنسيـة وسـامـاً ، لأنـه شرف المنحـة التـي منحـه إيـاهـا نـابليـون الثـالـث ٠

فـي سوريـة ولبنـان انصـرف بالجلريف إلي إظهار التزامـه بالكثلكـة وناصـب المبشريـن البروتستـانـت أشـد أنـواع العـداء ، كمـا ادعـى أنـه نجـح فـي اجتـذاب الكثيرين إلـي صفـه بسبـب طلاقتـه فـي اللغـة العربيـة وتأثيـره فـي النـاس . ويقـول الرحـالـة السيـر ريتشـارد بورتـون ، الـذي كـان يحتقـره احتقـاراً شديـداً ، إن بالجريـف كـان نـاشطـاً سياسيـاً إلـي حـد بعيـد وكـان يهاجم إنجلترا فـي العظـات التـي يلقيهـا فـي كنائس بيـروت ٠

بـــدأت رحلـــة بالجريـــف إلـــي الجزيـرة فـي العـام ١٨٦٢ . غيـر أن رؤسـائـه مـن الكهنـة اليسـوعيين لـم يـدعـوه يـذهـب بمفـرده فجعلـوا راهبـاً مـن

لبنـــان ، كـان قـد تلقـى علـومـه فـي فـرنسـا وإيطـاليـا ، يرافقــه فـي الرحلـة .
غيـــر أن " الأب إليـــاس " مـــا لبـــث أن تخلـــى عـــن المهمـــة بسبـــب أوجـــاع
الروماتيـزم التـي كـان يعانـي منهـا ، فاختـار بالجـريـف أحـد المـدنيين الفـرنسيين
بـديـلاً منــه ، خـلافـاً لنصيحـة رؤسـائـه . إلا أن محـاولـة بالجـريـف الأولـى فـي
الوصـول إلـي نجـد منيـت بالفشـل ، فعـاد إلـي لبنـان وعثـر على رفيـق لبنـانـي
للرحلـة المقبلـة هـذه المـرة ٠

شكــك بعـض الـرحـالـة فـي حقيقـة المعلـومـات التـي أوردهـا فـي كتـابـه ،
وشكـك آخـرون بحقيقـة قيـامــه بالـرحلـة نفسهـا واعتبـروهـا مـن نسـج خيـالـه ،
إلا أن كـل ذلـك لـم يغيـر مـن حقيقــة الأهميـة التـي نالتهـا قصتــه ، واعتمــاد
الغـرب فـي مـرحلـة مـن مراحـل اهتمـامـه بالجـزيـرة العـربيـة عليهـا ، وعلـى مـا
جـاء بهـا مـن معلـومـات . ويمكـن اعتبـار رحلـة بلجـريـف الأشهـر بيـن جميـع
رحـلات مـن ارتـادوا جـزيـرة العـرب مـن الغـربييـن ، ولـم ينـل أحـــد منهـــم
مـا نـالــه بلجـريـــف مـــن نقـــاش واهتمـــام ، وعـــد كتـابـــه مـــن أمهـــات أدب
الرحـــلات ٠

فـي السـادس والعشريـن مـن يـونيـو عام ١٨٦٢ م على وجه التحـديـد ، بـدأ
بلجـريـف وصـاحبـه الشـاب السـوري رحلتهما برفقـة ثـلاثـة من البـدو يرأسهم رجـل
من الحويطـات والآخـران من الشـرارات ٠٠ وكتـب عن الجـوف : الجوف ، هي
المدينـة الرئيسيـة فـي هـذا الإقليـم ، الـذي يتكون مـن عـدة قـرى صغيرة . وبالـرغـم
من ذلـك ، فهي تحمل اسم كـل الإقليـم . تتكـون هـذه البلـدة مـن ثمانيـة قـرى كـانـت
ذات يـوم محـددة ومعروفة ، ولكن بمرور الوقت تحولت إلي بلدة واحـدة وأصبحت
مركز الحركة التجارية ، تعـرف باسم الجــوف ٠

وفـي سـوق الجـوف ، يسـود اسـم عائلـة الحبـوب التـي نسكـن الآن معهـا ، والتـي تشمـل مساكنهـا القلعـة الوسطـى ، التـي ورد اسمهـا مـن قبـل ، وعـدد مـن المنـازل يصـل إلـي أربعمائـة منـزل . والأحيـاء الأخـرى بعضهـا كبير والبعض صغير ممتدة أعلـى وأسفل الوادي ، ويربـط بينهـا مجموعـة مـن البساتين الممتـدة ، وبذلك يكـون طـول امتـداد المدينـة أربعـة أميـال كاملـة ، ومتوسط عرضها لا يزيد عـن نصـف ميـل ، وفـي بعض الجهـات يقـل عن ذلـك .

تختلـف أحجـام المنـازل باختـلاف أحـوال سكانهـا . فالفقـراء مساكنهـم تكـون ضيقـة ، ولكنهـا مستقلـة . ولا أعتقـد أن العائـلات فـي الجزيـرة العربيـة تشتـرك فـي منـزل واحـد مهمـا كانـت الحاجـة إلـي ذلـك . ومنـزل غـافل ، الـذي سبـق وصفـه ، يعطـي فكـرة عن منـازل ميسـوري الحـال . وهـي عبـارة عـن فنـاء خـارجـي لإنـاخـة الجمـال ومـا يشـابههـا ، وفنـاء داخلـي ، وغرفـة استقبـال كبيـرة وغـرف متعـددة صغيـرة ولهـا مـدخـل خـاص حيـث تسكـن الأسـرة .

إن بسـاتيـن الجـوف مشهـورة جـداً فـي هـذا الجـزء مـن الإقليـم . وهـي تستحـق هـذه الشهـرة . إنهـا أكثـر إنتـاجـاً وتنـوعـاً مـن أراضـي جبـل شمـر ونجـد العليـا ، وأكثـر إنتـاجـاً كـذلـك مـن أراضـي الحجـاز ومـا جـاورهـا . فهنـا لأول مـرة فـي مسيـرتنـا جنـوبـاً ، وجـدنـا النخيـل عنصـراً رئيسيـاً للـزراعـة ، وإذا كـان إنتـاج التمـر فيـه أقـل جـودة ممـا ينتـج فـي نجـد والأحسـاء ، فهـو جيـد جـداً بالنسبـة لمـا ينتـج فـي مصـر وأفـريقيـا ، أو وادي نهـر دجلـة مـن بغـداد إلـي البصـرة . وعلـى أيـة حـال ينفـرد النخيـل هنـا بالمكـانـة الأولـى ، أمـا المشمـش والخـوخ والتيـن والعنـب فتـزخـر بهـا المـزارع ويتفـوق ثمـرهـا فـي

النكهة والإنتاج على إنتاج بساتين دمشق ، وجبال سورية وفلسطين . وفي المساحات التي تقع بين الأشجار يزرع القمح ، والبقول ، والقرع ، والبطيخ ، ٠٠٠٠٠ إلخ ٠٠٠ بكميات كبيرة . والمسافر الذي يتوغل في الجوف يدرك أهمية الري في هذه الأرض ذات الطقس الجاف بالنسبة للفلاحة ونمو المزروعات ٠٠٠٠

ثم بعد ذلك تحدث بلجريف عن : قارة وضراء الواقعة قرب الجوف على الطريق إلي سكاكة ٠٠ أقم بلجريف في الجوف ثمانية عشر يوماً ٠٠ أثارت إعجابه اللغة العربية الكلاسيكية التي كان يسمعها لأول مرة ، كما كان يتطلع إلي لقاء ومعرفة " طلال " أمير شمر " الذي كان إنساناً غير عادياً " !

كان من اللازم لمتابعة السير قطع مساحات النقود الرملية في هذا الوقت الحار من السنة الذي يستمر حتى موعد نضج التمور ، أي حتى أول سبتمبر عندما تطلع نجمة سهيل . وهذه المغامرة التي لا يجبره أحد عليها تصل إلي " حد الجنون " . وفي البداية لم يجد بلجريف دليلاً ولكن القدر أسعفه بعد ذلك بعدة رؤساء لقبيلة عزام جاؤوا إلي الجوف بقصد الانتقال منها إلي الأمر في حائل . وقد تمكن بلجريف من الانضمام إلي هؤلاء الرؤساء . وقبل أن ينطلق إلي حائل بعد ظهر يوم ١٨ يوليو حصل بلجريف ورفاقه على توصية من الوالي مرسلة إلي طلال وصفتهم بأنهم أناس محترمون وأنهم دفعوا ضريبة دخول البلاد وتبلغ واحد وثلث تالر للفرد الواحد وأنهم دفعوا لمالكي جملين ثمنهما وأجرة خدماتهما المرتبطة بهما وذلك لمدة ١٠ أيام بواقع ١١٠ قروش ، أي حوالي ستة وثلث تالر (تسعة عشر شلناً بالنقود

الإنجليزية) . بعد ذلك حصل بلجريف ورفاقه على وداع حار تخلله تمنيات باللقاء مرة أخرى ٠

أعطى الصعود على حافة الوادي الجنوبية في اليوم التالي نظرة رائعة على الحصن والبرج والمزارع والبساتين التابعة للجوف وذلك في ضوء الصباح المائل للحمرة والصحراء المتسعة دون نهاية . وبعد ذلك بيوم سار بلجريف ورفاقه قرب التلال الرملية الجيرية التي تحيط بالتجويف و وصلوا أخيراً إلي بئر الشقيق التي يبلغ عمقها نحو ٨٠ متراً . ومن هذه البئر ملؤوا القرب بماء يكفيهم للأيام الأربعة التي لن يصادفوا خلالها منهلاً واحداً للمياه ٠

انتقل الجمع إلي النفود التي تعتبر حسب تفريعات بلجريف أكبر الصحاري الجنوبية وتبدأ شرقي اليمن ونجران وتقطع وادي الدواسر عند قلعة بيشة وتتفرع هنا إلي همسة فروع قائمة الزاوية تقريباً تمتد إلي الهضبة المركزية وتخترقها في بعض المواقع . ويصف بلجريف صحراء النفود بأنها " بحر ضخم من الرمال الحمراء المتحركة التي تتجمع لتشكلاً صفوفاً لا متناهية من الجبال تسير بموازاة من الشمال إلي الجنوب وتتموج التلة بعد الأخرى وتعلو الواحدة منها من ٢ إلي ٢٠٠ متر " وللأسف فإن هذا التحديد من بلجريف للنفود هو خيال أكثر منه حقيقة . والواقع أنه كان ينبغي عليه أن يقرأ والن قبل ذلك لكي يتجنب أخطاء واضحة عند الحديث عن اليمن ونجران وقلعة بيشة . ويتابع بلجريف قوله : " وفي المنخفضات بين هذه التلال يبدو الرحالة وكأنه ملقى في خندق رملي تحيط به الأسوار المحترقة ويشاهد في الأعلى بحر نيران واسع . إذ لا وجود لظلال أو هدوء للعين أو للأعضاء

من تدفقات الضوء والحرارة . " " وكانت الملابس والسروج لها رائحة الأشياء المحروقة وكان الماء ينقص من الحرارة أكثر مما ينقص من الشرب " ، " لو استمر هذا للآبد فأن هذا يعني أن المكان هنا هو الجحيم " !

ويمضي بلجريف في سرد وقائع رحلته وملاحظاته ٠٠ فيجتاز سلسلة جبل شمر (أجا سابقاً) إلي " لقيطة " ثم النزول إلي سهل العاصمة : حائل ٠٠٠ وكتب :

بدت حائل فجأة وهي تلمع في ضوء المساء وتبرز من السهل الكبير المحاط بالجبال ناضرة ولطيفة بسورها الذي يعلو ٢٠ متراً وأبراجها الحصينة وبواباتها الكبيرة وبرجها البيضاوي المتين الملحق بالقصر والذي يصل ارتفاعه إلي ٧٠ متراً . والمدينة خضراء في كل مكان ويوجد حولها عدد من البيوت المنفردة والحدائق وقرى عند فتحات شعاب الجبل . وهذه المنطقة كانت تمتلئ حيوية ويسكنها ٣٠ ألف نسمة وباختصار فإن بلجريف ترك أخيراً الصحراء خلفه وانتقل إلي المدينة العربية وابتهج مشكوراً بهذا التغيير !

مدينة حائل لها شكل مدور في اتجاه الشرق بغرب ويوجد داخل أسوارها المحيطة بها حدائق مهمة . وعلى مسافة ليست طويلة من بوابة المدينة الشمالية يقع في ميدان مفتوح قصر الأمير ذو الجدران السميكة بعلو ٣٠ متراً تقريباً وطول يتراوح ما بين ٤ متر و ٥٠٠ متر ويوجد في أطراف الجدران العليا فتحات تذكر بكوي إطلاق النار اكثر مما تذكر بالنوافذ . كما يبرز على طول الجدار شرفات حصن نصف مدورة .

وعند هذا الجدار الرئيس مباشرة تمتد دكه طويلة من الحجارة والتراب يرتفع في وسطها مقعد عال يجلس عليه الأمير في اللقاءات العامة . وعلى الناحية المقابلة للقصر كان يمتد صف من مخازن البضائع المغلقة ومخادع مخصصة لضيوف الأمير لأن الأغراب لا يسمح لهم بالإقامة في القصر . وكان يوجد في هذه الناحية الجامع الكبير الذي يشكل الزاوية مع ساحة السوق التي تبدأ عند تلك النقطة . ويفصل أحد الأبواب الشارع الرئيسي عن ساحة السوق ويؤدي باب آخر للقصر إلي مكان السكني والحدائق الواسعة المملوكة لعم الأمير (عبيد) الذي يتصف بالتشدد .

كان يقف حول بوابة القصر خدم يلبسون ملابس داخلية بيضاء تعلوها سترة سوداء ويمسك بعضهم بعصى طويلة مغطاة بالفضة والبعض الآخر بسيوف لها مقابض فضية . ويجلس على الدكك مواطنون كثيرون يلبسون ملابس حسنة المظهر ويجلس معهم ، بدون تفرقة ، عمال أفظاظ . أما بدو الشرارات وهتيم الفقراء فإنهم يحشرون أنفسهم حشراً ويبدو عليهم الانزعاج الواضح . " اقترب منا رجل نحيف متوسط القامة وله ابتسامة ودية . وكانت ثياب الرجل جميلة وبسيطة وبيده عصا طويلة مزينة بحلقات فضية وله طريقة وقورة في التحية ويتميز شكله باللطف والنبل . وهذه الصفات أوحت بأنه أحد أعوان الأمير المقربين . واسم هذا الرجل سيف وهو مسئول عن القصر وعن استقبال الأغراب وتقديمهم إلي الأمير " .

ثـــم واصـــل بلجـريــف حـديثـه عمــا سمــاه : " أحـــداث البـلاط الملكــي فـــي حـائــل " ! ٠٠ وتلميحـاتـــه عـن الأميـــر " طـــلال بـن الرشيـد " الـذي تشكك فـي أن زيـارتهم لإمـارتـه تخفــي ورائهــا شيئـاً آخــر ٠٠ وتحـدث عـن شقيــق الأميـر : المـرح المتهـور متعـب بـن الرشيـد ٠٠ ثـم سـرد وقـائـع الرحلـة مـن حـائـل إلـي بـريـدة ومنهـا إلـي الريــاض ٠٠

فــــي الثــالـــث مــن اكتـوبـــر واصــل بلجـريـــف السيـــر نحـــو " عـريــن الأسـد : الـريـاض عاصمـة السلفييــن " ٠٠ وتـم اختيـار الطـريـق المتجـه شمـال شـرق إلـي الزلفـي ثـم جنـوب شـرق عبـر سـدير وجنـوبـاً إلـي العـارض ..

وعنـدمـــا وصـــل رحـالتنـــا إلـــي " حـريمـــلاء " التـــي تشكـــل البـوابــة الشماليـــة لـــوسط نجـــد ٠٠ استقبـل حـاكـم المـدينـــة السلفـــي المتعلـــم الرحـالـــة بحفـــاوة ، وممــا كــان لــه وقـــع حســـن لـــدى بلجـريـــف أن الحـاكـم كـان يتمتـع بالفصاحـــة المشهـورة عنـد العـرب عمـومـاً وعنـد النجـديين بشكـل خـاص ويتكلـم بلغـة عربيـة صافيـــة كــل الصفــاء ٠

قبـــل ظهيـــرة اليـوم التــالـــي وصـــل الجمـــع إلـــي أول مـدينـــة فـي العـارض وهـي سـدوس ، وبعـد أن غــادروا هنــا غـور الـوادي تـابعـوا السيـر عبـر سلسلـة الجبـــال حتـــى ســاعـــة متـأخـــرة مــن الليــل . وبعـــد أن أخـــذ منهـم العطــش كــل مــأخـذ ، بسبــب عـدم وجــود آبــار مــاء منـــذ أن تـركـوا سـدوس ، وصلـوا إلـي حـافــة وادي حنيفـــة وانعشـــوا أنفسهـــم بمـــاء مـــن بـركـــة بهـــا مـــاء صـــاف ثـــم واصلــوا السيـــر فـي الـوادي فـــي اتجـاه جنـوب غـــرب عنـد خـرائـب العينيـــة Ejana ٠٠

عندما تابع الجمع السير في فرع الوادي الذي يقود إلي الدرعية المهدمة فأنهم اختصروا الطريق وشاهدوا على سطح الهضبة مجموعة من الخرائب ، التي كان إبراهيم باشا أقامها كمراكز خارجية للدفاع عن المركز المهم آنذاك ، وأيضاً الأسوار المنفردة لتكتلة مربعة كبيرة لها سقوف واطئة وأبراج مستديرة . والآن مروا بخرائب عاصمة السلفيين الدرعية التي كانت مدينة مهمة يسكنها نحو ٦٠ ألف نسمة . وجاء مرورهم بالمدينة عندما كانت الشمس ترسل آخر أشعتها على الميدان الصامت المهدم وعلى صفوف الطرق التي لا تزال ظاهرة للعيان وأطلال القصر والجامع الكبير وبناء البرج القديم فوق المدينة . وتحيط الخرائب الرمادية بحلقة خضراء قاتمة لبساتين رائعة كان يقيم فيها أيام بلجريف مجموعة صغيرة من المزارعين السلفيين ٠

في صباح اليوم التالي وبعد مواصلة السير على المرتفع شاهد المرء فجأة الرياض أمامه . الرياض : " الهدف الرئيسي من الرحلة الطويلة وعاصمة نجد ونصف شبه الجزيرة العربية " ٠

مما لا شك فيه أن إقامة بلجريف في الرياض التي استمرت حتى ٢٥ نوفمبر ، أي نحو أربعة أسابيع ، كانت هي الجزء الغني بالنتائج من مجمل رحلته العربية : إن ما كتبه بلجريف عن الدولة النجدية وأفكار حاكمها وعن السلفية والعلاقات الاجتماعية في هذه المملكة هو الذي أعطانا معرفة كافية وذلك بالإضافة إلي وصفه للسلوك والعادات التي استطاع التعرف عليها خلال إقامته القصيرة في المدينة ٠

كـان المشـهـد رائعـاً عبـر عنـه بلجـريف بقـولـه : " إنـه مشهـد عظيـم يـزدان بالمناظـر الساحـرة والأحـداث التاريخيـة " ! ..

ويضيـف بلجـريـف : " نسيـر الآن مـن الشمـال شـرق بيـن اسطبـلات الملـك والبسـاتيـن وعبـر ساحـة مقبـرة كبيـرة لنصـل إلـي بـدايـة المـدينـة المحصنـة والمحـروسـة جيـداً وإلي الشـارع الرئيسـي المتجـه مـن الشـرق إلي الغـرب الـذي يمـر عنـد قصـر أكبـر أبنـاء الأميـر فيصـل ويـؤدي إلـي ساحـة المـدينـة الرئيسيـة الكبيـرة . وبينمـا يشمـل سـور قلعـة الملـك عنـد هـذه الساحـة كـل الجهـة الجنـوبيـة فـأن الجهـة الشمـاليـة تغـص بالـدكـاكيـن والجهـة الغربيـة بالأروقـة . ويـؤدي الشـارع الرئيسـي مـن القصـر إلـي الجامـع الكبيـر ، وعلـى الجانـب الآخـر من الـرواق تـواصـل الساحـة مـداهـا وتحيـط بهـا هنـا أيضـاً الـدكاكيـن .

يـوجـد فـي بنـاية القصـر الملكـي باحـات وممـرات وصفـوف مـن الغـرف ويـوجـد فـي السـور الطـويـل للقصـر الخارجـي مـدخـل هـو البـاب الوحيـد للقصـر . وهـذا البـاب لـه شـرفـات واطئـة وضيقـة ولـه أضـلاف يغطيهـا الحـديـد ويـؤدي أولاً إلـي ممـرات مظلمـة يحرسهـا رجـال مسلحـون . ويتصـف القصـر وأجـزاؤه بالمتـانـة والأمـن وهمـا المطلبـان اللـذان كـان يصـر عليهـا الإمـام فيصـل . ولهـذه الأسبـاب كـان يحيـط بالقصـر خنـدق مـن ناحيتيـن ، أما الناحيـة الثالثـة فهـي مؤمنـة بصخـرة مائلـة .

يـوجـد فـي كـل مـوقـع يسكنـه السلفيـون مسجـد يصلـي فيـه المسلمـون الصلـوات اليـوميـة وصـلاة الجمعـة ويتسـع لعـدد كبيـر مـن النـاس وليـس بـه أي زينـة أو سجـاد ولـه بـدلاً من المئـذنـة سقـف قليل الارتفـاع . والجـامع الكبيـر فـي

الرياض لا يختلف كثيراً عن هذا الوصف . ويؤكد بلجريف وجود نحو ٣٠ مسجداً صغيراً في أحياء المدينة ٠

يرى المرء في سوق المدينة الملابس الشعبية المألوفة في كل أجزاء شبه الجزيرة العربية مثل الجبة الحريرية المعروفة عند العمانيين والمعطف المفتوح المعروف عند البدو . وبضائع السوق ، كما هو طبيعي في عاصمة مثل الرياض ، من أجود البضائع ومن بينها اللحوم . فالنجديون الأصليون من العارض واليمامة مزارعون ماهرون ويشتهرون بتربية الحيوانات . وأغنام نجد ممتازة ويذكر صوفها بصوف الكشمير ، ولو كانت الطرق التجارية الملائمة متاحة لأمكن تزويد نصف تركيا بالصوف وبلحم الأغنام من نجد ٠

يتصف سكان نجد بالرجولة الحقة وتسود أخلاق الفروسية في سدير . وفي العارض يتميز الناس بالجدية ودون أي ميل للتظاهر والبهرجة ، أما الشجاعة فلا ينكرها عليهم أحد . ويستحق أ؛فاد بني تميم الثناء لأنهم معروفون بالصبر والذكاء والتماسك القبلي وقلة الكلام ووضوح التصميم وصداقتهم تتجه أولاً إلي أقاربهم الأقربين وملامح وجوههم جدية ولديهم مقدرة عالية على الحكم والتنظيم في إطار الدولة وعلى التصرف حسب نسق معين ويتمتعون بعقل منظم وإرادة مركزة . فهل يحق التعجب والحال كذلك من إخضاع النجديين نصف الجزيرة العربية لحكمهم ؟

ويـذكـر بلجريـف أيضـاً أن لغـة النجديين هـي لغـة القـرآن العظيمـة . ويشهـد مـن واقـع حـديثـه معهـم أو مـن سمـاع معارضيهـم أمـام الـدواويـن بفصاحتهم الطبيعيـة ٠٠٠٠٠

يـورد بلجريـف إشـارة إلـي الأخطـار المحتملـة التـي قـد يـواجههـا الرحـالـة الأوروبـي فـي شبـه الجـزيـرة العربيـة ويـؤكـد أن الرحلـة لا تشكـل للمسيحـي ، حتـى في البـلاد النجديـة ، أي خطـر ، فالعـربـي القـح أنبـل من أن يسـأل عن عقيدة الآخـريـن وكلمتـه الرئيسيـة هـي : الـديـن للـه . وبالطبـع تـوجـد مناطـق في جنـوب غـرب الجـزيـرة العربيـة تفتـقـد لمثـل هـذا الأمـن ، ومهمـا يكـن فـإن المـراكـز التجـاريـة تخلـو مـن التحامـل . ومـع ذلـك فـأن بعـض العـرب ينظـرون بعيـن الريبـة للرحـالـة الأوروبيين خشيـة مـن أن يكـونـوا عملاء !

لويس بيلي : بين الاهتمامات الجغرافية ومتطلبات السياسة !

كان الكولونيل " لويس بيلي " يشغل منصب المقيم البريطاني في الخليج من عام ١٨٦٢ م حتى عام ١٨٧٣ م فحاول أن يطبع العلاقات مع أمير نجد الذي كان باعتراف الجميع : من أكثر حكام الجزيرة مهابة ومدعاة للاحترام ، كما كان بيلي نفسه يرغب في تحدث مقولة " الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية " بأن أي أوروبي لا يمكنه الوصول سالماً إلي الرياض ٠٠ وفضلاً عن ذلك كان بيلي يحلم بأن يضيف إلي أمجاده مجداً جديداً بعد كسب لقب : أول رحالة يقطع الطريق بمفرده من طهران إلي الهند عن طريق قندهار ٠

كان لويس بيلي واحداً من أبرع الدبلوماسيين الرحالة ، وتتميز رحلته من الكويت إلي الرياض بأهمية خاصة ليس لمجرد كونها رحلة شاقة ، بل بسبب الخلفية السياسية التي تنطوي عليها – ولابد من الإشارة إلي سوء العلاقات بين الأمير فيصل وبريطانيا – وكانت زيارته للرياض قبيل وفاة الإمام – رحمه الله – بأشهر قليلة ، لكن بيلي نكث بوعده عقب وفاة الإمام " في إحلال السلام في المنطقة وخدمة شعوبها ، وشرع يمارس دوراً آخر مغايراً تماماً لهذا الوعد ، مستهدفاً أولاً وأخيراً إضعاف الدولة السعودية ٠

لقد سافر بيلي كثيراً خلال عمله الوظيفي وساهم في إثراء المعرفة الجغرافية عن البلدان التي أقام فيها أو زارها ، ومن المؤسف أن

اهتماماته الجغرافية لم توظف بشكل جيد لأنه كان مشغول الذهن بالقضايا السياسية والمصاعب في الرياض ٠٠ غادر بيلي الكويت في الثاني من شوال ١٢٨٢ هـ / ١٧ فبراير ١٨٦٥ م مع مرافقيه : ضابطان ومترجماً وطباخ برتغالي وأربعة خدم وثلاثين جملاً ومعها أصحابها !

أقام بيلي في الكويت عدة أسابيع في انتظار إذن الأمام فيصل له بالقدوم ، كانت الكويت آنذاك تحت حكم الشيخ " صباح الثاني بن جابر الصباح " ١٢٧٦ – ١٢٨٣ هـ ٠٠ لكن الإمام لم يرسل لهم دليلاً ليسهل مرورهم عبر أراضي البدو الخطرين ، اتخذ بيلي ورفاقه طريقاً مباشراً إلي الرياض مروراً بالصبان ونفود الدهناء وهضبة العرمة قبل أن يعرجوا نحو بلدة سدوس ، ومنها إلي العينية و وادي حنيفة ثم اجتازوا الدرعية إلي الرياض ، و وصفه لكل من سدوس والعينية مفصل أكثر من وصفه للرياض ٠

وقد أمضى بيلي تلك الأسابيع في ضيافة الشيخ يوسف بن بدر ، فتمكن كما يقول من إدراك الحياة الداخلية اليومية في بيت شيخ عربي " ٠٠ ليس ثمة إنجليزي راق في مقدوره إن يكون أكثر من الشيخ يوسف بن بدر كياسة وكرماً ، وقد بلغ الثانية والسبعين من عمره ، وتحدث عن كثرة زواجه ، وعما يحظى به من احترام من قبل أبنائه الكثر " وقد أمضى أسبوعاً معهم في البرية في أحد حصونهم في (الجهراء) يستمتعون بالصيد بالصقور ، ومشاهدة أفراسهم الجميلة ، و وصف اهتمام الشيخ يوسف بالخيول التي تجلب له في مجموعات من قبائل الجزيرة ، ومن نجد ، فيجمعها في اسطبلات مسورة ، ويعدها للتصدير إلي (بومبي) مشحونة بحراً من الكويت ، وتحدث بتوسع عن هذا الشيخ العربي الكبير الذي ورد له ذكر في

كتاب " أصول الخيل الحديثة " وأنه كان ممن يشتري الخيل ، وقد أفاض في الحديث عما شاهده في ضيافته ، وعما أعجب به من أخلاقه وكرمه ، وما استفاده منه من معرفة أصول الخيل الحديثة ٠

ذكر " بيلي " أنه بعد مسير ساعة ونصف الساعة من موقع " ملح " أصبح داخل الحدود السعودية مباشرة ، مضيفاً : كان ثمة جبل مخروطي يقال له " وارة " وبقربه موضع يدعى " الصبية " و وصف ما اعترض طريقه ، وما حدث بينه وبين رفاقه من حيث اختيار الطريق إلي الرياض ، وأنه لحق به شيخ بيعي كان اشترى منه حصاناً في الكويت للسير معه ، وهو أحد أتباع عبد الله بن فيصل ، وذو مقام في قبيلته ، فدفع له " بلي " خمسين دولاراً أي خمسين ريالاً (فرنساوياً) ، أجرة الاستفادة منه ، وذكر أن ابنا مضيفه يوسف بن بدر كانا قد رافقاه ، ولكنهما في صباح ٤ شوال ١٢٨٢ (اليوم التاسع عشر) تركاه عائدين ، معبراً عن سروره بكياستهما وكرمهما ٠

وفي ٦ شوال ١٢٨٢ هـ / الحادي والعشرين من فبراير بلغ منطقة " الشق " بعد مروره قبلها بمكان يعرف باسم " لقيط " ثم النزول في " تلة الكبريت " في " الشق " ٠٠

توقفت القافلة في " سدوس " وقد وصف البلدة بأنها مجموعة قرى صغيرة ، وجميلة ولطيفة ، مجتمعة حول حصن صغير ، وزاد من بهجة المكان عدد من بساتين النخيل المتفرقة ، وبعض الأراضي المزروعة ، ومن ضواحي هذا الحصن يمكنك أن تطل غرباً إلي قرية " المحمل " ومن ثم تعبر بنظرك إلي سلسلة " طويق " الشامخة ٠٠

كـــان الاتجـاه فـي ٨ شـوال الرابـع مـن مـارس مـن " سـدوس " والنـزول مـن الهضـبة بحيث كانـت " الريــاض " تقـع فـي اتجـاه الجنـوب الشـرقي ، وكـان الطـريـق يمر بمنحـدر رافـد مـن روافـد " وادي حنيفـة " حيث يبلـغ أطـلال بلـــدة " العيينـــة " و وصف هـذه الأطـلال ، كما وصـف مجـرى " وادي حنيفـــة " في هـذه المنطقـة بتوسـع ، وذكـر بعض الآبـار الـزروعـة في " العيينـــة " و وصـف فلاحيها بـأنهم مهذبـون ، شـربـوا عنـدهـم حليبـاً من الإبـل ، واستراحـوا مـدة سـاعـة ، ولكنهم حينمـا عـرفـوا بـأنهـم إنجليـز ، ذاهبـون لمقـابلـة فيصـل ، بــدا عليهم عـدم القـدرة على فهـم تلـك المقابلـــة !

و وصـــف " بيلـــي " مشـاهـداتـه فـي : الصمـان ، الـدهنـاء ، حـزوى ، ثـم أطـلال الـدرعيـة ، كمـا سجـل انطباعاتـه عـن مـدينـة الريـاض ولقـائـه بالأمـير فيصـل بـن تـركـي ، فكتـــب : " وقبـــل الـوصـــول للـريـــاض بحـوالـــي سـاعـــة مـررنـا بمنـزل ريفـي ومـزرعـــة للأميـر وأعقـب ذلـك مبـاشـرة بعـد أن سـرنـا منحـدريـن رؤيتنـا لمـدينـــة الريـــاض أمامنـــا علـى اليميـن منـا ، لقـد بنيـت علـى مرتفـع من الأرض ، لا يبعـد كثيـراً عن " وادي حنيفـــة " بـدت لنا البلـدة فسيحـة ، ولطيفـة ، دون زخـرف أو تجمـل ، فقـد كـان بنيانهـا باللبـن ، أمـا ضـواحي البلـدة فقـد أنعشتهـا حـدائـق النخيـل القليلـة والبهيجـة ! ٠٠٠ إن كلمـة الريـاض تعنـي الحـدائـق أو الأراضـي المزروعـة ٠٠٠ قابلنـــي خـارج البلـــدة مبعـوث مـن قبـل الأميــر ، وأبـدى تـرحيبـاً كـافيـاً ، ثـم قـادني إلـي منـزل معـزول وسط مـزرعـة أقيـم خصيصـاً للأتـــراك والأجـانـب ، وبعـد قليـل جاءنـا سكرتيـر الأميـر "محبـوب " و أوضح لـي أنـه من الأفضـل أن نظـل خـارج المدينـة ، لأننـا نتعـاطي التدخين والناس قد تضايقنا " ! ٠٠ وفي اليوم السادس من مارس ١٨٦٥م كان لقائـه بالإمام فيصل بـن تركـي ، وكتب بلـي في وصف القصر : " لـم يكن القصر بعيداً ، إذ كـان يقـع فـي وسط البلـدة ، وأمـام القصـر ميـدان واســع ، وبعـد بوابـة القصـر

الخارجية مباشرة ، أصطف عدد قليل من المدافع القديمة ٠٠ المبنى يتسم بالبساطة الشديدة ، ومكان الاستقبال عبارة عن قاعة طويلة ذات أعمدة خشبية مقطوعة بطريقة بدائية ٠٠ وقد وجدت الأمير جالساً في صدر الغرفة على سجادة جميلة ، مستنداً إلي مسند ضخم ، وإلي جانبه يجلس أبنه الأصغر ، وعلى مسافة بعيدة جلس سكرتيره الخاص ، وحين اقتربت وقف الأمام في صعوبة ، وصافحني ثم دعاني للجلوس إلي جانبه ٠٠ وجهه كان رائعاً ، يبدو عليه أنه جاوز السبعين ، وثيابه تدل على ذوق رفيع ، صوته منسجم النبرة وكلماته هادئة ومحسوبة ، كان رجلاً جليلاً ولطيفاً ، وبعد تبادل المجاملات قدمت أعضاء الوفد ، وأعربت عن تشرفي بمقابلته ، ورد قائلاً : إن الرياض مدينة غريبة على الأجانب ، وأنه لم يسمح لأحد من قبل بالدخول إليها " ٠٠ وفي صباح اليوم التالي ، كان لقاء آخر مع الإمام ، الذي " تحدث بادراك عظيم عن الأحوال الطبيعية والسياسية لشبه الجزيرة العربية " !

داوتـــي .. رحلاته في صحراء العرب

رغـــم كثــرة الرحــلات الاستكشـافيــة ، تظـل رحلــة الانثروبولوجــي البريطـاني تشـارلـز داوتـــي نمـوذجــاً فـريــداً لتلـك الرحــلات ، التــي تمت فـي النصف الثـاني من القـرن التاسـع عشـر ، وإذا كـان الرحالــة الإنجلـيز من أمثـال بـورتـون ، ويلنــت ، ولـورنـس ٠٠ فقـد أقبلـوا على الصحـراء العربيــة برومانسية وتـوق إلي المغامـرة ، فإن داوتـي يختلف عنهـم في أنــه أقبـل عليها بـروح واقعيــة تبحـث عن ماضيها ، ولـم يـر فيـهــا جنــة الأحـــلام ، بـل أرض الماضـي الدفيـن التي تنتظـر من يكشـف عن أسرارها . وهــذه الـروح الاستطلاعيــة متجســدة في كتابـه وظاهـرة في التفاصيل الدقيقـة والـوقـوف عنـد الآثــار القـديمـة : إنهـا روح عالـم الآثـــار . وقــد ذكـر هـو نفســه أن مـن أسبـاب رحلتـه إلي الجـزيـرة العربيـة رغبتـه في الكشـف عن الآثـار ، وجمع المعلومات الجغرافيــة ٠

الـواضــح تمـامـــاً أن داوتـــي – الـــذي كـــان مـدفـوعــاً بالغيـــرة الدينيـــة والنصرانية بالطبـع – ابتغـى أن يبحث فـي الشرق عن أصـل الإنسانيــة ، لـم يكن اهتمامـه بجـزيـرة العـرب من أجــل أهلهـا ، بـل لرغبتــه فـي استقصــاء كتـابـات ظـن أنها قـد تكـون ذات قيمـة تـوراتيـة . وبمــا أنــه فخـور بـدينــه و (بريطانيتـه) لـم يستطـع إلا أن يستهجـن المسلميـن والعـرب ، كـان غرضـه في واقـع الأمـر أن يخـدم بــلاده ، ويجعلهــا أكثـر وعيـاً بتراثهــا وأصلهــا المجيـد ، بـل أن أسفــاره وبحـوثـه " كـان يقصـد منهـا تهيئتـه لخـدمــة عنصـره " . ولـهــذا كـانـت الـدوائـر البريطـانيـة تشيـد بالكتـاب إلي حـد الفخـر ، لمـا لعبـه الكتـاب من دور فـي ميـدان السياسـة فيمـا بعــد ، فلـورنـس يـذكـر فـي مقدمتـه لطبعـة متـأخـرة منـه ، أنـــه "أصبح من الكتـب العسكريـة المقـررة المفروضـة قـراءتـه على الضباط في منطقـة

الشرق الأوسط ، وساهم مساهمة كبرى في قيادة جيشنا إلي النصر " خلال الحرب العالمية الأولى ٠

فمن هو داوتي هذا ، وما هي حكاية رحلاته إلي الصحراء العربية ، وماذا عن حقيقة المهمة السرية التي اضطلع بها في جولاته تلك ؟

هو أشهر من جاب الجزيرة العربية – طبقاً لدائرة المعارف البريطانية – ويرى فيه الرحالة والمستشرق البريطاني " بلنت " أنه "أعمق المستشرقين الإنجليز فهماً للعرب " ! ٠٠ وكانت رحلة داوتي إحدى مساهمات العصر الفيكتوري في اكتشاف الجزيرة العربية ٠

ولد " تشارلز مونتاجو دوتي " في التاسع عشر من أغسطس عام ١٨٤٣ م في " سافولك " من عائلة ارستقراطية ، انجبت ستة من أمراء البحر وثلاثة جنرالات وأسقفاً وقاضياً حاكماً لأحدى المستعمرات ٠ وكبر دوتي وهو يحلم بأن يصبح ضابطاً في البحرية ، وكاد حلم صباه يتحقق سنة ١٨٦٢ م لولا أنه رسب في الفحص الطبي ، بسبب اعتلال صحته اعتلالاً لازمه منذ مولده . وتغلب على هذه الصدمة النفسية وقرر أن يكرس جهده لخدمة بلاده في مجال آخر ، فبدأ بدراسة الجيولوجيا . وبين ١٨٦٥ م و ١٨٧٠ م درس في جامعة لندن وكيمبردج الأدب الإنجليزي القديم ٠

ومن سنة ١٨٧٠م إلي أن بدأ برحلته في البلاد العربية ، قام بجولات في أماكن عدة : فزار هولنده ، وبلجيكا ، وفرنسا ، والرفييرا الإيطالية ، وأقام زمناً في فلورنسا ، وجاب أنحاء صقلية . وفي شهر أكتوبر ١٨٧٢م زار الجزائر ، فكان هذا أول اتصال له بالمسلمين . وطاف باسبانيا ، ولم

يعجبــه فيهـا سـوى بـرشلـونــة " المكــان البهيج الـوحيـد فـي اسبانيـا " ، وقضــى نحـو سنـة في اليـونـــان ٠

وبعـــد انقضـــاء شتـــاء ١٨٧٣ ــ ١٨٧٤ م أدار دوتـــي ظهـــره للغــرب ، وقصـد الشـرق العربـي ، فجـاب أرجـاء سـوريـا ، ولبنـان ، وفلسطيـن ، ومصـر ، وامضى ثلاثـة شهـور من عـام ١٨٧٥ فـي شبه جـزيـرة سينـاء . ومـن هنـا كتـب إلي صـديـق لـه يقـول : " ليـس لـي من غـاية بعـد هذا سوى أن أرى البتــراء " ٠

وتـوقـف وهـو فـي طـريقـه إلــي البتـراء عنـد عيـن مـوسـى ، ونــام مـع البـدو الـذيـن تـوقفـوا عنـدهـا ليستقـوا ويستـريحـوا ٠ وفــي الليـل استمـع اليهـم يتحـدثـون عن مكـان يقـع على طريـق الحـج إلـي مكـة يسمــى مـدائـن صـالح ، فيـه نقــوش كثيــرة ، وأضـرحـــة مـــن الصخــر . وفـــي البتــراء سمـــع البـــدو أيضـــاً يتحدثـون عـن هـذا المكـان ، فـأثـار حـديثهم اهتمامـه ، وقــرر أن يـزوره ، وينقـل لعلمـاء أوروبـا ما فيه من نقـــوش ٠

لـــم يضـف دوتــي الكثيـر مـن المعلـومـات الجغـرافيـة ، لكـن الصـورة التـي رسمهـا كـانـت فـريـدة فـي وقتهـا وتفاصيلهـا ، وبعكـس أسـلافـه فقـد رأى حيـاة الباديـة وراقبهـا مـن الـداخـل وعـرف دقائقهـا وتفـاصيلهـا ٠٠ لقـد كانـت رحلتـه إحـدى مساهمـات العصـر الفيكتوري فـي " اكتشــاف جـزيـرة العرب " إلـي جانب مساهمات : ريتشــارد بيـرتـون و ولفـريـد بلنـت وجيفـور بالجريـف ٠٠ فــي وقت كانت فيه أسـاطيـر " ألـف ليلـة وليلـة " تمــلأ خيـال الإنجلـيز والأوروبييـن عامــة ٠٠ إلـي أن طغـت صـورة العربــي النبيــل فـي نجـد والـذي أقـر دوتـــي بفـروسيتــه !

تسمـــى " دوتـــي " باسم خليـل ، وانضـم إلي قـافلـة مـن الحجـاج ٠ وعنـد مـدائـن صـالـح انفـرط عنهـا على أن يرافقهـا عنـد عـودتهـا إلــي دمشـق ٠ وأقبـل على النقوش النبطيـة ينسخها ويدرسها ، فما أن فرغ منها حتى استهوتـه المنطقة ٠ وتعرف بأحد الحجـاج العائـديـن ، و وثق بـه فسلمـه نسخـة من النقـوش طلـب منـه أن يسلمهـا بـدوره للقنصـل الإنجـليـزي في دمشـق ليحتفـظ له بها إلي حيـن عـودته ، فأن لم يعـد ارسلها إلي الجمعيـة الجغرافيـة الملكيـة ٠

وبـدأ رحلتـه في الشمال الغربـي من الجـزيـرة العـربيـة : يعيش مع البـدو ، ويـؤاكلهـم ، ويتعـرض للمخـاطـر ، فـزار : خيبـر وتيمـاء وحائـل وبريـدة وعنيزه والطائـف وجـده ٠٠ في رحلة استغرقت ٢١ شهـراً ٠

وفــي عــام ١٨٧٦ م ظهـر داوتـي فـي دمشـق استعـــداداً لرحلتـه الثانيـة فـي جـزيـرة العـرب ٠٠ فــي التاسـع عشـر مـن نوفمبـر تسلــــل بـين قافلــة الحجـاج المسـافرة مـن دمشــق حامــلاً معــه مسـدسـاً وبندقيــة وصنـدوق أدويــة ورزمــة مـن الكتـب ، وقـد نـوى مصاحبــة هـذه القافلــة حتــى مدائــن صــالح ، منتصـف الطريق إلي مكـة المكرمة حيث ينفصـل عنها لينسخ المخطوطــــات ، ثـم يعـــود مـع القافلـة فـي رحلـــة عودتهــــا من الحجــاز ، ولكنــــه بـدلاً من العـودة إلـــي دمشـــق مـــع الحجـاج بـدأ فـي كتابـــة مذكـراتــه عـن الصـحـراء الغربيـة ٠

داوتـــي فـــي وصــف القافلــة أثنــاء الطـريــق ، إذ كــان الحجــاج – كــل صبــاح – يفككــون خيـامهـم ، ويحملـون إبلهـم ، وينتظـرون طلقـة المـدفـع إيذانـاً بالإنطـلاق ، وهـو تقليـد لم يتغيـر منـذ أيـام فارتيمـا : " مـن دون أي فوضـى كانـت الهـوادج والسروج ترفع فوراً إلي ظهـور الحيوانـات الناقلـة ، وتـوضـع الحمـولات

علـى ظهـور الجمـال النائخـــة ، ثـم يعتليهـا آلاف الحجيـج فـي صمـت شـديـد " !
كانـت القافلـة تسيـر مشكلـة طابـوراً يمتـد إلي ميليـن تسيـر فيهـا كل أربعـة جمـال
إلي جانـب بعضهـا ، ولا تتـوقـف إلا عنـد الغـروب . وحيـث تتـوقـف كـان ستـة
آلاف حاج ينتشـرون في هـدوء ، وهكـــذا أيضـاً إبلهـم وخيـولـهـم وبغالهـم البـالغ
عـددها عشــرة آلاف ٠

وعلـــى الطـريــق رأى داوتـــي الآبـــار الحجـريـــة أو " القـــلاع التـــي كانـت
تنتصـب وحيـدة في فـلاء الصحـراء الكبيـر " ويقـوم علـى حراستها بعض الجنـود
الجزائرييـن الـذيـن رافقـوا الأميـر عبـد القـادر إلي منفـاه الدمشقـي ، وبعـد ثـلاثـة
أسابيـع وصلـت القافلـة إلـي " مـدائـن صـالـح " حيـث أبلغـه الحجاج " أنك يا خليـل
سـترى العجائب اليوم من البيـوت المحفورة في الصخـور " ٠

وعنـــد وصـولهـم إلـــي مـدائـــن صـالـــح أعـرب داوتـــي عـن رغبتـــه فـي
الانفصـــال عـــن القـافلـــة ليمضـــي " خليـــل " ثـلاثـة أشهـر باستضـافـة الحاميـة
العسكـريـة يـدرس فيهـا مـدائـن صـالـح ، ويبـدو أن أحـد رجـالهـا ، المـدعـو محمـد
علـي كـان يعمـل علـى الحصـول علـى بنـدقيـة " خليـــل " فـي المقابـــل ! علـى
الأقـــــــل ٠

فـــي تلـــك الأثنـــاء ، أقبـــل داوتـــي علـى النقـــوش النبطيـــة ينسخهـــا
ويدرسهـــا ، فمـا أن فـرغ منها حتى استهوتـه المنطقـة ، وتعرف علـى أحد الحجـاج
العائدين ، و وثـق بـه فسلمـه نسخـة مـن النقـوش طلـب منه أن يسلمهـا بـدوره إلـي
القنصـل الإنجليـزي في دمشـق ، ليحتفظ له بها إلي حيـن عـودتـــه ، فـإن لـم يعـد
أرسلها إلي الجمعيـة الجغرافية الملكيـــة ٠

وبعد انتهاء " خليل " من إنجاز مهمته في مدائن صالح تملكته رغبة في القيام بمغامرة جديدة ، هي التوغل داخل قلب الجزيرة العربية ، بدأ رحلته إلي الشمال الغربي من الجزيرة العربية ، بمعية (زياد) وهو أحد الشيوخ المحليين ، وانتحيا جانباً عن طريق الحجاج ، فإذا بهما أمام جمع غفير من أسراب جراد ، ثم بدأ بممارسة معيشة البدو يؤاكلهم ، ويتعرض للمخاطر ، مع فارق واحد عمن سبقوه هو زعمه عدم التظاهر بالإسلام والإعلان عن مسيحيته ، وقد مر آنفاً أنه انتحل اسماً شائعاً في سوريا هو " خليل " . لكن يبقى التساؤل هل يصح هذا الزعم مع ما عرفناه من أن كل من كشفت هويته من الرحالة الذين سبقوه من قبل البدو قد لقى حتفه !

مكث أولاً مع جماعة زياد ،وهم من قبيلة " الفجير " وقد بدأ برصد عادات هؤلاء عن كتب وسجل " كل شيء رآه وسمعه أو شعر به في قلبه " ٠

سافر " داوتي " مع قبيلة الفجير إلي تيماء حيث وجد غاية من أشجار النخيل تحيط بها أسورا الحدائق المصنوعة من الخضاء ، وهي محصنة ببعض الأبراج . وهناك رأي " داوتي " عدة مخطوطات ومنقوشات قديمة ، فنسخ بعضها و وصف بعضها الآخر ، وكان من بينها ما دعاه " حجر تيماء " ٠

كانت حائل محطته الثانية ، وقد وصلها وهي تعيش تداعيات أحداث مؤسفة شهدتها عائلة آل الرشيد ، التي كانت تحكم يومئذ منطقة حائل ، وهناك كان " خليل " النصراني محاطاً بالشك دوماً ، مع أن محمد بن الرشيد استقبله بمنتهى المجاملة والكرم في عدة مناسبات ، وقد حماه

إلـي حــد مــا ٠٠ كمــا كــان يتعــرض لعــدة أسئلــة حـول الأعاجيــب التقنيــة الموجـودة في الغرب التي كـانــت قد بــدأت أخبـارها تصــل وتـؤثـر على مناطـق شمــال بــلاد العـــــرب ٠

لورانس ورأي في كتاب داوتـــي :

ويـــرى تـــي . أي . لـورنــس أن كتـاب " الصحــراء العـربيـة " : هـو أول كتاب عن العـرب في صحـرائهـم لا يستغنـي عنه أي مستعـرب ٠ والـذي لا نشـك فيـه هـو أن دوتــي حــاول أن يسجـل تجاربــه بـدقـــة ، ويبلـغ مـن دقـة تصـويـره لحيـاة الصحــراء أحيـانـــاً أن تفـوح مـن كتـابــه رائحـــة لبــن النيــاق ، والسمـــن ، والجمـال ٠ ويتمتـع دوتــي بقـدرة فائقـة علـى تصـويـر الجـو ، حتـى لنحـس أننـا نشاركـــه السيـر فـي الصحـــراء ، ونعطـش مثلــه ، ونتعـب ، ونخــاف ، وتشوينـا حـرارة الشمـس اللاهبـة ٠ وفي الوقـت نفســه يعيـش فـي خيالنــا منظـر الصحـراء المترامية وقـت الغـروب ، ونشـاط القـوم في ضـرب الخيـام فـي المســاء ٠ ونفــذ السيـر معـه فـأذا بـدت واحــة مـن بعيـد ، بعـد طـول الشقـاء والعنــاء ، مـــلأت النفس سعادة غامــرة " !

وإذا كـان الرحـالـة الإنجليـز مـن أمثـال بيـرتـون ، وبلنـت ، ولـورنس ، قـد أقبلـوا علـى الصحراء العربيـة برومانسيـة وتـوق إلي المغامـرة ، فأن دوتـي يختلف عنهم فـي أنـه أقبـل عليهـا بـروح واقعيـة تبحـث عـن ماضـيها ، ولـم يـر فيهـا جنـة الأحــــلام ، بـل أرض الماضـي الدفيـن التي تنتظـر من يكشـف عن أسـرارهـا ٠ وهــذه الروح العلميـة واضحـة في الكتاب في التفاصيـل الدقيقــة ، والـوقـوف عنـد الآثــار القـديمـــة : أنهـا روح عالـم الآثــار ٠ وقـد ذكــر هـو نفســه أن من أسبـاب

رحلته إلي الجزيرة العربية رغبته في الكشف عن الآثار ، وجمع المعلومات الجغرافية ٠

ويبدو داوتي في كتابه متناقضاً مع نفسه : فهو حيناً يبدو صبوراً ، عطوفاً ، كريماً ، وفي بعض أجزاء الكتاب إحساس بأخوة الإنسان ، وبالرابطة التي تجمع بين البشر جميعاً ٠ وقد نمي هذا الإحساس عنده ما لمسه عند البدو من إنسانية : فكان إذا دخل مضاربهم قابله الأطفال صائحين : " النصراني ، النصراني " ، فيهب الكبار لإسكاتهم ، ويرحبون به بينهم ، ويقولون له مواسين : " كل واحد على دينه ربنا يعينه " !

وأكثر ما أعجبه من البدو إيمانهم العميق بالله وبعدله ، مما جعل الانتحار معدوماً بينهم ، ومثل هذا الإيمان يفتقر إليه الأوروبيون ، لهذا كان الانتحار شائعاً عندهم ٠ كما أعجبه إكرامهم للضيف ، دون انتظار مقابل على ذلك : فهو يذكر أنه حل في ضيافة بدوي زمناً ، وعندما عزم على الرحيل قدم إليه بعض ما يحمل معه ، فرفض البدوي ذلك بأباء وتصميم ، لأنه ربأ بنفسه أن يأخذ ثمناً على ضيافته ٠ وفي رأي دوتي أن البدوي " ذكي ، ولا ينقصه سوى الظروف الملائمة " !

ومن ناحية أخرى ، فهو يبدو أحياناً حاداً ، عنيفاً ، ناكراً لجميل الذين أكرموه ، وحموه ، حتى ليقول أنه لم يحس بالسعادة يوماً واحداً في جزيرة العرب ٠ ونحن لا نحمل قوله هذا على معناه الحرفي ، فالمرء في ساعة الشقاء قد يقول أي شيء ٠ وفي الكتاب روح بروتستانتية متعصبة تجعله يعمي عن إدراك ما في غيرها من ميزات ، وتدفعه إلي أن يقول أشياء لا

ترضى ٠ وهذا ما جعل بيرتون يقول عنه : " أنه ضيق الأفق ، محدود المفاهيم ، ولهذا لم يستطع أن يفهم البدو على حقيقتهم ، وأن يندمج معهم " ٠

وكان لهذا الكتاب دور في ميدان السياسة فيما بعد : فلورنس يذكر في مقدمته لطبعة متأخرة منه ، أنه " أصبح بعد نشره كتاباً مفروضة قراءته على الضباط في منطقة الشرق الأوسط ، وساهم مساهمة كبرى في قيادة جيشنا إلي النصر ، في معركة الشرق العربي خلال الحرب العالمية الأولى !

في حائل :-

في أكتوبر ١٨٧٠ ، قصد " داوتي " مدينة حائل بجبل " شمر " ابان حكم الأمير " محمد بن عبد الله الرشيد " الذي أحسن استقباله وقال بأنه كان سيمنح مكانة عالية لو أنه أسلم ! ٠٠ وكان دوتي قد قدم نفسه : "أنا الحاج خليل ، نصراني سوري يا طويل العمر " فقال له الأمير : والله أشك بأنك سوري !

كان " دوتي " قد وصف الطريق إلي " المقر الصيفي " للأمير ، ماراً ببساتين النخيل في السهل الصحراوي الفاصل بين " قفار " و "حائل" ٠٠ تتخلله عدة قرى صغيرة تعتمد على الآبار ، وتزرع الشعير والقمح ٠٠ وكتب في وصف قصر الرشيد :

شاهدنا بعد ذلك بناءً عالياً ، حسن البناء ، بأبراج حربية مبنية من الطوب الطيني ، تشبه المنارات التي تقيمها لإرشاد الملاحين ، وعندها قال ناصر ، الذي لم يذهب إلي حائل منذ عهد طلال : " ذاك هو المقر

الصيفي للأمير " ٠ وعندما اقتربنا من حائل لاحظت أن الأسوار المحوطة بها ممتدة إلي الخلف بحيث بدت البلدة وكأنها طوق من بساتين النخيل ، وإلي جهة اليمين منا شاهدت بستاناً ممتداً طولياً من أشجار النخيل ، مسوراً بجدران عالية ، وإلي جهة اليسار بستاناً آخر ممتداً في القفر ، وأكبر مساحة ، زرعه عبيد أبن رشيد ليورثه لأطفاله . وعندها ظهرت الأبراج المحصنة البيضاء للقصر وكأنها معلقة فوق البلدة ، وكانت تلك المباني الطينية مبيضة بالجبس . ركبنا مارين بالمقر الصيفي القائم إلي الجانب البعيد من الطريق ، ويذكرون إن قطعة صغيرة من المدفعية مركبة في البرج ٠ تحت جدار المنزل الصيفي كان هناك جدول ماء ، تنساب عبره مياه الري إلي الخزان العام ، حيث يأتي رجال البلدة إليه طلباً للماء . إن هذا الذي يطلقون عليه " ماء السماء " يعد أفضل المياه في البلدة ، أما مياه آبارهم الأخرى فمالحة وطعمها لاذع بسبب المعادن الموجودة فيه ، التي (رغم أن ذلك ليس استخفافاً على الإطلاق) قد تكون سبباً للحمى ٠ نزلنا ، وقامت امرأة كانت تحمل جرة ماء على رأسها ، بناءً على طلبي ، بتقديم الماء لنا ، طلب مني " ناصر " بألا أركب ثانية ، لأننا سندخل البلدة عبر بوابات منخفضة ! ٠٠

واصلت مسيري على الأقدام متخذاً الطريق الخارجي القصير ، ووصلت إلي البوابة الضخمة ذات المصراعين (التي يتم إغلاقها ليلاً) الخاصة بالسوق الداخلي لحائل ٠ هناك شاهدت أحد معارفي القدامي الذي كان في انتظاري . إنه عبد العزيز الذي كان يقود المهر – الهدية للأمير ابن رشيد ، وتعرفت به قبل اثنى عشر شهراً في خلاء الحجر . قمت بتحيته ، وردها بمثلها مستفسراً بود عن صحتي ، ودعاني للدخول ٠ وتقدم أمامي ، عن طريق آخر ، ليبلغ خبري إلي الأمير ٠ ومشيت عبر السوق العام

الممتلـــيء بالتجـار والبـدو فـي هــذه الساعـــة ، وشاهـدت العـديـد مـن المحــال التجاريـة الصغيرة المعتمـة ، وهـم في حـركـة دءوبـة من الشـراء والبيــع ٠

وصلنـا إلـي الساحـة العامـة المسمـاة المسحـب ، الواقعــة أمـام القصــر ، وتحـت الشـرفـة العاليــة التـي يحتمـي بهـا الفقــراء مـن البــدو المسافـريـن ، قـام ناصــر بسـرعــة بـإنـاخـة ناقتــي ، وتنـزيـل الحقـائــب ٠٠٠

فــي الطـرف القصـي مـن المسحـب كـانــت هنــاك مجمـوعــات من الإبـل المناخـــة ، وهــي خاصــة بالبــدو الـذيــن يصلــون يـوميـاً ليبحثــوا شئونهـم مـع الأميـــر ٠ تجمــع بعـض البــدو حـولــي ، ودهشـــوا لمشاهـدة الغـريــب يجلــس تحــت تلـك الشـرفـة ٠ شـاهـدت أيـضـاً أحـد الأشخـاص يخـرج من بوابـة القصـر القائمــة تحـت البـرج الطينــي ، أنيـق المظهـر ، يحمـل عصــا تعكــس وظيفتــه ، ويتجــه نحــوي . لقـد كــان ذلـك الرجـــل ، مفــرج ، مسئـول المضـيف ، وهــو أجنبـــي ، مثـل الكثيـريـن فـي حائـل مـن خـدم الأميـر . كـان مفـرج مـن مـدينـة عنيـزة فـي القصيـم (التـي هجـرهـا بعـد حـادثـة رهيبـة حصلـت لــه ، سـأذكـرهـا عندمـا أصـف إقـامتي فـي عنيـزة) . لقـد جــاء ليـدعـو الغـريـب للفطـور ، ولكنـه قادنـي أولاً مع نـاقتــي عبـر المسحـب وعين لــي مكانــاً للإقـامــة ، كـان الأخيـر فـي صـف مساكن الضيوف (المخــازن) ، التي تقـع علـى الجـانـب الطويل لهذا المكــان العــام الكائـــن أمـــــام القصـــر ، ثــم قـادنـــي عبــر بـوابــة القصــر إلـي القهـــوة الكبيـرة الخاصـة بالضيـوف ٠٠٠

يتنـــاول البـدو الطعـام فـي المجلـس الأرضـي ، أمـا الشيـوخ الرئيسيـون وأتباعهـم فيتنـاولـون الطعـام في الأروقـة العليـا ، اقتـادنــي " مفـرج " عبـر الـدرج إلــي مكــان مفــروش بالسجـــاد تتنـاثـر عليــه أكـــوام مـن نــوى التمـر القـديـم . جلســت ، ثـم وضـع التمـر أمامــي فــي وعــاء معـدنــي يكســوه غبــار عالــق ،

وتركوني لآكل ، ولكنني فضلت أن أظل صائماً . وهذه هي تحية صباح ضيوف الأمير العربي – إنهم بدو – وليسوا بنظافة أغلب قرى الصحراء العربية التي يتوافر بها الماء . وبانتظار استدعائي مشيت على الشرفات الخارجية ، حيث كانت حمامات عراقية منزلية صغيرة بيضاء ترفرف بأجنحتها ، وكانت أليفة للدرجة التي حملتها في يدي . وجدت أن هذه الأروقة الطينية على السطوح تمتد ثمانين قدماً ، وتحملها خمسة أعمدة مستديرة ذات تيجان بدائية حادة كأسنان سمك القرش • وجاء مفرج ثانية وعدنا إلي مجلس القهوة ، حيث أصبحت القهوة جاهزة • وخلال وقت قصير دخل شاب في ملابس حريرية زاهية وبدأ في استجوابي • كان هذا العربي كاتب الأمير ، وبدت كلماته القليلة ازدرائية ! ••• وقبل أن أخرج عن هدوئي ، جاء من يهمس في أذني : انهض ، فان الأمير يطلبك " !

وإذا كان " تشارلز دوتي " هو واحد من أهم الرحالة الأوروبيين الذين زاروا جزيرة العرب ، فأن رحلته في نتائجها العلمية هي الأكثر أهمية فيما أضافته إلي أدب الرحلات !

الشاعر والفارس الرحالة : ويلفريد بلنت

لقيت الجزيرة العربية اهتماماً خاصاً من الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر على وجه الخصوص ، فقصدها عدد منهم اختار كل منهم لرحلته مساراً يتفق مع اهتمامه ، وسجل وصفاً للمناطق التي ارتادها من الجزيرة العربية في كتاب تم نشره ، ليصبح مصدراً أساسياً للهيئات المعنية بأمر الجزيرة العربية في أوروبا ، بعضها كان رسمياً ، وبعضها الآخر كان أهلياً خاصاً (كالجمعيات الجغرافية) . ويرجع هذا الاهتمام باستطلاع أحوال الجزيرة العربية الطبيعية والبشرية ، إلي الموقع الذي احتلته جزيرة العرب بين الإمبراطورية البريطانية في الهند والبحر المتوسط ، حيث أوروبا ودولها ذات التطلعات التوسعية التي تريد لنفسها موطيء قدم بالقرب من الهند (مثل فرنسا مثلاً) ، وبين بريطانيا نفسها التي تريد أن تجعل من الجزيرة العربية منطقة حاجزة بين الطامعين في إمبراطوريتها الهندية وبين خط الدفاع الأول عن تلك الإمبراطورية في الخليج الفارسي / العربي ٠

وتنوعت دوافع الرحالة الأوروبيين الذين ارتادوا الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر ، كما تنوعت الأساليب التي اتبعوها في تجميع المعلومات التي يعنيهم أمر جمعها . ولكنهم جميعاً تزودوا بمتطلب ضروري للرحلة وهو إتقان اللغة العربية ، وأدعاء الإسلام والتستر وراء أسماء عربية ، فيما عدا ولفرد بلنت وزوجه آن بلنت ، فقد جاءا إلي نجد دون إخفاء لهويتهما وعقيدتهما الدينية ، معتمدين على إتقانهما العربية ، وعلى رصيد الصداقة التي ربطتهما ببعض القبائل العربية . ورغم أن الرحلات التي

قاما بها جاءت بمبادرة خاصة من جانبهما ، وبترتيب من عندهما وعلى نفقتهما الخاصة ، فقد حرصا على إتاحة ما تحصلا عليه من معلومات لمن يعنيهم الأمر في بريطانيا خاصة ، وأوروبا عامة ٠

سوف تعرف حائل زائرين من النوع الذي لم تعرفه من قبل : ويلفرد سكاوين بلانط وزوجته الليدي آن (حفيدة اللورد بايرون) . كان كلاهما يتكلم اللغة العربية ، هو العامية لكن بطلاقة ، وهي الفصحى الكاملة "لدرجة أن أحداً لم يستطع أن يفهم منها كلمة واحدة " . كلاهما كان يحب الخيول والأدب العربي . ولا تزال ترجمات ويلفرد لبعض القصائد العربية معتمدة إلي اليوم . إن ويلفرد يشعر أن " العرب هم في الأول " بعدما التقاهم للمرة الأولى في الجزائر حيث أقام مقارنة بينهم وبين الفرنسيين ٠

كانت بداية اهتمام آن وولفرد بلنت بالصحارى العربية وسكانها تلك الرحلة الأولى إلي الشرق العربي التي قاما بها في شتاء ١٨٧٥ / ١٨٧٦ عندما جاءا إلي مصر للزيارة للمرة الأولى لذلك البلد الذي اجتذب السياح الأوروبيين للوقوف على آثار تاريخه الممتد عبر العصور ، بعدما استطاعت شركة توماس كوك الترويج لتلك الرحلات السياحية التي نظمتها . ولم يكتف آل بلنت باتباع برنامج الزيارة شأنهما في ذلك شأن غيرهما من السياح ، بل كان لهما ميل خاص للمغامرة جعلهما يختاران زيارة القدس بغير طريق البحر الذي اعتادت توماس كوك تنظيمه لزبائنها ، فيتجهون بحراً إلي حيفا ثم يبدأون زيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وخاصة القدس براً . ولكن الزوجين آن وولفرد بلنت عقدا العزم على تنظيم قافلة خاصة بهما - اشتريا خيلها وإبلها واستأجرا البدو الذين عملوا على خدمتهما – لتشق بهم سيناء وصحراء بئر السبع في الطريق إلي القدس . وقدر الزوجان أن هذه

المغامـرة فرصــة للتعـرف علـى المنطقـة وسكانها وطباعهـم وقيمهـم ، ولــم يكـن لديهما سوى النـزر اليسير من المفـردات العربيــة ، فرأيـاهـا فرصــة ذهبيــة لتعلـم العربيــة من أهلهــا ، لـذلـك لـم يستـأجــرا ترجمـانــاً أو دليـــلاً ، كمـا كـان يفعـل غيرهم من الرحـالـة الأجـانــب ٠

ولا ريـــب إن التجـربــة الأولــى للرحلــة فـي الصحــراء عبـر سينــاء دون دليـل برفقـة مجموعـة من بـدو الشـرقيــة الذيـن يفتقـرون إلــي الخبـرة بـدروب سينـــاء ، لا ريـــب أنهـــا كـانــت تجربــة مثيــرة ، فقــد كـــادت تكلفهمــا حيــاتهمــا عنـدمـا ضلـت القافلـة الطريـق ، ونفـد مخـزون المــاء ، وكـاد الجميـع يموتـون عطشـاً لـولا الصـدفـة التـي قـادت بعض أبنـاء قبيلـة العـزازمـــة إليهـم . فــرووا عطشهـم ، وأكـرمـوا وفـادتهـم ، ودلـوهـم علـى الطريـق إلـي بغيتـهــم ، وبـذلـك كـان العـزازمـة أول من صادق بلنـت من القبـائـل العربيـة البـدويـة ٠

هـــذه المغـامـــرة خلبـت لبهمـــا ، وجعلتهمـــا يعقـــدان العـــزم علـــى تعلـــم العربيـة ومعرفة المزيـد عن الباديـة العربيــة وأهلهـا ، فكانـت رحلتهمـا الثانيـة التـي بـدأت من حلب في العام التالي (يناير ١٨٧٧) ٠ استفـادا فيها بـدروس تجربتهمـا الأولـى حيـث قـام القنصـل البريطانـي بحلـب (وكـان صديقـاً لأحـد معـارف بلنـت وعاشقـاً للترحال في البـادية) . قـام بمعاونتهما في اختيـار الخـدم والأدلــة الأكفـاء وشـراء الخيـول العربيـة الأصيلـة ومـا يلـزم قافلتهمـا الصغيـرة من الإبـل والمؤن بـل أحضـرت آن معهـا من إنجلتـرا بعض مستلزمـات الطعـام المجففـة ، وبـدلاً من أن تتجــه القافلــة جنوبـاً عبـر باديـة الشـام إلـي نجـد ، استمعا لنصيحــة القنصــل بالاتجاه شرقـاً عبر بلاد عرب الجزيرة الفراتيــة !

كــان ويلفريـد بلنــت قـد قـام برحـلات إلـي سـوريــة والعـراق والجزائر وتركيا . لكن عندما جاء مع زوجتـه إلـي نجـد ، التـي عرفها من خـلال بالجريـف والدراسـات الجاهليـة ، " جـاء إلـي أرض العربيـة الحقيقـي " ولذلـك كـان عنوان الكتـاب الـذي وصفاه بعـد الرحلـة التـي قـامـا بهـا فـي خـريـف ١٨٧٨ " الحج إلـي نجــد ، مهـد العـرق العربــي الحقيقــي " . وفيمـا تـولــت الليــدي آن وضـع معظـم الكتـاب . تولى ويلفـرد المقدمــة والفصـل الأخير . لـم يترك بلانـط أي شك حـول مشاعــره :

" بالنسبـة إلينـا ، نحـن المبيئين بـأخيلـة الصحـراء ، كـان لنجـد عندنــا منـذ زمـن طويـل نوعـاً من الهالــة المقدسـة ، وعنـدمــا تقــرر أن نــزور جبـل شمــر ، الـذي هـو " متـروبـوليـس " الحيـاة البـدويـة ، بـدا لنـا وكأننـا نقـوم بعمـل حبـري ، ولــذا ليـس من المبـالغـة أن نسمـى ذلـك حجــاً " .

ســوف يــرى بـلانــط أن نجـد لـم تخالـف تـوقعـاتـه فهـي " أرض مقدسـة تحمـل كـل سحـر مـا بيـن النهـريـن وأكثـر أيضـاً . وكــان " سكـان نجـد (تقـول تيـدريـك) بعيـديـن عن لعنـة الإدارة العثمانيـة وهـذا ما مكنهـم من تطـور النظـام البـدوي في الحكم إلـي درجـة كاملـة غيـر معروفـة في أي مكـان آخـر ، وهـو مـا سمــاه بـلانـط نظـام الـراعــي " .

لــم يكـن لانبهــار بـلانـط بالجـزيـرة أي حـدود . ولـم ينـو فقـط أن يعتنـق الإسـلام بـل إنـه وضـع فيمـا بعـد خطـة بالذهـاب إلـي الجزيـرة من أجـل تـزعـم حـركـة تعيـد الخلافـة مـن اسطنبـول إلــي مكـة المكرمـة . غيـر أن الخارجيـة البريطانيـة لـم تشجعـه على تنفيـذ مشروعـه ، فـوضـع سلسلـة من المقـالات يدافـع فيها عن فكـرتـه ، مـؤكـداً أن العبقـريـة العربيـة سـوف تـزدهـر من جـديـد فـي ظل

خليفة عربي ، وأن الإسلام سوف يعود إلي مجده ، ودعا بلانط بلاده إلي دعم هذا الطموح " لأنها البلد الأوروبي الوحيد الذي لا يناهض الإسلام العداء "

لم يتوقف بلانط عن " أحلامه العربية " حتى وفاته في العام ١٨٢٢ وبرغم انه كان يريد لبريطانيا دوراً هائلاً في العالم العربي ، إلا أنه كان يناهض النزعة الاستعمارية في حيوية وصدق مذهلين . وفي " حملته " من أجل العرب حاول أن يعرض خدماته على الزعيم الجزائري أبو يمامة وعلى جمال الدين الأفغاني . غير أنه لعب دوراً مهماً في نهاية الأمر خلال ثورة أحمد عرابي في العام ١٨٨١م ٠

خلال وجودهما في سورية تعرف بلانط وزوجته إلي رجل يدعى محمد بن عروق الذي روى لهما أنه ينحدر من عائلة نجدية ، وأنه يتمنى السفر إلي هناك الآن لعله يعثر على قريبة له تقبل الزواج به . إذن ، هو سعيد في مرافقتهما إلي حائل ٠

غادرت القافلة سورية في كانون الأول / ديسمبر ١٨٧٨ ولم تقطع مسافة قليلة حتى تعرضت " لغزوة " لكن بعد شجار بسيط تبين أن المهاجمين من أصدقاء محمد ابن عروق فانتهى الأمر بمأدبة ودية . وفي الجوف عثر ابن عروق على " قريته " المثلى فخطبها وكان مهرها ٥٠ جنيهاً تولاها بلانط على شرط أن يكمل الرحلة معهما ٠٠ !

وقد زادت الرحلة إلي نجد آل بلنت إتقاناً للحديث بالعربية إلي درجة تذوق الشعر النبطي وفهم الأهازيج الشعبية والتغني بها ، كما زادتهما معرفة بالقبائل العربية وعاداتها وتقاليدها ، وقيم مجتمع البادية وأعراف البدو ،

وكيفيـة التعامل مع أشـرار النـاس وأخيارهـم . شـاركـا فـريـق قافلتهمـا طعامهـم وشرابهم ، وعانـوا معهم نـدرة الطعـام فـي بعض الأوقـات حتـى اضطـروا إلـي أكل الجـراد عنـدمـا كـان يعـز الصيـد وهـم من جـاءوا من نخبـة الارستقراطيـة الإنجليزية . وبلـغ إعجابهما بالقبائل العربيـة وأعـراف الباديـة حـد التعصب للعرب وتفضيلهم علـى الفــرس ، بـل إيمـانهم بحق العرب في أن تكون لهم دولتهم التـي يديـرون شئونها بأنفسهــم ٠

فمن هم آل بلنت ؟ وما شأن الشرق معهــم ؟

ولــد ولفــرد سكـاون بلنــت Wilfrid Scawen Blunt عـام ١٨٤٠ لأسرة تنحـدر من نبـلاء ساسكس Sussex بإنجلترا ، مـات والده بعد عـامين من مولـده ، فقـامـت الأم بتأجيـر الضيعة التـي ورثهـا الأب عن أسـلافـه والتـي عرفت باسـم كـرابيـت بــارك Crabbet Park وتنقلـت بأولادهـا الثلاثـة بـين بيـوت أقاربهـا . كانـت امرأة شاعـرة ، ذكيـة ، تعـاني من القلـق الـذي قادهـا عـام ١٨٥١ إلـي تـرك الكنيســة البرتستانتيــة الإنجيليــة والانضمــام إلــي الكنيســة الكـاثـوليكيــة الرومانيـة ، وعمـدت ولديهـا وابنتهـا في الكنيسـة الكـاثـوليكيـة بعـد شهـور . وهكـذا تلقـى الأبنـاء تعليمـاً كاثـوليكيـاً خالصـاً تـرك أثـراً كبيـراً علـى تكوينهــم ٠٠

وكـــان بيــت العمــة أحـد البيـوت الإنجليـزيـة الكبيـرة ذات الأبهاء الواسعة ، ازدانـت حـوائطـه باللـوحـات البـديعـة ، وكانـت للبيت حـديقـة واسعـة بهـا غـزلان مستأنســة وحيـوانــات أليفــة يلعــب معهـا الأولاد ويطعمونهـا بأيديهـم ، وكــان لكل ذلـك أثره في طفـولـة وصبـي ولفـرد وشقيقـه وشقيقتـه . ورغـم أن العمـة وزوجهـا كانـا مـن المـؤمنيــن بالبروتستانتيــة ، فإنهمــا لـم يتدخــلا فــي عقيـدة الأولاد التــي اختارتهـا أمهـم الراحلـة ، فظلـوا على كاثوليكيتهـم ، يتلقـون تعليمهـم فـي المـدارس الكاثوليكية . وقـد كان للكاثوليكية أثرها البـالغ فـي حيـاة الأبنــاء الثلاثـة ، فاختــارت

الأخت طريق الرهبنـة ، وتـولـى الأخ الأكبر رعاية الديـر الكـاثوليكي الـذي بنـى على أرض ضيعته التي ورثها عن والـده عند بلوغه سن الرشـد ، وعندما اختطفه الموت إثر مرضه بالسل ، دفن في ذلك الدير . أما ولفـرد فكان لـه مع الكاثوليكيـة شـأن آخــر ٠

كـــان ولفــرد فـي حيـرة مـن أمـره ، فـأعـز النـاس لـديـه : عمتـه وأسرتها مـن البروتستانـت ، الـذيـن يسمع لعنـات القـس فـي الكنيســة الكاثوليكيـة تنصـب عليهم كـل صبـاح ، وتحض الصغار علـى عدم التعامـل معهـم لأنهم أهـل النــار ، فالجنــة من نصيـب الكاثوليـك وحـدهــم !! كمـا كـان ولفـرد يـرى فـي الكثير من المعتقـدات الكاثوليكيــة مـا يتناقــض مـع الطبيعــة الإنسانيــة ، ومـا يجــري فــي المجتمـــع . ومـا كـاد يتـم تعليمـه الثانوي بالمدرسـة الكاثوليكيـة حتـى سعـت عمتـه لإلحـاقـه بالسلـك الدبلـومـاسـي ، الـذي كـان الالتحـاق بـه لا يتطلـب الحصـول علـى شـهادة جامعيـة بقـدر مـا يتطلــب الانتمـــاء إلـــي إحـدى الأســر الأرستقـراطيــة الإنجليزيـة العريقـة الثريـة ٠

كـــان العمـل الدبلـومـاسـي انقـلابـاً فـي حيـاة الفتـى ولفـرد ، وقـد تـأثـر بالــغ الأثـر بالعمـل فـي موقعيـن : فـرانكفـورت واستانبـول . فـي فـرانكفـورت تعـرف علـى فكـر دارويـن الخـاص بالنشـوء والارتقـاء وأصـل الأنـواع ، وطلب من راعـي الكنيسـة الكاثوليكية أن يـأذن لـه بقـراءتها ، فكتـب إليـه رافضـاً محـذراً من الوقـوع فـي هـذه الخطيئـة الكبـرى ، فلـم يجـد مفـراً من ارتكـاب الخطيئـة الأولـى (وإن لـم تكـن الأخيــرة) فــي حياتـه ، فانكـب علـى قـراءة دارويـن وهيجـل ، وأخـذ إيمانـه بالكاثوليكيــة يتلاشــى حتــى فقـد اهتمامــه تمامــاً بالـديــن ، وانعكـس ذلــك علــى شعــــره ٠

كــان ولفــرد بلنـت على درجـة كبيـرة من الوسامة والجاذبيـة جعلت فتيـات ذلـك الزمـان يتقـربـن إليـه ويثـرن غريـزتـه ، ممـا عجل بطرحـه قيـود الكاثوليكيـة جانبـاً والانغمــاس فــي معاشــرة النســاء ، وتلقــى تدريبــه الأول علــى يـد كاتريــن والتـرز – إحـدى شهيـرات العصـر من وصيفـات البـلاط – التي عشقـت اصطيـاد نجـوم المجتمـع من شبـاب العصــر الفيكتــوري ، واحتفظـت بصداقـة عشاقهـا بعد أن تقضـى منهم وطـرهـا ، وعرفهـا رفـاقهـا باسـم سكيتلـز Skittles وقـد ظـل ولفـرد علـى قائمــة أولئـك الأصـدقـاء . ظلـت تجربتـه مـع سكيتلـز باقيـة طـوال حياتـه ، خلـدهـا في قصائـده ، وهيـأتـه للانطـلاق في علاقاتـه النسائيـة حتى أضاف إلي شهرتـه صفـة زيـر النساء ، وقالت عنه ابنتـه جـوديـث أنــه عاشـر الكثيـر من نساء الارستقراطيـة الإنجليزيـة ، ولـم تسلـم بناتهن مـن غوايتــه . ولا يخلـو الأمـر من المبالغـة ، لأنها لم تقـل ذلك إلا عندما تفاقمـت الأمور بين والدتهـا و والدها إلـي حـد القطيعـة ، ممـا جعـل جـوديـث تفقـد احترامها لـوالـدهـا ٠

أمـــا المــرأة التـــي ارتبـط بهــا ولفــرد بلنــت ، واتخــذهــا زوجتــه شاركتــه مغامـراتـه فـي البـوادي العربيـة ، فكـانـت من طـراز آخـر من النساء اللاتــي وقعن في غرامه في مختلـف البلاد الأوروبيــة ٠٠

كــانـــت الليــدي آن مختلفـــة عمـــن تهافتـــن عليــه مــن نســاء الطبقـــة الأرستقـراطيـة التـي كانت لـه معهن صـولات وجـولات ، كمـا جـذبـه إليهـا كونهـا حفيـدة الشـاعر العظيـم اللـورد بايـرون الـذي كـان بلنـت مـن معجبيــه ، وقـد تـم الزواج في لنـدن فـي الثامن من يوليــو ١٨٦٩م ٠

ويمثـل كتـاب " الحـج إلـي نجـد " ذروة اهتمـام الزوجيـن آن وولفـرد بلنت بالشـرق ، و ولعهمــا الشـديـد بالبــدو والحيـاة البـدويــة باعتبارهـا خزانــة الثقافـة

العربيـة الأصلية بمختلف مكوناتها ، وكانـت تمثـل الدعائـم القويـة التي قـام عليها بناء تلك الرابطة التي ربطـت آل بلنـت بالمشرق العربي عامـة ، ومصر خاصــة ، وجذبتهـم إلي عالـم الإسـلام والمسلمين ٠

والكتــاب بجـزئيــه هو أول وصـف تفصيلي عرفتـه أوروبـا لجنــوب باديـة الشام وشمـال نجـد ، وطـريـق قافلـة الحـج الفارسـي بين نجـد وفـارس ، وهـو أول محاولــة أوروبيــة لـرســم خـريطــة للمنطقــة التـي غطتهــا الرحلــة ، و وصـف طبوغرافيتهـا وسكانهـا ، وعـادات قبائلهـا ، اعتمـاداً علـى اليوميـات التـي درجـت الليـدي آن بلنـت على تسجيلها طـوال الرحلـة التي شـاركـت فيها زوجهـا ولفـرد سكـاون بلنـت من دمشـق إلـي نجـد ، ثـم استطلاعهمـا لإقليـم جنـوب غرب فـارس المطـل على الركـن الشمالي الشرقي للخليـج ، حتــى إلقائهمـا عصـا الترحــال عنـد مينـاء بوشهـر الفارسـي على الخليج حيـث توقفـت آن بلنـت فيما سجلته مـن أخبـار الرحلة في هذا الكتاب ، وإن كانا قد تابعا الرحلة من بوشهر إلي الهنـد ٠

وفـــي عــام ١٨٧٨ انطلــق ويلفـريـد بلنـــت فــي رحلــة إلــي بــلاد العـرب بمصاحبـة زوجتـه (الليـدي آن) ، ولـم يكـن منـدفعـاً بـدافـع أو بطمـوح استكشـافي أو جغرافي ، بـل بسبـب حبـه للاطـلاع ، وفضولـه لمعرفـة حياة البدو والصحـراء التـي يقضـي بهـا البــدو أوقـاتهم . وبالاختصـار كـان بلنـت وزوجتــه همـا الرائـدين الأولـين لذلـك الرعيل من الرحــالــة الـذيـن انجذبوا إلـي بـلاد العرب خـلال مئـة السنـة التاليـة لسبـب لا يتعـدى اهتمامهم بهـا ، ولغايـة لا تـزيـد علـى المتعـة التي كانـت الخرافــات والأساطيـر حــول تلــك البــلاد التـي تضفـــي عليهـا نوعـاً مـن البهـارات والمقبــلات ٠

وكـــان بلنــت قد قضـى بعض الوقـت في الصحـراء قبـل أربـع سنوات ، وتعـرف لأول مرة على البـدو ومـن بينهـم رجـال من قبيلـة (شمـر) ، وكان بلنـت

مفتونـاً بجمـال ورشاقـة الخيول العربيـة . والآن أراد اختراق منطقـة النفود إلـي حيث المراعي بعد (حـائـل) حيث يربـى البدو خيلولهم . وكانت رحلـة (بلنت) وزوجتـه تتميز فـي أنهمـا سـافـرا دون اللجـوء إلـي الحيلـة أو الذريعـة بـل أعلنا أنهمـا يمارسـان هوايـة الرحـلات والاطـلاع ، وأن الليـدي آن كـانـت أول سيدة أوروبيـة تقوم بمثل تلك الرحـلات ، وكانـت ملاحظاتهـا تـؤلـف صلـب الكتـاب الـذي كتباه وهو (الحـج إلـي نجـد) وقـد أضـاف (بلنـت) ملاحظـات مستفيضـة عن حيـاة البـدو ، كمـا كتبت بشكـل غـزيـر فصولاً عن الخيـول التـي كـان زوجهـا معجبـاً بها . ولكـن الليـدي آن كانت تكتـب بشكـل مباشر دون استعمال الرومانسيـة أو العاطفـة . فمنطقـة (الحـرة) الفظيعـة لا تسبـب لهـا شعـوراً بالكـآبـة ، ولا تسبـب لهـا مناظـر الصـحراء الرائعـة شعـوراً بالـذهـول . ولـم يعكـر صفـو رحلتهمـا إلا عاصفـة رمليـة هوجـاء ، وإلا هجـوم بعض جماعات الغـزو من البـدو الـذي قامـوا بتحطيم بنـدقيـة الليـدي آن علـى رأس زوجهـا ، وقـد قـالـوا : إنهـم يكسرون بـذلـك عنفـوان أجمـل وجـه فـي إنجلتـرا . ولكـن هؤلاء البـدو الغـزاة أصبحـوا من الأصـدقـاء والرفقـاء لبلنـت وزوجتـه . وقـد أرجعوا لهمـا مـا أخـذوه منهمـا مـع أن ذلـك العمـل سبـب احتجـاج بعضهـم مـن اللصـوص الحقيقيـين . ولكـن الجميـع اتفقـوا علـى عـد بـلانـت وزوجتـه ضيـوفـاً تنطبـق عليهم تقاليـد الضيافة والكـرم العربـي .

ولقـد وجـت الليـدي بلنـت منطقـة (النفـوذ) منطقـة ممتعـة وساحـرة جـداً . وهـي لا تشبـه الوصـف الـذي ذكـره بالجريـف والـذي يـؤثـر علـى الإنسـان بحيـث يجعلـه يتخيل كابوسـاً من الفـزع !

فـي السـابـع والعشريـن من شهـر ديسمبـر عـام ١٨٧٨م ، بعـد أربعـة عشر يومـاً من مغادرتهـم دمشـق وصلـت الليـدي بلنـت وزوجهـا ومرافقوهمـا وأبـرزهم

محمد بن عبد الله بن عروق ابن شيخ تدمر إلي قرية كاف في شمال الجزيرة العربية ، لتبدأ رحلتهما إلي نجد . ونترك القاريء الآن برفقة الليدي آن تصف ما رأته في بلاد الجوف و وادي السرحان :

" كاف قرية صغيرة وجميلة ، ولها طابعها الخاص ، الذي هو مختلف إلي حد ما عن أي شيء يشاهده المرء في سورية . وكل شيء بها هو شكل مصغر ، الستة عشر بيتاً المربعة الصغيرة ، والأبراج الحربية الصغيرة ، والأسوار الحصينة التي ترتفع ٧ أقدام . والسبعون إلي ثمانين شجرة نخيل في البستان وتسقى من الآبار ، وبعض الأشجار ، التي كنت أظن في البداية أنها أشجار سرو ، والتي عرفت فيما بعد أنها من أنواع الطرفاء ، يطلق عليها اسم الأثل ٠

ورغم أنها بلدة صغيرة ، إلا أن كاف لها منظر فريد مزدهر . كل شيء فيها متقن وفي حالة جيدة ، ليس هناك حائط متهدم أو باب مخلوع من مفصلته كما هو الحال في سورية . وهناك أيضاً نخيلات صغيرات مزروعة بين النخل القديم ، وشجرتين وكروم ، نادراً ما يجدها المرء في الشمال . الناس ذوو أشكال حسنة ومؤدبون ، رغم أنهم روعونا في البداية ، لأننا مررنا عليهم وسيوفهم في أيديهم . والسيوف إما متنكبوها على أكتافهم أو ممسكون بها بكلتا أيديهم من الغمد ، يشبه تلك النقوش المنحوتة على الصخور لشهداء عصر النهضة أو لتماثيل الحملات الصليبية ٠

استقبلنا شيخ القرية ، عبد الله الخميس بحفاوة كبيرة ، وكنا نحمل له رسالة من حسين الأطرش ، شيخ صلخد ، وقد نظف غرفة في منزله ، وذلك لاستخدامنا . وكما هو الحال بالنسبة للغرف الأخرى ، كان بابها يفتح

على الفناء ، الذي ربط بحبل طويل في وسطه لمهر عمره سنتان . وغرفتنا كانت مستودع حطب ، وليس بها أي نوع من الأثاث ، ولكننا كنا سعداء لعثورنا على مكان خال . والبناء هنا بسيط جداً ، الجدران من الطين الخالص ، بدون نوافذ أو أي شكل من أشكال الفتحات ، ما عدا بضع فتحات مربعة صغيرة قريبة من السقف . والسقف مكون من أعمدة جذوع الأثل ومغطى بقواطع من النخيل ، ومسقوف بأغصان شجر النخيل . الغرفة الرئيسية في البيت يطلق عليها القهوة أو غرفة القهوة ، وفيها يوجد موقد مربع الشكل ، في أحد جوانب غرفة القهوة ، أو في وسطها . ليس هناك مدخنة ، والدخان يخرج حيثما يستطيع ، ولكنه غير مزعج كما هو متصور ، أما بالنسبة للحطب المشتعل هنا فهو يشتعل مع لهب ساطع ، ويعطي حرارة عالية جداً ، مع دخان بسيط . إنه حطب الغضي . الناس جالسون حول الموقد بينما القهوة تعد ، واستغرقت عملية إعداد القهوة نصف ساعة تقريباً ٠

وحالما وصلنا قدم لنا صحن من التمر ، من محصول العام الماضي ، وهو لزج ومهروس ، ولكنه لذيذ . وفي المساء قدم لنا العشاء وهو مكون من البرغل ولحم الديوك المسلوق . وقد أدهشنا أدب كل شخص فيهم . لقد سألنا مضيفنا الشيخ عبد الله الخميس عن صحتنا أكثر من عشرين مرة ، قبل أن يبدأ أي شيء آخر ، لذلك ليس سهلاً أن تجد المقدار الكافي لرد هذا الأدب والكرم . كل شيء بالطبع ينم عن الفقر والبساطة ، ولكن لا يستطيع المرء إلا أن يشعر أنه بين أناس متحضرين . وقد أطروا كثيراً على محمد ، الذي عومل على أساس أنه شيخ . تدمر معروفة بالاسم ، ومن هذا البعد تعتبر بلدة مهمة . إنه لمدهش أن يعمل شخص بمركزه بعمل وضيع كخادم لنا ، وذلك كان موضع تساؤل مؤدب عند المساء عن دوافع الرحلة . لم ير من قبل أي إفرنجي في كاف ، وهذا ما قاله الناس ، ولذلك لا يفهمون مدى احترام

الأوروبيين في أماكن أخرى . شرح محمد إخوته مع البيك (ويلفرد بلنت) ، وأكد أن رحلته هي شرفية ، وليست لمصلحة ، ولذلك عوملنا وكأننا عرب بالولادة . أما مرافقنا عواد الشمري ، فأثبت أنه مفيد لنا جداً ، فهو معروف هنا ، ويقوم بدور المعرف بنا ٠

كاف بلدة مستقلة تماماً عن السلطان (الدولة العثمانية) ، رغم أنها نهبت مرتين بواسطة الجنود الأتراك ، مرة تحت حكم إبراهيم باشا سنة ١٨٣٤ م ، ومرة أخرى قبل سنين قليلة عندما أرسلت حكومة دمشق حملة عسكرية إلي وادي السرحان . وقد شاهدنا بعض آثار قصر الصعيدي ، على قمة الجبل المشرف على القرية ، التي دمرها المذكورون ، وسمعنا الكثير عن الفجائع التي سببتها الأحداث الأخيرة . يعترف سكان كاف بأنهم يتبعون ابن رشيد ، شيخ قبيلة شمر ، الذي كان بعض رجاله موجودين هنا منذ بضعة أيام ليأخذوا الإتاوة السنوية ، والتي هي مبلغ صغير حوالي ٢٠ مجيدياً (أي ما يعادل ٤ جنيهات استرليني) ، والتي كانوا سعداء بدفعها لقاء حمايته لهم . إنهم متحمسون " للأمير " الذي يلقبونه بهذه الصفة . ومن المؤكد أنه ليس هناك سبب يدعوهم لتمني الانضمام إلي سورية . وكاف البلدة الصغيرة وجارتها إثرة التي نحن بها الآن ، مرتبطتان تجارياً مع الشمال أكثر منه مع الجنوب بسبب ثروتهما الرئيسة التي مهما كان قدرها ، فإنها تأتي من تجارة الملح مع بصري ٠

يبدو أن عبد الله الخميس ميسور الحال ، ويملك عدداً من العبيد ، ومتزوج أكثر من امرأة ، أما بالنسبة للمهر الذي ذكرته فهو الوحيد الذي يملكه من ذوات الأربع . وكان عبد الله بن خميس يرغب بالذهاب معنا لو كان يملك ذلولاً . وقد لاحظت وجود عدة جمال وحمير وماعز حول القرية ٠

لقد غادرنا مرافقنا ، مقبول الخريشة ، عائداً من حيث جاء ، ونحن الآن نبحث عن شراري يأخذنا إلي الجوف ٠

قدمنا إلي إثرة ، الواحة التوأم لكاف ، وتبعد عنها ساعتين ونصفاً شرقاً وهي كذلك في وادي السرحان ، وهذا لم يذكر أو يوضع في كثير من الخرائط الحديثة ٠٠٠

إن وادي السرحان منخفض غير منتظم ولافت للنظر ، وربما كان قاعاً لبحر قديم يشبه البحر الميت ، وهو يتسع من هنا حوالي ١٢ ميلاً ، لو حكمنا عليه مـ خلال التلال المحيطة به ، التي هي بدون شك في الجهة المعاكسة له . ويوجد كثير من الآبار هنا وفي كاف ، عريضة وسطحية ، والماء يوجد على عمق ٨ أقدام تحت سطح الأرض ، وتسقى مزارع النخيل من هذه الآبار . وهناك آبار خارج البلد وجميعها سطحية وعلى مستوى واحد . والماء يمكن شربه ، ولكنه ليس ممتازاً بأي معنى من المعاني . وقطعنا بحيرة ملح كبيرة ، وهي جافة الآن . والملح مجموعة للقوافل لتحميله ٠

وفي طريقنا أمتعنا محمد بقصص ولادته ونسبه . وأهل كاف يسمعون بأبن عروق ، وأخبروا محمداً بأنه سوف يجد له أقرباء في أجزاء كثيرة من الجزيرة العربية ، بالإضافة إلي الجوف . وقالوا إن هناك شخصاً في بريدة ، وبالتأكيد هو ابن حميدي ، الذي سمع محمد بأنه ابن عم له . وفي إثرة ، كانت زوجة الشيخ من الجوف . ويبدو أن كل شيء يسير حسب ما توقعنا ٠

وفي حائل قابل بلنت محمد بن الرشيد وهو الذي استضاف داوتي سابقاً ولقد وجد في وجهة صورة للملك البريطاني رتشارد الثالث ، فقد كان وجهه

نحيفــاً و وجنتــاه شــاحبتين وشـفتاه رقيقتـين غائرتيــن وحاجبـاه ظـاهرين (حسـني الحياكـة) وعيناه قلقتين تتحولان من الواحد منـا إلـي الآخـر ، وتنتقـل مـن وجوهنــا إلي وجوه الآخرين حوله كعيني الصقر . وكـان هذا الوجــه نموذجـاً لوجـه شخص يقاسي من تأنيب الضمير ، أو شخص يخشـى الاغتيـال فـي كل لحظـة من لحظـات حياتــه "

وأمــا بلنــت فقــد قــال إن جـرائــم الأمير محمـد كانـت عبـارة عـن نـزوات ومصالح زائلــة . وقـد كـان " بلنـــت " مهتمـاً بـالخيول الملكيــة النجديــة الرائعة ، وهــي مـن أشـهر الخيـول فـي بـلاد العـرب ، وقـد وجـد بلنـت وزوجتـه اللـذان كانـا خبيـرين بـالخيول وأنواعهـا أن خيــول الأمير وأفراسـه كانـت مخيبـة للأمــل ، وقـد دونت الليدي بلنت في فصل طويل مفصل من كتابها كيف كان المهر العربـي يربـى ويدرب . فعندما يصبح فـي السنة الثالثـة مـن العمر يـدرب علـى المشـي رمــلاً ، ثـم العدو السريع ، فإذا كان حصاناً أصيـلاً فلا يسبقه أحد (يــلا) . وقـد أعجب بلنت وزوجتـه بـبعض خيـول المنطقــة ، وكانـا يطمحـان بـأخـذ بعض تلـك الخيـول عند مغادرتهما المكان إلي إنجلـــترا حيث يربيـان سلالـة جـديـدة محسنـة ، ولقـد كانــت هــذه المغامـرة من المغـامرات التـي صـادفت شيئـاً مـن النجـاح ولا تـزال مستعملة حتـــى الآن ٠

ولكــن كتـاب بلنـت بتفاصيلـه ودقـة أوصافـه لتعقيـدات الأخـلاق والشخصية البـدوية ولا سيما الجـزء المختص بتنـويـر الرأي العـام حــول أسـرة أبـن الرشيـد ، وعـن العلاقــة بين الحـاكم والمحكـوم فـي بــلاد العـرب ، وغنـى المعلومــات حــول العائلـة الوهابية ، كـل هذا قد أضـاف شيئاً كثيـراً لتلـك المعلومـات الهائلـة المتراكمـة التي حفـل بها القرن التاسع عشر ٠

وقـد ثبت أن التصاميم والخرائط التي أنجزاها من خريطـة المنطقــة بيـن حائل ونهر الفرات كـانـت ذات قيمـة لا بـأس بها ، فلم يكـن بلنـت وزوجتـه آخـر من زار بلاد العرب ، ولكـن بعدهمـا اصبحت الأقسـام الشمالية من شبه الجزيـرة علـى الـرغم مـن صـعوبة الوصـول إليهـا ، معروفــة تمـام المعرفـة ومدونـة علـى الخرائط التي دخلـت ضمن الحدود التي كانت غيـر محـددة المعالـم والتـي كانت مصـدر إغـراء للمستكشفيـن في الماضي ٠

لقـد كــان ويلفريـد بلنت واحـداً ممـن اسهمـوا في تعزيـز وزيــادة معرفـة الغـرب بالصحـراء العربيـة وبالشعب الـذي يسكن هـذه الصحـراء ٠٠ ربمـا كـان أول شخص صــادق لبـس الملابس العربيـة ، وأما من أتـوا قبلـه فقد لبسـوا اثـوابـاً فضفاضـة زائفـة بقصـد التنكـر والحمايـة ، أمــا (بلنـت) فقـد لبس تلك الأثواب لأنه كان مؤمنـاً بوجـوب ارتدائهـا ، ولأنه كان يفضلها علـى غيرها . فقد كانت تلك الثياب تمثـل لـــه التحـــرر والانعتــاق ، وتمثل الغوص فـي ثقافة أخرى أغنـى من ثقافته ، وهروبـاً مـن مجتمع كـان يشعـر أنـه غريـب عنــه علـى الرغم من انتمائــه إليـه ، وعلى الرغم من امتداد جـذوره فيـه . لقد كـان (بلنـت) حقـاً مجموعـة من التناقضات ، فقد كان منتميـاً إلي طبقــة أرستقراطيــة من ملاكــي الأراضـي الكبـار فــي جنــوبي إنجلـــترا ، وكــان مــن المحافظيــن بطبيعتــه ، ومــن الدبلوماسييــن المتمرسيـــن ، إلا أنـه ومـع ذلك قد ناضـل لعـدة سنوات ضـد الظلـم والاضطهاد الـذي مارسه الاستعمار البريطـاني ٠

ولنحــاول أن نتعـرف علـى فكـر " ويلفريــد بلنـــت " وأسلوبــه ورؤيتــه الخاصة عن مغامرتهمـا فـي نجـد ، حيث كتـب : هــؤلاء الـذيـن قـرءوا الكتـاب الذي أصدرناه عن مغامراتنــا فـي العـام الماضـي ليسوا بحاجـة إلـي أن تشـرح لهم الأسبــاب التي حـدت بنا إلي القيام بهـذه الرحلـة ، أو الأسبــاب التـي جعلتنـا نختــار لفظـة " الحـــج " عنـوانـاً لهـذا الكتـاب . هذه الرحلة التي قمنـا بهـا إلـي نجـد هـي

في واقع الأمر تكملة لتلك الرحلة التي قمنا بها إلي بلاد الرافدين ، وإلي بادية الشام ، في حين أن نجد ذاتها ، هي والاهتمام الرومانسي الذي يرتبط بالاسم نفسه يعد شيئاً جديراً بالاهتمام الديني ، الذي إن تولد لدى صاحبه فإنه يجعله يعجل بزيارة ضريح من الأضرحة . نجد في خيال بدو الشمال ، وهي منطقة الخيال والحكايات والبطولات ، ومهد العرق البدوي ، ومهد أفكار الفروسية التي ما زالوا يعيشون عليها إلي يومنا هذا – في نجد قام عنترة بن شداد بأعماله وبطولاته الشبيهة ببطولات هرقل ، وفيها حاتم الطائي أكرم الأكرمين إلي ضيوفه . وإلي يومنا هذا ما يزال عشائر عنزة وشمر ، أهل الشمال بصفة خاصة يرجعون موطنهم الأصلي إلي نجد ، قبل هجرتهم إلي الشمال ، منذ أجيال قليلة . نجد ما تزال تمثل نوعاً من السحر والجاذبية عند عرب الفتوح الأولى ، وعند الحضر في كثير من المدن مثل البصرة ، وتدمر ، والدير ، كما تشد أيضاً بدو طيء ، الذين كانوا سادة على جبل شمر في يوم من الأيام ، نجد لها جاذبية وسحراً يفوق الجاذبية والسحر اللذين للحجاز نفسه . نجد عند كل هؤلاء في منزلة فلسطين عند اليهود . وإنجلترا عند المستوطنين الأمريكيين والمستوطنين الأستراليين ، لكن هناك فارق مهم هو أن هؤلاء المستوطنين محرومون من توقيرهم البنوي من الناحية العملية عنها بذلك الخليج الصحراوي الأقل كرماً وسخاء عن البحار . من هنا يندر أن تجد من بين أهل الشمال أحداً استطاع عبور صحراء النفود الكبرى ٠

وبالنسبة لنا ، وما كنا عليه من أنهار بالصحراء ، كانت تكتسب منذ زمن طويل الطابع الرومانسي للأرض المقدسة ، وعندما قررنا زيارة جبل شمر ، مركز الحياة البدوية ، بدت رحلتنا لنا كأنها عمل ديني إلي حد أننا ، وأنا لست مبالغاً في هذا ، وبعد أن انتهت رحلتنا وعدنا مرة ثانية إلي أوروبا من

جديـد ، مـازلنـا نتحـدث عنها وكأنها حـج بحـق . هـي حج فعـلاً بالنسبـة لنا ، على الرغم من أن الرومانسيـة كانت ديننـا في هـذه الرحلـة ٠

ظـــروف هـــذه الرحلـــة – علـى الـرغم مـن بعض الإحباطـات التـي سـوف تكشـف الرحلة عن حقيقتهـا – كانت أقل رومانسية وإثـارة من الفكرة ذاتهـا . لعـل قراءنا الذين تابعوا أسفارنا السابقـة إلي منتهاها يتذكرون تلك الشخصية التـي اسمها محمـد عبد الله . محمد عبد الله هـذا ، هو أحد أبنـاء شيخ تدمـر ، شـاب ، رافقنـا ، بناء علـى أوامر من الباشا ، في سفرنا من بلدة الـديـر Dyr إلي بدلته ، أو إن شئت فقـل : موطنــه ، هــذا الرجـل ساعدنـــا مخـاطراً بإغضــاب السلطات ، فـي تجنـب السلطات التركيـة ، وعاوننـا في القيام بالزيارة التي قمنا بها إلـي عنـــزة Anazeh يجـب ألا يغيب عن ذهـب القـراء أيضـاً ، أننا في مقابل هذه الخدمـة ، ونظـراً لحبنـا الشديد لمحمد عبد الله (إذ اتضح لنا أنه شخص واسع الأفـق) ، طلبنا منه أن يختار بين مبلـغ من المـال ، وبين أن يحظـى بشرف أخوة البك ، وقـد نجـح الرجـل فـي اختياره بأن فضـل " الأخـوة " علـى المال . وهنـا قطعنا معه وعـداً ، مفـاده إننـــا إذا ما سار معنا كل شيء على ما يرام ، فسـوف نعـود إلـي دمشـق فـي الشـتاء التـالي ، ونسافر بصحبته إلي نجـد ، التي يعتقد أن له فيها أقـارب ، وأن تساعده هنـاك علـى الزواج من واحدة من بنات عشيرته !

وكـانـت الفكرة والوعد ، هما في نطاق الأفكـار البدويـة ، وقد انشـرح صـدر محمد هو و والـده لهذه الفكـرة وهذا الوعد ، بعـد أن أبلغناهمـا بـذلـك فـي الوقت المناسب . عـادات الزواج العربية لم تتغير كثيراً عما كانت عليه في أيام (سيدنا) إبراهيـم ، وكان من الطبيعي للأب وللابـن أن يرغبـا فـي تزويج ابنهمـا مـن قريبـة لهما ومن دمهما ، وأنه يتعيـن عليه الذهاب إلي أبعـد الحدود من أجل الحصـول علـى زوجة بهـذه المواصفـات ٠٠٠٠

هـــذه الاعتبـارات الفريـدة ، مثلمـا قلـت ، كانـت الفكـرة الرئيسيـة وراء رحلتنا ، وأمـل أن تولـد هـذه الفكـرة اهتماماً غير اهتمامنا بمغامراتنا الشخصيـة في هذين المجلـدين كان محمد هـو والعرب الذين رافقـونـا في أسفارنـا ، وكذلك العرب الذيـن التقيناهم أثنـاء الرحلـة ، يجعلـون من تـاريخ أسرة محمد حكايـة مستمـرة ، وكانـوا يـرددون ويقتطفـون عن قصيدة أبن عـروق فـي كل مناسبة وحين ، كانوا يـرددون تلــك القصيدة بمناسبة وغير مناسبـة ، وكـأنهم جوقـة تـردد لازمـة مـن اللوازم . ويغير ذلك ربما استحال القيام بالرحلة ، وفي أكثـر من مناسبـة ، كنا نجد أنفسنا نمضي مضياً سهلاً بفعل هذه القصيـدة التـي مكنتنـا من التغلب علـى بعض الصعوبات التي لو واجهتنا فـي ظـل الظـروف المعتـادة قد توقـف تقدمنا وتعترض طريقنـا . لكـن حظنـا الأوفـر ، فـي ظـل مـا ستكشـف عنـه الأحـداث ، هـو الـذي جعلنـا نهتـدي إلـي فرعـي هذه العائلـة التـي شرعنا في البحث عنها ، كـان الفـرع الأول يتمثل فـي مواطني واحـة الجــوف ، أمـا الفرع الثـاني فيمثل البدو الذين فـي نجـد ، و وجـدنــا أننـا كلمـا زاد توغلنـا ازددنـا علمـاً بأخبـار العروق مـن ناحيـة ، وازداد أيضاً تدفق الأقارب علينا من كل حدب وصوب ، وكان الجميع يتسابقون في إكرامنا وتقديم يد العون لنا ٠٠٠

قـد يشعـر علمـاء النبـات والحيوان بالإحباط بسبب المعلومات الهزيلـة التـي أوردناهـا عـن النباتـات والحيوانـات . لكـن مسـألـة تأكيد وجـود المهـا الأبيض فـي نجـــد ، أصبحت حقيقـة واقعـة الآن جديدة علـى العلم ، وأصبح المهـا الأبيض ، حقيقـة واقعـة مثـل كـل مـن الـوبـر Webber والمرمـوت وهمـا حيوانـان مـن القــوارض ٠

آمــل أن يتـم الاعتـراف بـذلـك الإسهـام المعرفـي الكبيـر والمهـم المتمثـل فيمـا اسميتـه بحكـم الرعـاة ، الـذي هو وصـف المنظومـة السياسية فـي نجد فـي

الوقت الحالي . وأنا أعرف أن احداً لم يتعرض قبلي لهذه المنظومة ، ولم يحدث أن اقترب نيبور أو بوركهارت من هذه المنظومة في شكلها الخام ، كما أساء بالجريف فهمها تماماً عندما نظر إلي حياة البدو باعتبارها نقيضاً لحياة الحضر . ومع ذلك يظل حكم الرعاة هو أقدم منظومات الحكم في الجزيرة العربية ، كما أن هذه المنظومة تعد أفضل المنظومات التي تلبي احتياجات هذه البلاد .....

أود إضافة كلمة واحدة قبل إنهاء هذا التصدير ، ففي أثناء اجتماع الجمعية الجغرافية الملكية ، جرى الاعتراض على ، عندما كنت أقرأ ورقة قدمتها عن هذه " الزيارة التي قمت بها إلي نجد " ، وقال المعترضون : إنني على الرغم من عبوري الصحراء الرملية الكبيرة ، والزيارة التي قمت بها إلي جبل شمر ، فإنني لم أصل إلي نجد . قالوا لي ، وهذا استناداً إلي " أوثق المصادر " ، أن المصطلح نجد ينطبق فقط على منطقة وسط الجزيرة العربية التي يحيط بها جبل الطويق ، والنفود الصغرى ، وأن جبل شمر والقصيم لا يدخلان ضمن نجد . وعلى الرغم من غرابة هذا الكلام على مسامع أناس عادوا للتو من هذه البلاد ، فقد عجزت في ذلك الوقت عن دعم وتقوية رفضي لأي جدل حول هذا الموضوع نظراً لأن سكان المنطقتين محل الجدل يطلقون عليهما اسم نجد – وهذه حجة دامغة ، بدت غير كافية عند البعض . وقد تحملت مشاقاً كثيرة ، في دراسة أسباب ذلك الاعتراض من ناحية ، وتبرير اعتقادي الأصيل والقوي الذي مفاده أن حائل ليست مجرد جزء من نجد ، وإنما هي نجد بشحمها ولحمها .

أولاً ، ومن باب تكرار " الحجة الدامغة " أقول مؤكداً ، انه استناداً إلي العرب أنفسهم في كل القبائل والمدن التي زرتها ، فإن نجد تشمل الأراضي كلها

الواقعة داخل صحراء النفوذ . نجد تعبير جغرافي يشمل ثلاث مناطق فرعية رئيسية هي : جبل شمر ، والقصيم في الشمال ، والعارض في الجنوب . والشك الوحيد الذي تناهي إلي مسامعي يتعلق بصحراء النفود نفسها ، سواء أكانت داخله أم لا ضمن هذا المصطلح . البدو أنفسهم يعدون صحراء النفود داخلة في نجد ، نظراً لأن صحراء النفود هي ذلك الجزء من نجد الذي درج البدو على الإقامة فيه ، وبخاصة أن الهضبة الصخرية الوسطى غير صالحة لحياة الرعي والرعاة . الجوف لا تدخل ضمن منطقة نجد ، وهي تقع على الحدود الشمالية لنجد ، وكذلك نجد أن كلاً من خيبر وتيماء في الشمال الغربي لا تدخلان ضمن نجد ، في حين تدور الشكوك حول كل من جبة **Jobba** والحريق باعتبارهما من بلدان النفود " ...

ثم يستند إلي رأي الرحالة جورماني :

" الجبل هو المنطقة الأكثر ترجيحاً في نجد . وعلى حد قول العرب هذا الجبل يعد نجداً واحداً من سبعة أنجاد ، واستناداً إلي ما يقوله الزامل ، شيخ عنيزة ، نجده يفسر ويفصل هذه الأنجاد السبعة على أنها : العارض ، والأحساء ، والحريق ، في الجنوب ، ثم الوشم في الوسط ، ثم جبل الشمر ، والقصيم ، وسدير في الشمال " ...

من هنا أرى أن الأمر في حفيقته يتمثل فيما يل : نجد بمعناها الأصلي ، ومعناها العام الذي يعني " الأراضي المرتفعة " ، كان عبارة عن مصطلح جغرافي طبيعي ، وبالتالي كان يشمل جبل شمر ، أكثر أجزاء نجد ارتفاعاً ، كما يشمل أيضاً القصيم ، ومعروف أن القصيم تقع بين جبل شمر والعارض ، وبذلك عرف الناس نجد على هذا الحال منذ زمن نيبور ، وما زال بدو الشمال يعرفون نجد على هذا

الحال أيضاً إلي يومنا هذا ، نظراً لأن ذكريات هؤلاء البدو تعود إلي أزمان سابقة لزمن نيبور ..

ويمكن القول إن المصطلح " نجد " كان يشمل في يوم من الأيام ليس مجرد الهضبة المرتفعة وحدها ، بل كان يشمل أيضاً كلاً من الجوف والأحساء ، وعلى الرغم من أن الأحساء تعد أرضاً ساحلية منخفضة ، وما تزال إلي يومنا الحالي تحتفظ بالاسم نجد ، في ظل المسميات التركية الرسمية . في الزمن الذي قام فيه بالجريف برحلته ، كان الوهابيون الذي حصل منهم بالجريف على معلوماته ، لا يعدون جبل شمر جزءاً أساسياً من دولتهم ، بل كانوا يعتبرونه ، على حد تعبيرهم ، ملحقاً لنجد .. كان جبل شمر مستقلاً سياسياً ، وبالتالي لم يعد جزءاً من نجد من وجهة نظرهم . لكن الدولة النجدية شهت ، منذ زمن بالجريف ، المزيد من الانهيار والتفكك . استعاد القصيم استقلاله ، وجرى ضم الأحساء إلي الإمبراطورية التركية . وأصبحت نجد من جديد ، هي ذلك الذي كانت عليه قبل قيام الدولة النجدية ، أي مجرد مصطلح جغرافي طبيعي ، هذا يعني أن المصطلح أصبح واسعاً وفضفاضاً مقترباً بذلك من مصطلح وسط الجزيرة العربية .

من هنا ، فأنا أتمسك بالعنوان الذي أعطيته لرحلتنا ، على الرغم مما يقوله العلماء !

الضابط المغامر .. وافيل

هناك ثلاثة أساليب اتبعها هؤلاء الرحالة كي يتسنى لهم الدخول إلي الديار المقدسة ، وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة . أما الأول : فهو التنكر بالملبس الإسلامي ، لإتمام مهمة الحج . والثاني : هو إعلان الإسلام الظاهري . أما الثالث : فهو إعلان الإسلام الفعلي ، وأداء فرائض الحج كمسلم يؤدي إحدى الفرائض الدينية .

ففي الحالة الأولى ، وهي حالة التنكر ، فالموقف الإسلامي يعدها عملية خداع قام بها هؤلاء لكي يتسللوا إلي الأراضي المقدسة ويعايشوا المسلمين في أداء فريضة الحج ، ويمارسوا نسك هذه الفريضة ، حتى يصفوها وصفاً قائماً على أساس من الفهم . وهذا حال فارتيما ولو بلانك وفيناتي وغيرهم .

والموقف الإسلامي من هذا الخداع موقف واقعي ، يتعامل مع الحادثة في إطارها الشرعي والقانوني ، حيث يوجد أمر بعدم السماح لغير المسلمين بدخول الأراضي المقدسة ، وهناك علامات للمنطقة المحرم دخولها . كذلك هناك عقوبات لمن لا يلتزم هذه الأوامر الصادرة عن السلطات الإسلامية . ويمكن القول : إنه لو قبض على أحد هؤلاء لتماري بعملية الخداع بإعلان أنه مسلم ، وربما نطق بالشهادة أمام المحققين معه ليخلص نفسه من هذه الأزمة ، وبإعلان الشهادة لا يستطيع أحد أن يتعامل معه على أنه ليس مسلماً .

وفي حالة إعلان الإسلام الظاهري من أجل إتمام الحج ، فالموقف الإسلامي يصبح أكثر صعوبة ، إذ ليس في استطاعة أحد أن يكشف صحة إسلام

هؤلاء ، فالدخول الظاهري في الإسلام يتم من خلال إعلان الشهادة ، والالتزام الظاهري لأداء الفرائض والواجبات الإسلامية ، خصوصاً الصلاة والصوم والحج وكلها يمكن أن تؤدى بشكل ظاهري ، وبدرجة من الإتقان لا يمكن معها كشف عدم إسلام صاحبها ٠

إن التسلل إلي الديار المقدسة من قبل هؤلاء الرحالة ينطوي على عمل غير أخلاقي لعلم هؤلاء المسبق بأن دخول المدينتين المقدستين محرم على غير المسلمين . لقد استغل هؤلاء الإسلام استغلالاً سيئاً من أجل تحقيق أهدافهم ، وهذه النقطة تضاف إلي سلسلة من الأعمال المعبرة عن الزمة الأخلاقية في مسيرة الاستشراق ، ويمكن في هذا المجال أن نحصى عشرات السلوكيات غير الأخلاقية من بينها سرقة المخطوطات وجمع المعلومات للجان الاستعمارية ، إضافة إلي الإعلان الظاهري للإسلام للتسلل إلي بلاد المسلمين وفي هذا المجال نستحضر النقد الذي قدمه إدوارد سعيد لهؤلاء الرحالة من حيث ارتباطهم بالحركة الاستعمارية ٠ وفي تصور الشرق تصوراً استعمارياً عرقياً فوقياً متجذراً في القوة واتحاد القوة بالمعرفة ٠

وفي أوائل القرن العشرين وبالتحديد عام ١٩٠٣ م أتى رحالة جديد يحاكي ويضاهي بورتون بعد نصف قرن من مجيء ذلك الرحالة النشيط . ولقد دخل هذا الرحالة مكة متخفياً متنكراً واسمه " وافيل – Wavel " وكان هش المنظر ، ولكنه رجل مختلف فهو نشيط مدهش ، قام بمعظم رحلاته في إفريقية ، وقضى أكثر من عام متجولاً وحده بين بيتشوانا لاند Pitchwana land عبر صحراء كالاهاري حتى نهر الزمبيزي . وبعد أن مل من عمل الجيش في زمن السلم استقال من الجيش ، وحاول السفر إلي مكة تسيره روح المغامرة التي تسود طلاب المدارس ، ولكن روحه كانت مشوبة بالتكتم والتواضع الانطوائي ٠

دفــع وافيــل Wavel ثلاث جنيهات استرلينية و٣ شلنات أجرة مقعد في سكة حديد الحجاز للسفر إلي المدينة المنورة ، ومعه رفيقان أحدهما من كينيـا فـي إفريقيـة والأخر عربـي من حلـب . وكـان (وافيـل) متخفيـاً بأسلوب لا يضـاهيه حتـى بـورتــون . ويقــول أن مظهـــر المدينـة المنـورة كـان يمثـل مظهـر النظافـة والغنى واليسر ، وقد راقب المسلمين في حرم المدينـة والذين أتوا من جميع أصقاع الأرض وهو يصفهم بما يلي :

" رأيـــت الأتـــراك الأوربييـــن بمعاطفهـــم الطويلـــة وباقاتهـــم البـــارزة ، والأناضولييـن بسراويلهـم الفضفاضــة وأسلحتهـم الجميلـة السـاحرة ، والعـرب مـن الغـرب الذين ظهــروا وكـأنهم اصطفـوا فـي جنــازة ، والبـدو برماحهـم وسيوفهم ، والهنود الذين على الرغم من كونهم أغنى طبقة موجودة ، إلا أنهم يظهرون بمظهر القـذارة والفوضـوية والإهمـال . وبالإضـافة إلـي ذلـك هنالـك الأعجـام والصـينيون والجاويون ، وأهالي الملايـو ، وعدد من أجناس الأفـارقـة ، والمصـريون والأفغـان والبلوخستانيون والسواحليون ، والعرب من كل حدب وصوب .

وقـد لاحظ وهو أمام ضريح النبـي محمد (ص) أن كثيراً من الموجـودين كانوا ينفجرن بالبكاء ويقبلون السياج بحماس . ثم يقول :

" ورأيـت كثيـراً مـن الهنـود والأفغــان يسقطـون فاقـدي الـوعي . ويبــدو أن عـدد المتأثرين عاطفياً يفوق عددهـم عند الكعبـة ، ففـي مكـة يتغلـب شعـور الرهبـة والاحتـرام ، ولكن هنا تتدخل العناصر الشخصية في الأمر .

وفـي المدينة التحق (وافيــل) بقافلـة تضـم الحجـاج والفقـراء والمسـاكين ، وكانـت هـذه القافلـة سـوف تسلـك أصعب الطرق وأسـوأها لإيصالهـم إلـي (ينبـع)

ومن هذا الميناء كانوا يركبون السفن إلي (جـدة) وبعدها يتابعون السفر إلي مكة بـراً ٠

ويظهر من رواية (وافيل) أن هذه القافلة التي كانت تضم حوالي خمسة آلاف جمل ، ومع ما هي عليه من الفقر إلا أنها كانت تتعرض لهجوم قطاع الطرق المحليين إذ إنها تعتبر لقطة بالنسبة إليهم ٠

وفي إحدى الليالي شعر وافيل أن شخصاً مضرجاً بالدم ، يطرحه أرضاً قرب إحدى نيران الحراسة . وكان هذا المتشرد لا يملك جملاً ، لذلك فقد رافق القافلة ماشياً على قدميه ، وكان ينتظر شخصاً سيء الحظ يتأخر عن القافلة ليهاجمه ٠

وكان رجال وافيل المسئولون عن إبله وقحين حتى إنه قرر التخلص منهم ولو بحد السيف ، ولكن سرعان ما سرت إشاعة في القافلة أن (وافيل) هو ابن عم الباشا حاكم ينبع ، وهكذا ساعدت هذه الإشاعة على حل مشاكله بشكل سلمي ٠

وعند وصولهم إلي ينبع وركوبهم سفينة توصلهم إلي حدة نشأت المشاكل ولكن (وافيل) استطاع ، بصفته ابن اخ حاكم ينبع ، تهدئة الجو وإعادة النظام ٠

وفي جدة زار قبر (حـواء) كما فعل تاميرير Tamirir قبل عدة سنوات ، وقد وجد أن طول جدتنا حواء قد تقلص قليلاً في تلك المدة ، وقد قال وافيل أنه أخبر أن طولها يبلغ حوالي ربع ميل ، وهكذا كان من الصعب

المشـي حولهـا بوضـعها الحاضـر ففـي زمـن (تاميـريـر) كـان جسـمها يمتـد مـن الشاطيء الإفـريقـي إلـي البحـر الأحمـر الأمـر الذي يجعل الملاحة متعبة جـداً ٠

وكـانــت الأربعـون ميـلاً وهي المسافة مـا بين جـدة ومكـة محمية بخـط من الحصـون الصـغيرة حتـى أنـه لـم يكـن هنالـك مـن حاجـة للحـراس بالنسبة للقـوافـل ، وعند وصولهم إلي مكة اقتربوا بقدر الإمكـان من الحـرم الكبير (الشريف) والكعبة المغطاة بالأستار السود . وكـان الانطباع الظاهـر في كل شيء هو الغرابــة . ولكن جمال ذلك المكان ينحصر في غرابتـه أيضـاً . وأما النباتات الواقعة حول الحرم فلم تكن حاويـة لأي جمال معماري ، فالبساطة والقوة هي التي تميز هذا المكان ٠

وأمـا مكـة نفسها فقد كان حبـه وتقديـره لها أقـل من حبـه للمدينـة المنورة . وقـال : إن تجارة العبيد لا تزال سائدة في (مكــة) ، وذلـك فـي سوق العبيد حيـث يجلـس العبيد فـي صـالات خاصـة علـى مقاعد طويلـة مرتفعـة وعلـى مصـاطب ، ومعظم العبيد من النساء ٠

وأمـا العبيـد الذكـور والخصيان فكانـوا يباعـون بنـاء على اتفـاق خـاص ٠٠ وكان المشتري يفحص أضـلاع العبـد وأسنانـه حتى يقتنـع أنه سليم معافى ، وكـان ثمـن (الأمـة) بين ٢٠ و ١٠٠ جنيه استرليني . أمـا الإمـاء من جورجيـا والقفقاس اللواتي يتمتعن بخصائص جسمانيـة ساحـرة ، فكانت أثمانهم تزيد على ذلك ٠

ويقـول (وافيـل) : إن تسـري الإمــاء كـان مسموحــاً فيــه قانـونيــاً ، أمـا أعمـال السخرة والعمل دون دفـع أجرة فقد اختفـى ولم يعد موجوداً ٠

والحقيقة أن العبودية أصبحت عملاً غير مستساغ ، ولكن حتى هذه الأيام تسود الإشاعات عن استمرار بيع وشراء هذه الكائنات البشرية بشكل سري في أواسط بلاد العرب : إذ مع أن سوق العبيد في مكة قد اختفى فليس معنى هذا أن تلك التجارة قد اختفت أيضاً في الرياض وفي الخليج ٠

لم تكن رحلة وافيل Wavel ذات أهمية للأبحاث الجغرافية أو لعلم الإنسان . فقد كتب وهو يغادر المدينة المنورة : إن هذه الأرض الكبيرة من شبه جزيرة العرب لا تزال تعتبر أرضاً غير معروفة حتى من وجهة جغرافية ، ولذلك فلا نعرف الكثير عن تركيبها الجيولوجي ولا عن حيواناتها أو نباتاتها والمظاهر الفيزيائية الأخرى ، فهو لم يفعل شيئاً في سبيل القضاء على الجهل بالنسبة لهذه الموضوعات ٠

وفي عام ١٩١١م زرا صنعاء . وقد قضى هناك وقتاً كافياً لكتابة وصف كامل ممتع للمدينة ، ثم توغل في أراضي اليمن مخترقاً منطقة كان الأتراك لا يزالون يحاولون الاحتفاظ بسيطرتهم عليه ، وقد بدت رحلته صعبة ولم تحرز أي نجاح ، فقد اعتقله الأتراك وعاملوه معاملة سيئة ثم أطلقوا سراحه ، فالتحق بالقوات البريطانية الموجودة في إفريقية الشرقية عند بداية الحرب العالمية الأولى . ولكن وفي أثناء تصديه لهجوم ألماني على خط حديد (أغندة) حصل عراك صاخب قتل فيه (وافيل) ، ولكن الألمان الذين قتلوه وضعوا الصليب على قبره !

بتلر وايلمر .. استخبارات بريطانية !

حتى بدايات القرن الماضي ، ظل الرحالة والمغامرون البريطانيون يتوافدون على جزيرة العرب ٠٠ فكشفوا الكثير من معالمها وآثارها ، وعرفوا المجهول من مختلف أخبارها وأحوالها ، بعد أن جاسوا صحاريها واخترقوا فيافيها وقفارها ، و وصلوا إلي أصقاعها النائية وتوغلوا في مجاهلها ، مدفوعين بدوافع مختلفة ، مستهينين في سبيل ذلك بجميع الأخطار والصعوبات ، ضاربين أروع الأمثال بصبرهم وجلدهم ، وتحملهم لنمط من حياة الشظف والقسوة ، قل أن يستطيع إبن الصحراء نفسه أن يجاريهم في تحمله في هذا العصر ٠

كما شهد العقد الثاني من القرن الماضي وحتى اكتمال تجزئة المشرق العربي هجمة استخبارية ، أبطالها رجال ونساء يعملون لصالح الاستخبارات الألمانية والبريطانية والفرنسية في مناطق نفوذ الإمبراطورية العثمانية في محاولة لتهيئة الأوضاع لخلافتها . من هؤلاء الرجال كان اس . اس . بتلر ورفيقه ل . ايلمر اللذان يعملان في الاستخبارات البريطانية ، وكانا مكلفين بمهمات خاصة في شرق إفريقيا ٠

لا تتوافر معلومات عن شخصيتيهما ، ولم يرد لهما ذكر بعد رحلتهما . إلا أن الكابتن بتلر قدم محاضرة بعنوان : " من بغداد إلي دمشق عبر الجوف ، شمالي الجزيرة العربية " في الجمعية الجغرافية الملكية في لندن يوم ٢٢ فبراير ١٩٠٩م ، يصف فيها رحلته هو وزميله ، وقد تم نشرها في المجلة الجغرافية

التي تصدرها الجمعية في عدد شهر مايو ١٩٠٩ م كتب بتلر في هذه المحاضرة :

" كانت مغادرتنا أنا والكابتن ايلمر ، من شرق إفريقيا في خريف ١٩٠٧م ، فقررنا إذا أمكننا ذلك محاولة الرجوع إلي إنجلترا عبر الخليج ، بغداد ودمشق . ولكن بدلاً من اتباع الطريق المعتاد الموازي لنهر الفرات من بغداد إلي دمشق ، عقدنا النية على أن نحاول الذهاب من خلال الاتجاه غرباً من بغداد إلي الجوف ، التي تقع في شمال وسط الجزيرة على الحد الشمالي للنفود الكبير . ومن هناك ، نذهب شمال غرب وبالتالي إلي دمشق عن طريق جبل حوران ٠

الجوف بالطبع ليست مجهولة عندنا ، فقد زارها والن عام ١٨٤٥م ، بلغريف عام ١٨٦٢م ، غوارماني عام ١٨٦٣م ، هوبر عام ١٨٧٩ م ، الليدي آن بلنت و ويلفرد بلنت عام ١٨٧٩م ، أوبتنغ عام ١٨٨٣ م ، نولده عام ١٨٩٣م ومبشر من الكرك يدعى فوردر عام ١٩٠١ م ٠

جميع هؤلاء زاروا الجوف . بعضهم جاء من الغرب (والن ، بلجريف عن طريق معان) و (هوبر وأوبتنغ والليدي بلنت وزوجها ويلفرد بلنت ونولده عن طريق دمشق) ، و (غوارماني عن طريق حائل) . ولكن حسب معرفتي لم يزر الجوف أحد عن طريق بغداد ، أو من الشرق من قبل أي من الأوروبيين أن أن المنطقة الفاصلة بين بغداد والجوف قد تم استكشافها بأية طريقة ٠

كانت الصعوبة الرئيسية لنا في البداية ، هي مغادرة بغداد لأننا ولفترة طويلة كنا غير قادرين على أن نجد أحداً ليكون رفيقاً ودليلاً وصديقاً ، والذي بدونه سيكون من المستحيل السفر في الجزيرة العربية غير الآمنة ٠

بعد فترة قصيرة من وصولنا إلي بغداد بعد زيارتنا لكربلاء تبسم الحظ لنا فسمعنا أن بدوياً سيعود إلي قبيلته في الحال ، وهو ينتسب إلي فرع ابن مجلاد من قبيلة بشر العنزية ، التي تقطن في الصحراء جنوب غرب كبيسة . هذا البدوي اسمه محمد بن ماضي كان رجلاً مهماً في قبيلته ، وكان ضامناً معه بعض تجار الملابس وبائعي الإبل وكان مستعداً لأخذنا معه إلي مضارب قومه إذا دفعنا له ثمناً . ومن هناك إذا دفعنا له مبلغاً آخر سوف يساعدنا في الوصول إلي الجوف ٠ اشترط هذا البدوي أن نحضر جمالنا وعدتنا ، وأن نلبس لباس البدو ، وقد نفذنا هذه الشروط . فيما يتعلق باللباس العربي فإنني أعتقد أن ذلك أمر ضروري لمن يريد دخول الجزيرة العربية . فاللباس الأوروبي يسبب كثيراً من عدم الاطمئنان بل خطراً حقيقياً . لم أحاول لا أنا ، ولا رفيقي الكابتن ايلمر أن نظهر انفسنا كبدو ، فإذا ما تحدثنا مع الذين سيقابلوننا فلغتنا ستظهر شخصياتنا ، ولكننا عندما نضع الكوفيات على رؤوسنا ونتلثم بها نظهر وكأننا بدو مثلنا مثل رفقائنا بل أحياناً يتم الخلط فيما بيننا حتى نتحدث معهم ٠

غادرنا بغداد في التاسع من شهر يناير ١٩٠٨ م مع دليلنا وصديقنا محمد الماضي ومعنا جماعة تقارب العشرين تاجراً ومساعدوهم ، وكنا جميعاً نركب الإبل . أنا والكابتن ايلمر ركبنا نياقاً دفعنا لكل واحدة منها ١٣ ليرة تركية أما خادمنا فركب جملاً وكانت تكلفته ١٢ ليرة . أما مؤونتنا التي حملناها معنا فكانت عبارة عن عدة غيارات من الملابس ، وبعض التمر والرز والطحين والقهوة والشاي والسكر والملح والسمن والبصل وبعض الأشياء المعلبة . طيلة رحلتنا أكلنا وعشنا مع رفقائنا والعرب الآخرين الذين قابلناهم كبدو . أما الأطعمة المعلبة رغم أنها تعد تغييراً جيداً إلا أنها لم تكن ضرورية فهي ثقيلة الوزن وتحتل حيزاً كبيراً ، ولو أتيحت لي الفرصة مرة أخرى للذهاب إلي الجزيرة العربية لما حملت معي غير

ما يحمله العرب عندما يسافرون ، أي الطحين والتمر والملح والرز والسمن وبعض البصل الذي يفضله العرب لأنه يساعد في إعطاء طعم للرز ٠

كانت المحطة الأولى لنا بلدة كبيسة ، وهي بلدة عربية تحت الحكم التركي وتبعد ما يقارب التسعين ميلاً شمال – غرب بغداد وبعض الأميال غرب هيت ، التي هي بلدة صغيرة على شط الفرات ٠٠٠

وما بين كبيسة وسكاكا لاحظ بتلر البدو الذين يعيشون في بيوت الشعر ويتنقلون مع قطعان أغنامهم وأبلهم بحثاً عن الماء والكلأ ٠٠ كما لاحظ وجود عدد من الرجوم وهي نتوءات صخرية تعد علامات للحدود بين سلطات شيوخ البدو !

كانت إقامتهما في قبيلة " عنزة " لمدة أربعة أيام : " هي الأكثر إثارة حيث أتيحت لنا الفرصة لنأخذ صورة ممتازة عن حياة البدو في الصحراء " ! ٠٠ وتحدث بتلر عن سمات رجال عنزة ونساءها وملامح من حياتهم الاجتماعية ٠

بعد أن غادرا المخيم ، عبرا منطقته " عميج " حيث سارا على امتداد وادي عميج إلي وادي حوران : سهول واسعة مغطاة بالأعشاب ، إلي أن وصلوا في اليوم التالي إلي سلسلة من التلال تسمى " حزيميات " تمتد شرقاً وغرباً ٠٠ وبالقرب من وادي الباطن التقوا بعضاً من قبيلة " الصلبة " ٠٠ فتحدث بإيجاز عن أصولهم التاريخية " صغار في الحجم ولكنهم يمتازون بالوسامة " وقال أنهم يشتهرون ببراعتهم في الصيد ، وبمعرفتهم للمنطقة وأماكن وجود الماء ، ملابسهم من جلود الغزلان ٠٠

" فـي المسـاء ذهبنا إلي واحـد من اجتماعاتهـم ، في إحدى خيامهـم ، حيث يجتمـع الجميـع رجـال ونسـاء حـول النـار . إنهـم يعزفـون بشـكل ممتـاز علـى آلـة موسيقية تتكون من قصبتين مجوفتين مربوطتين مع بعضها البعض ، تخـرج صـوتاً يشبـه المزمــار . كما أنهـم شعراء مدهشون فهم يستمرون لساعات يقصون قصصاً على شكل قصائـد منظـومـة ، وعند آخر كلمة من كل بيت شعـر لـه إيقـاع يـردده المستمعون بهتافات مليئة بالدهشة والفرح والحزن وبتأثـر شـديـد .

لقـــد كنـــا آسفيـن لمغـادرة هـؤلاء النـاس المتواضـعين والمضاييـف بـنفس الوقـت ، وأخذنا واحداً منهم ليرينا الطريق إلي الجـوف ٠

إن مقاطعـة الجـوف عبـارة عـن مـنخفض كبيـر ، يعطـي الانطبـاع أنـه كـان بحيـرة كبيـرة ، أو بحـراً داخليـاً . أرض هـذا المـنخفض الكبيـر صـخرية ، ومعطـاة بطبقات مسطحة من الصخور الرملية ذات الألوان الأرجوانية والمحمرة . إن بلـدة الجوف التي تأخذ اسمها من اسم المنطقة تقع على الحد الغربي لهذا المـنخفض وفـي جوف يتسع تقريباً لميليـن . ولكن القادم من الشـرق سيصل أولاً إلـي سكاكا ، التـي تبعد ما يقارب الثلاثين ميلاً شرق بلدة الجوف ٠

إن سكـاكـا عبارة عن واحة تشتمل علـى عدة آلاف من أشجار النخيل التـي تنتج أفضـل أنـواع التمـور . كمـا تشـتمل علـى مـا يقـارب أربعمائـة مسكن ، جميعهـا مبنية بالطين ، ولكنها تمتاز بالمتانـة ، وبعضـها يتكـون مـن طـابقين . إننـا نقدر عدد السكان بألف وسبعمائة نسمة . بعد أن زرنـا الجـوف وجدنا أن سكاكا هـي الأنظـف ، وتبدو الأكثـر ازدهاراً وأن التجارة القليلة في المنطقة تتم كما أعتقد في سكاكا حيث وجـدنا عـدداً مـن تجـار كـربــلاء (مشـهد الحسين) ومـن النجـف (مشـهد علـي) يعيشـون بهـا . إن المـاء فـي سكاكا وافـر ، بأنواعـه الحلـوة والمالحـة ، ويجلـب مـن

الآبار عن طريق الجمال أو الثيران ، وبالقرب التي تفرغ آلياً حيث تسقى حقول النخيل والمزارع عن طريق مجاري ماء ضيقة . إن طريقة الري هذه شائعة في شرق تركيا وفي شمال الجزيرة العربية ٠٠٠٠

في الطرف الشمالي للبلدة توجد قلعة مبنية بالحجارة تدعى قصر زعبل ، والتي كما أعتقد ، ذات جذور عربية قديمة ، وأخبرنا السكان أنها تستخدم الآن في بعض الأحيان سجناً ٠

لقد وصلنا إلي سكاكا كأجانب ، ولم ندع إننا مسلمون ، ومع ذلك عوملنا معاملة تشمل كل معاني الضيافة من شخص مشهداني يدعى حسيناً وكل الذين قابلناهم في سكاكا عاملونا بكل كرم ، وبطريقة لا تختلف عن معاملة حسين ٠

إن سكاكا بالإضافة إلي بقية منطقة الجوف ، خاضة لابن رشيد ، ويديرها أحد أمرائه ، وهو يسكن في الجوف ، وله وكيل أو مندوب بسكاكا ٠٠٠ "

انبهر بتلر وايلمر بحفاوة استقبال الأمير فيصل بن رشيد لهما – على غير المتوقع – و وصفا قصر الأمير و " شاهدا المدفعين البريطانيين اللذين تحدثت عنهما الليدي آن بلنت " !

ثم تحدثا عن أيامهما في الجوف : " قضينا خمسة أيام في الجوف وكان لدينا الوقت للنظر حولنا . البلدة تمتد من الشمال الغربي والجنوب الشرقي ، وتقع في حزام من النخيل يبلغ طوله ميلين ونصف الميل ، وعرضه نصف ميل . وفي النهاية الشمالية يوجد الحصن القديم المسمى " مارد " والسوق . وفي النهاية الجنوبية توجد قلعة الأمير وهي مبنى شيد في منتصف القرن الماضي . أما

الســـوق ، فلا يستحق هذا الاسم فهو عبارة عن مجموعة منازل حول الحصن ، ولا توجد دكاكين وكل عمليات البيع والشراء تتم في البيوت التي يمتلكها التجار هنا وفي سكاكا أيضــاً . وفي كلا المكانيـن لم نجد شيئـاً يمكـن شـراؤه ، عدا القهوة والدقيق ولا يوجد سكر أو أرز أو شاي أو بصل أو أي شيء آخر له قيمة يمكن شـراءه . إنها بلدة تتكون من ٤٥٠ منزلاً طينياً ، وأقدر عدد سكانها بـ ٢٥٠٠ – ٢٧٥٠ نسمة وبالتأكيد ليس أكثر بكثير ، واتفق مع ويلفريد بلنت بأن بلجريف بالغ عندما وضع سكان الجوف وسكاكا في رقم مثل أربعين ألف نسمة بينما السيد فوردر ذكـر أنه لما كان هناك وجد عدد السكان أربعين ألف نسمه في الجوف وحدها . إن المنـازل مثلها كمثل المنازل في سكاكا مبنية جيداً من الطين ، وبعضها يتكون من طابقين . وفي الجوف مثلما هو الأمر في سكاكا ، يعتـز الناس بالنخيل ، لأن تمرها كبير ولذيذ الطعم ومشهور بأنه أطيب تمر في شمال شبه الجزيرة العربية . والصناعة الرئيسية هنا هي نسج العبـاءات وحقائب السروج وأغطية رؤوس الجمال ، وصناعة السيوف ، وفي سكاكا أيضاً ينسجون العباءات الفاخـــرة ، وهذه العبـاءات معروفه في دمشق وبغداد . المـاء في الجوف متوفر وجيد ، وهناك ستة ينابيع وكثير من الآبار ويقول المواطنـون إن ماءهم بارد في الصيف ودافيء في الشتاء . وبالفعل كان الماء دافئـاً في الشتاء أما برودتـه في الصيف فهي ما لا أستطيع تأكيده . ومارد القلعة القديمة التي تتجمع حولها المنازل ، والتي يعطيها السكان أهمية كثيرة لا تلفت النظر إلي أنها كان شيئاً رائعاً ذات يوم ، وهـي الآن متهدمة ، وأعتقد أنها شيدت قبل ستمائة سنة "

عقـب مغادرتهم الجوف ، تتبعوا طريق وادي السرحان عبر سهل ممتـد ذي تربة صخرية ، تتخلله تـلال رمليـة ..

" عند منتصف نهار اليوم الثالث بعد أن غادرنا الجوف أتينا لآبار النبك أبو قصر حيث وجدنا بعض الرولة يستقون ، ولديهم جمال كثيرة . لقد كانوا من رولة الشيخ ابن شعلان ، أقوى شيخ في قبيلة الرولة . وكانت مضارب خيامه على بعد يومين منا كما أخبرونا . ولما كان يسود في ذلك الوقت سلام بين ابن رشيد وابن شعلان ، ومرشدنا يعمل مع ابن رشيد ، عاملونا معاملة طيبة . وفي المساء الذي تلا ذلك وقريباً من وادي العيلي مررنا بجماعة أخرى من الرولة وعسكرنا معهم وبسبب هطول الأمطار الغزيرة التي منعت الجمال من السير ، قضينا اليوم التالي معهم . لقد عاملونا معاملة طيبة وأكرمونا جيداً ونصبوا لنا خيامنا وأمدونا بلحم إبل وحليب وحطب . لم يكن عددهم كبيراً ، فقد رأينا حوالي ثلاثين خيمة فقط ...

بعد ثمانية أيام من مغادرتنا الجوف ، وصلنا إلي البليدات . وهي مجموعة من القرى الصغيرة ، تمثل حدود سلطة ابن رشيد الشمالية . وأسماء القرى على التوالي هي : قرقر ، غطي ، قليب طلال ، الوشواش ، إثرة ، منوة ، كاف ، أم الغيران . وباستثناء كاف التي يسكنها أربعمائة نسمة ، وإثرة التي يسكنها مائة نسمة ، فبقية القرى عبارة عن حصون طينية بها بعض النخيل وينبوع ماء وحوالي عشرة من السكان . الماء في كاف كبريتي ، ولكنها لا يطاق طعماً ...

وهناك بقايا حصن يسمى قصر الصعيدي ، وهو مشيد فوق جبل ارتفاعه ٤٠٠ قدم ، ويطل على البلدة . بالقرب من كاف ، توجد ملاحة كبيرة يجمع منها الأهالي الملح ، ويبيعونه للبدو المجاورين . وفي قصر الأزرق توجد آثار قديمة ، ولكنها في حالة أحسن من التي في كاف . وعندما قضينا الليل هناك كان مجموعة من الأعراب ذوي نظرات إجرامية ، وكانوا يحفظون هذا المكان للدروز . لقد عاملونا معاملة حسنة ، وعملوا ما في وسعهم لتكون إقامتنا مريحة ! "

الكــابتــن شكسبيـــر

شغــل الكـابتن " شكسبيـر " منصــب الوكيل البريطـاني السياســي بالكويـت سنــة ١٣٣٥ هـ / ١٩٠٩ م وظـل في منصبـه حتى مـوتـه الباكر مقتـولاً مع الجيش السعودي في معـركـة " جـــراب " سنــة ١٩١٥ م . كــان أول لقاء لـه بعبد العزيز في الكويت سنــة ١٩١٠ م ، وترك هذا اللقـاء انطباعاً عميقاً فـي الشـاب الإنجلـيزي وأخـذ يتزايـد في اللقـاءات اللاحقـة لـدرجــة أن شكسبير أصبح أكبـر مـدافع لحمـل صناع السياسـة البريطـانييـن لتقـديـم اعتـراف أكبـر بأحقيــة المطـالب السـعودية ٠٠ وكان في ذلك الوقت قد قام برحلتيـن إلي داخـل جـزيـرة العـرب جعلتـه أشهـر رائـد علمي غـربـي للجزيـرة العربيـة قبـل زمـن فيلبـي ٠

وقــد ظلـت حيـاة الرحالة والدبلومـاسـي الكابتـن " وليـم شكسبيـر " مجهولــة في تـاريخ بلادنـــا – زمنــاً طـويــلاً – لولا إشـارات غيـر مكتملــة وردت فـي بعض المصـادر ٠٠٠

والكـابتـن شكسبيـر ٠٠ ضـابط بريطـاني من مواليـد الهنـد سنــة ١٨٨٠ م ، التحــق بالكليـــة الحربيـــة فـــي سانـدرهـرســت ، عمـل فـي الجـيش البريطـاني فـي الهنـــد ، ثم الحق بالخدمات السياسية عـام ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ م ، أصبح مسـاعداً للمقيم السياسي البريطانــي العام في بيشــاور ، وقنصــلاً فـي بنـدر عبـاس ، ثم نقــل إلـي مسقـــط ، فـي عـام ١٣٢٤ هـ / ١٩٠٧ م أعيـد إلـي حيـدر أبــاد ، وفـي عـام ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٩م عيــن معتمـداً سياسياً لبريطـانيـا فـي الكويـت ، وظـل فـي هـذا المنصب لست سنوات متتاليــة ، تعـرف شكسبير على الملك عبد العزيز في الكويت سنــة ١٩١٠ م فكانت بدايـة صداقة شخصية بينهمـا فدعاه إلـي زيـارة الريــاض ٠٠

وقام بعدة زيارات إلي مناطق مختلفة في الجزيرة العربية ، في عام ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م قام برحلة طويلة استغرقت ثلاثة أشهر بدأها من الكويت وانتهت في مصر ، زار خلالها الرياض والتقط صوراً عديدة لها ، كما أن أول صورة معروفة للملك عبد العزيز كانت من تصويره ٠

والكابتن شكسبير هو واحد من بناة النفوذ البريطاني في شرقي جزيرة العرب وشمالها الشرقي . قبل الحرب العالمية الأولى . وصاحب الدور الكبير الذي لعبه على مستوى تركيز العلاقات السياسية بين بريطانيا وبعض شيوخ الخليج ٠

كانت للكابتن شكسبير اسهامات هائلة في عمل مسوحات جغرافية لأجزاء كانت مجهولة داخل الجزيرة العربية . وكان أكثر من غيره تعرفاً على أجزاء كثيرة من المناطق الوسطى ، إذ وضع بعض الخرائط الدقيقة عن " العارض " و " المحمل " و " الفرع " و " سدير " و " الزلفي " و " القصيم " و " الجوف " و " وادي السرحان " ، وسجل العديد من الملاحظات حول طبيعة الأرض وطبغرافية السكان والحيوانات البرية والحشرات والنباتات ، لقد كان دوره في تلك المجالات يفوق أدوار الكثيرين ممن سبقوه أو عاصروه أمثال (بلي) و (بلجريف) ، و (لورنس) و (فلبي) على الرغم من كثرة ما قيل عن أعمالهم وملاحظاتهم ٠

وتحتفظ بعض المكتبات والجمعيات المهتمة في بريطانيا بكثير مما تركه " شكسبير " من خرائط ومدونات تتعلق برحلاته ، مع بعض رسومات وصور فوتوغرافية للأشخاص الذين التقى بهم في رحلاته وجولاته ٠

وبعـد " الكابتن شكسبير " مـن الـرواد الـذيـن جابـوا معظـم أرجـاء الجزيـرة العربيـة مـن " عمـان " علـى السـاحل الشـرقي وحتـى الكويـت ، ومـن الكويـت إلـي الريـاض والعـارض ، ثـم القصـيم ، فـالجوف ، ففلسطيـن ، فسيناء ، ثـم السـويس ، حتـى عاد مرة أخرى إلي الكويت فيما بين عامي ١٣٢٩ هـ ، ١٣٣٥ هـ ، كـان فـي هذه الجـولات يمـارس مهمتـه الأسـاسيـة ويشـبع رغباتـه الشخصيـة كعـالم ورحالـة مغامـر ٠

ولقـد اثمـرت تلـك الجولات ثمرتهـا الكبـرى بلقـائـه – دون موعـد سابق أو تخطيط – بالملك عبد العزيز ، ففـي تلك الاثنـاء كانـت بريطانيـا عازفـة تمامـاً عن محاولـة أي تفاهـم مـع الأسـرة السـعودية لأسبـاب عـدة . فـي مقـدمتها مـا أشـاعه مستشـارو شـئون الجزيـرة مـن الأتـراك والسورييـن وغيـرهم عـن رغبـة البيـت السعودي في القبـض على زمـام الحكـم . وعـدم الـود الذي يكنـه لحليفـة بريطانيـا آنـذاك وهي " الدولـة التركيـة " وكانت بريطانيا تحتفظ في ذلك الوقت بـود شكلـي مع تركيا . لتنازلاتها الكبيرة عن كثير من الأجزاء بمنطقة الخليج . فـرأت بريطانيـا أن من مصلحتها عدم فتح أي حوار مع زعيم البيت السعودي ٠

وفـي الكويت التقى الملك عبد العـزيـز بالكابتن شكسبيـر . وتكـرر اللقـاء في أكثر من مناسبـة داخل الجزيرة . ونشـأت بينهما صداقة حميمـة باعثهـا التقارب في السن . والصفات المميزة المشتركة مثل الوضوح والصدق والنزوع إلـي الطمـوح ، كما كان الكابتن شكسبيـر يتقن اللغة العربية ويعشق حياة الصحـراء ٠

وقـد أورد الرجل فـي مذكراتـه وصفـاً رائعـاً للصحـراء . وإعجـابـاً بالغـاً بقـوة شخصية الملك عبد العزيز وذكائه وحنكتـه وطموحـه الكبيـر وتطلعـه لمستقبل أفضل لبلاده وشعبه ٠

ويبدو إن الإعجاب كان متبادلاً . فقد ذكر " ونستن " ، الناشر الذي عنى بكتاب شكسبير . إن عبد العزيز كان يرى في شكسبير مغامراً لا يقف أمام الصعاب ، ورجلاً لا يتراجع عن رأي اقتنع به مهما كانت الأسباب ٠

وذكر " كلاتين " – وهو من البارزين البريطانيين آنذاك – أنه حين زار الملك عبد العزيز بجدة بعد توحيد الجزيرة ، سأله عن أهم رجل عرفه في حياته ، فكان جواب الملك دون تردد : " أهم من التقيت به من الأوروبيين هو الكابتن شكسبير ٠

ولقد قابل شكسبير الكثيرين من الزعماء والشيوخ في شرقي الجزيرة العربية وغربها وتعامل معهم وخبرهم ، وقارن بينهم . إذ شغل منصب القنصل العام في مسقط عام ١٣٢٤ هـ ، فكان يتقن العربية بالإضافة إلي الفارسية والفرنسية وغيرها . وعرف كفارس نجيب يملك قدراً كبيراً من الثقة بنفسه . على خلاف غيره من موظفي الدولة البريطانية الذين كانوا يلتزمون تماماً بحرفية " الروتين " ولا يتجاوزونها ، بتلك الصفات والسمات لم يخف شكسبير مشاعره نحو الملك عبد العزيز الرجل البسيط . الذي يملك زاداً هائلاً وفريداً من الأمل والتطلع . متحدياً صحارى نجد بلهيبها ورمالها وقساوة ظروفها . بكل عزيمة الرجال وصمود الفرسان ٠

كما أعرب شكسبير في مذكراته عن فرط إعجابه بصدق عبد العزيز و وفوفه برجاله الشجعان في وجه خصومه . الذين كان الدعم العسكري يتدفق اليهم من الدولة التركية ٠

وقـد تـأكد شكسبير – وهو السياسي المحنك – إن ابن سعود هو وحده رجل الجزيرة بلا منازع . مهما حاولت بريطانيا ومهما رفضت الاعتراف به . أو الدخول معه في مباحثات سرية أو علنية ٠

نعـي شكسبير على دولته غفلتها وانسياقها للاوهام وآراء المستشارين . الذين ضللوها عن الشخصية الحقيقية للملك عبد العزيز ونصح شكسبير بريطانيا – دون أن يخشى عواقب ذلك – ألا تعرض عن الملك عبد العزيز ، وأن تتعامل مع المنطقة من خلاله فهو الذي يملك زمام أمورها والساعي لاستتباب أمنها وسلامها . إلا أن بريطانيا – بدلاً من الأخذ بنصيحته – وجهت نظره إلي أن هذا ليس من شأنه باعتباره وكيلاً سياسياً في الكويت . كما أنها لم تكلفه رسمياً بالبحث فيه ٠

وفي لقاء مع عبد العزيز بعد ذلك . عبر شكسبير عن أسفه ومرارته لأن الحكومة البريطانية كانت تحصر اهتمامها في الساحل فقط . وأنها لن تنازع (تركيا) في سياستها بوسط الجزيرة العربية ٠

وأضاف شكسبير قائلاً للملك عبد العزيز ، رغم ذلك استعنت بالمقيم السياسي البريطاني في (أبو شهر) المستر (برس كوكس) ليفهم حكومته الميزات التي يمكن أن تعود عليها بالاقتراب منكم . وقد ضم المستر برس كوكس صوته إلي صوتي . وطالب الحكومة بالاهتمام بتصاعد نفوذكم في المنطقة . غير أن ذلك كله لم يثن الحكومة عن قرارها ٠

في ذلك الوقت كان الملك عبد العزيز حريصاً على إقامة نوع من العلاقة مع دولة كبرى كبريطانيا ، فاعترافها به زعيماً يدعم مكانته في الجزيرة العربية ككيان سياسي مستقل ومهم ، كما أن قربه من بريطانيا يجعله ملماً بما في

نيتها من خطط تتصل بوضع الاحساء . وإذا ما كانت تخطط لافتراسها كما افترست غيرها من بلدان الساحل ، وبالتالي ماذا يمكن أن تفعل حين يصر على استعادة الاحساء ٠

لـــذا فلا عجب أن يقبل الملك عبد العزيز بفتح أي حوار مع بريطانيا ٠٠ وتشاء المصادفة أن يلتقي بشكسبير في الصحراء على بعد مسيرة ثلاثة أيام من بلـدة " المجمعـة " حين علم شكسبير من صديقه عبد الله بن عسكر – وهو من الشخصيات المرموقة في ذلك الوقت – بوجود عبد العزيز هناك ، فذهب إليه في مضارب خيامه وبين رجاله . وفي ذلك اللقاء كرر عبد العزيز استياءه وتذمره من وضع بريطانيا قائلاً لشكسبير : حتماً سيأتي اليوم الذي تضطر فيه حكومتكم إلي تبني موقفي ويومها نصحه شكسبير – كما ورد في مذكراته - بألا يفكر بعملية استعادة الاحساء ، باعتبار أن مخاطرها تفوق فوائدها المحتملة من وجهة نظره ٠

هنـا أدرك عبد العزيز أن في الأمر سراً ، يتعلق بكشف النوايا فتجاهل نصائح شكسبير وسارع بافتتاح الاحساء واستردادها وما حولها . وطرد الحامية التركية منها ، وجاء في وثائق بريطانيا أن ابن سعود نجح في ذلك بامكاناته وقدرات رجاله . دون أية مساعدة خارجية ٠

بعد ذلك انهالت تقارير بريطانيا منددة بشكسبير باعتبار أن لقاءاته العديدة بعبد العزيز تتفق والإشاعات التي نمت إلي علم الاتراك بأن دخوله الاحساء كان بمباركة بريطانيا ٠

وغضبت بريطانيا على شكسبير وحملته مسئوليات ذلك الخطأ بتجاهله تعليمات الحكومة لدعم تركيا في آسيا الصغرى . وهكذا تؤكد الوثائق البريطانية

ومذكرات شكسبير ، ان استعادة الاحساء كانت عملية ذاتية بجهود عبد العزيز ورجاله ولا فضل فيها لأيد خارجية ٠

وقبيل تلك الأثناء كتب " الكابتن شكسبير " في تقرير له
" أنني أعرف أن حكومة بريطانيا ملتزمة بحماية ودعم تركيا في آسيا الصغرى ٠٠ لكن لسوء الحظ فأن الحكومة التركية لا تدري شيئاً عن حقيقة وضعها في الجزيرة العربية ، فأنا لا أعتقد أن الاتراك قادرون على شيء فيها خلال عدة سنوات قادمة . وصحيح أن العرب أنفسهم بعيدون عن الاتحاد في هذا الوقت على الأقل . إلا أن الأمر يتعلق بوجود قائد تعلو هامته أي قائد سواه . وقد أخذ جميع الشيوخ يضعون فيه ثقتهم ويرجعون إليه في سائر شئونهم ، خاصة ما يتصل بعلاقتهم بالاتراك ٠٠ لذا أرى أنه إذا ركبت الحكومة التركية رأسها وقررت محاربة ابن سعود عملاً على ابعاده عن الأحساء ، فأن جميع القبائل سوف تتكاتف ضدها ، وستكون النتيجة طرد الاتراك من الحجاز واليمن عسير . وإقامة حكم مستقل في الجزيرة في هيئة " اتحاد كونفدرالي " يرأسه ابن سعود ٠

استمر شكسبير يعمل في لندن بكل همة ، ولم ير المسئولون في كتاباته وآرائه إلا حماساً هائلاً وتقدير متصاعداً لابن سعود ٠٠ إذ قال " إذا ترك الأمر لتركيا فأنها لن تستطيع ان تواجه بمفردها عزيمة وطموحات عبد العزيز ، ورغبته العارمة في توحيد الصف العربي القوي القادر على الوقوف في وجه الاطماع الخارجية ٠٠ وإنني اناشد بريطانيا بجدية لانقاذ مصالحها في المنطقة ، بالتعامل مع الجزيرة من خلال هذا الرجل دون سواه " ٠٠٠

ولقد أكد شكسبير في أقواله . أنه رجل يقدر الأمور ويضعها في ميزانها الصحيح . كما برهن على أن زاده من الفراسة ليس بقليل فعندما اظهر له

عبد العزيز ذات لقاء امتعاضه من تصرفات بريطانيا حياله وعدم اعترافها بزعامته . ما كان من شكسبير إلا أن طمأنه بأن الوقت سيكون في صالحه ، وأن اليوم الذي ينشد لابد آت ٠

ويشاء الله أن تتغير الأحوال فتنشب الحرب العالمية الأولى . وتدخل تركيا حلفاً مضاداً لبريطانيا فيستدعي " الكابتن شكسبير " على وجه السرعة بعد اختفائه عن الساحة مغضوباً عليه . ومتهماً بالتعاطف مع عبد العزيز . ومع العرب يستدعى ليكلف بمهمة الاتصال بعبد العزيز رغبة في تحسين العلاقات معه وذلك عام ١٣٣٥هـ ٠

اللقاء الأخير

كان الملك عبد العزيز يوشك أن يدخل معركة من معارك توحيد الجزيرة العربية ، وفي صحراء الجزيرة العربية عند ماء يعرف بـ " جراب " قابله شكسبير ونصحه الملك بتجنب هذه المعركة كي لا يصاب بأذى . غير أن شكسبير أصر على اقتحام المعركة . فليس من صفات الفرسان التراجع حين تقوم المعارك وهم يشهدونها ٠

واقتحم عبد العزيز وقومه لهيب النار المضطرم ، واشتدت المعركة وكان شكسبير مع القتلى من رجال عبد العزيز . دون أن يدعى أو يطلب منه المشاركة في الدخول !

مــن هــذا المنطلــق فإننــا نعتبــر الكابتــن شكسبيــر – رغــم الــدور المصلحي الذي لعبه لبلاده في المنطقــة – جـزءاً مهمـاً من تاريخ بلادنا . سـواء على المستوى السياسي أم على المستوى الوصفي الطبغرافي . باعتباره حالة علمية متميزة . ولما تركه من أثر ملموس يتصل اتصالاً وثيقاً بحياة السكان وصفاتهم . وطبيعة الأرض وحيواناتها ونباتاتها ٠

فــي مـذكـراتــه . دون شكسبير الكثير من المعلومات على امتداد رحلاته من الكويت إلي الجـوف ٠٠ تناول المساكن والخرائب المندثرة . كما تحري الدقة عن مسافات الطرق التي مر بها سلفه " بلجـريـف " الذي عبر الجزيرة في عهد الإمام فيصل بن تركي . قبيـل القرن الثالث عشر الهجري . وصحح كثيراً من المعلومات عن حقيقة ارتفاع (جبـل طـويـق) ، و وصـف القرى المجاورة لـه . ومسار مياه روافد ، وادي حنيفة وغيرها ٠

وتحـدث شكسبيـر عن بعض من التقى بهم فـي أسفـاره من المشـاهير وكبار البادية . وذكـر منهم عبد الله بن عسكر الذي التقى به في المجمعة ودلـه علـى مكان الملـك عبد العزيـز فـي البريـة آنذاك . كما التقـى بـأمير الغـاط الشيخ سعد السديري الذي وصفه بكرم الضيافة والغنى ٠

كــذلــك أحتـوت مذكرات شكسبير علـى خرائط مرسومة للقـرى التـي كـان يمـر بهـا . و وصـف دقيـق للأحـواض والآبــار القديمـة مما جعـل هـذه الخـرائط والمعلومات مرشداً لغيره ممن قدموا إلي المنطقة بعده ٠

قــال شكسبيــر فـي مـذكـراتــه . أنـه حين وصـل إلـي الريـاض شـاهد حركـة عمرانيـة نشطة . وعلم حينئذ أن هذه الحركـة بسبب إعـادة اعمـار قصـور الأسـرة السعودية التي امتـدت إليها يـد العبث إثر استيلاء ابن رشيد على المدينة ٠

وهنــا يمكن القول بـأن أهم مـا يميز (شكسبير) عن غيره من الرحالـة . أمثال " سادلبيـر " – أول انجليزي عبر الجزيرة العربية بعد سقوط الدولة السعودية الأولى عام ١٢٣٣ هـ - وبلجريف الذي عبرها عام ١٢٨٢ هـ ، وبيلي الذي عبرها بعدهما . وغيرهم ٠٠ هو ذلك الاهتمـام البـالغ من شكسبير بالطبغرافيـة السكانية والتعداد والوصف الدقيق لمظاهر الطبيعة الصحراوية وظواهرها ٠

أهتـم شكسبير كثيراً بأخبار الصحراء ، وبعادات وتقاليد أهلها فقد ذكر أنـه قضى ليلة كاملة مع أحد المسنين من آل سعـود يستمع لحديث عن العادات السائدة في منطقـة نجـد ٠

فيلبــي ٠٠ وشكسبيـر

فـي ملحق عن العلاقات البريطانية مع " ابن سعــود " تحدث " فيلبـي " عن عبد العزيز آل سعود – حاكم نجد – في ذلك الوقت ، وصراع الأسرة السعودية مع عدوها التاريخي ابن رشيد ، واستعادة الرياض عام ١٩٠٢ م واستعادة – بالتـالي – السيادة القديمـة لآل سعـود ، والتحـالف مـع شيخ الكويت ، والسياسـة التركيـة فـي المنطقة ٠٠ وكتب فيلبي مبرزاً دور " شكسبيـر " في السياسة البريطانية تجاه " أبن سعـود " وتطور هذا الدور إلي صداقة شخصية مثمرة ٠٠ حتى لقى مصرعه في حروب توحيد الدولــة ! ٠٠

كـان ابـن سعـود ، كما حددتـه تلـك السياسـة ، خارج حدود اهتمامنا بالرغم من أهميته المتزايدة . ولم يـول أهمية خاصة في تقاريرنا الرسمية قبل سنـة ١٩١١ م . ففي تلك السنة صادفه النقيب شكسبير ، الوكيل السياسي في الكويت ، عندما كان يتجول في الصحراء ، وضيفه ابن سعود ضيافـة كريمـة في مخيمه ، وعبر لـه عن رغبته في أن يدخل في علاقات معترف بها رسمياً مع بريطانيا العظمى ٠٠٠ وعند عودة النقيب شكسبير إلي إنجلترا في يونيو عام ١٩١٤ م (شعبان ١٣٣٢ هـ) من رحلة طويلة مخطط لها عبر الجزيـرة العربية ، زار خلالها الرياض ، حمل معه شهـادة بالسيادة الذاتية القوية ، التي أسستها شخصية ابن سعود القيادية المتوثبة . وكان واضحاً من تقارير أخرى أنه يعد ، خارج حدوده الخاصة ، رجل المستقبل . وقد أثبت أنه أكبر من ند لمحاولات الأتراك غير الفعالة لاستعادتهم الأحساء ٠٠٠ "

وخـلال لقـاءاتـه المتعـددة مع شكسبير ، كان الملك عبد العزيز حريصاً وفي وضوح على ضرورة عقد معاهدة رسمية مع بريطانيا ، تضمن استقلال بلاده التام ، جرى ذلك خلال المعارك ضد قوات ابن رشيد ٠٠ ويضيف فيلبي :

" وبنـاء على التقرير الذي أرسله النقيب شكسبير من مخيم ابن سعود خول السير بيرسي كوكس أن يمضي في المفاوضات لعمل معاهدة . لكن في الرابع والعشرين من ينـاير دارت معركـة بين ابن سعود وابن رشيد . وكان النقيب شكسبير قد حضرها مشاهداً فقط غير مسلح ، فقتل خلالها . ورواية ابن سعود لتلك المصيبة أنه قتل برصاصة من بندقية شمري ، لكن هذه الرواية ، على أية حال ، مبنية فقط على معلومات ثانوية المصدر . ذلك أن مما لا جدال فيه أن النقيب شكسبير كان في موضع من ميدان المعركة غير الموضع الذي كان فيه مضيفه . ومنذ ذلك الوقت ترددت عدة روايات مختلفة عما حدث ، بعضها أقل قيمة من الأخرى . لكن مقارنة الأدلة توضح أنه كان قد جرح أولاً في رجله وأعجز عن الحركة . وبعد ذلك بقليل

قتل برصاصة من فرسان ابن رشيد الذين سحقوا الجناح الذي كان فيه . وفي دوامة الفوضى التي حدثت يخشى أنه ترك أو نسي . لكن من المحتمل أن ظروف موته الدقيقة لن يتحقق منها أبداً ٠ وقد عبر ابن سعود عن أسفه العميق لفقد رجل يعده أخاً ، وهو يشير إليه دائماً بالتقدير والمودة " !

الزيارة الأولى للرياض :

خلال زيارته الأولى للرياض التي وصلها في يوم الاثنين الحادي عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٣٢ هـ / ٩ مارس ١٩١٤ م ٠٠ سجل شكسبير انطباعاته منذ نزوله بمخيم بجانب " حدائق الشمسية " ٠٠ استقبله رجال الملك ، وذهب شكسبير لزيارته " تحت ضوء القمر " عبر البوابة الشرقية " ثم مشينا في طريق واسع إلي القصر مجتازين كثيراً من الأطلال والمنازل الكبيرة و الجديدة المشيدة على طراز القصور ، تم الترحيب بي بأشد ما يمكن من حرارة في القاعة من قبل عبد العزيز ، وبعد ذلك دخلنا المكتب ٠٠ " وفي اليوم التالي ، وصل متأخراً إلي مجلس ابن سعود ، ثم ذهب لرؤية " الإمام عبد الرحمن " حيث لحق بهم عبد العزيز فيما بعد ٠٠٠ وفي الساعة الرابعة عصراً ، عاد إلي القصر وتحدث مرة أخرى مع عبد العزيز ، وأشار إلي قصور الرياض التي دمرها ابن رشيد ، وخطة إعادة بناء وتحديث هذه القصور ، وقال بأن ثلث البلدة تقريباً تشغله منازل عائلة آل سعود ٠

في عام ١٩١١ م ، قابل شكسبير الملك عبد العزيز في " تاج " ونتيجة لهذه الزيارة أصبح على معرفة تامة بتطلعات الأمير السياسية ، كما التقى أفراداً آخرين من أسرته ، وفي عام ١٩١٢ م ، قام برحلة قصيرة ، لكنه في العام التالي ، أبعد في رحلته حتى وصل " المجمعة " أكبر بلدان سدير ، ثم استدار شرقاً وذهب

إلي آبار الرمحية وحفر العتك ، خلال هذه الرحلة التقى " ابن سعود " قبل نزوله على الإحساء بوقت قصير ، قابل ابن سعود للمرة الرابعة في ديسمبر عام ١٩١٤ م في زيارة للعقير في مهمة سياسية ، وخلال ذلك العام استغل الأجازة المستحقة له لتحقيق طموحه الرئيسي في الترحال في جزيرة العرب ماراً بالدروب التي اجتازها الكثير من الرحالة السابقين ولزيارة الرياض في طريقه ٠

مغامرات الكابتن ليتشمان في جزيرة العرب

كـان البريطانيون متلهفون للحصول على معلومات مباشرة عن نتائج مهمـــة " رونكيير " فقرروا إرسال " جيرارد ليتشمان " ذو الخبـرة بالاسفار في الجزيرة العربية ، إلي بلاط ابن سعود ، إن لدى ليتشمان عبقرية في الرحلات لكن ليس في الكتابة عنها فيما بعد ، فهو رجل صموت ومستعد للمخاطرة بنفسه ، ويستطيع أن يظهر نفسه على أنه بدوي في الصحراء ويختفي لعدة أشهر ، لقد كـان يملك موهبة تحمل مشاق حياة الصحراء ، وكانت أسفاره أكثر من إقامته لجمع معلومات استخبارية عن القبائل ، أصبح ليتشمان أسطورة بين بدو شمال شرق الجزيرة العربية ٠

والحقيقـــة أن رحلتـه استغرقت اثنـان وخمسون يومـاً قطـع خلالها ١٣٨٠ ميـلاً يقع معظمها في مناطق لم تطـأها قدما أي أوروبي قبلـه ، وفي جميع مراحل رحلاته كان عربيـاً أبن عربي ، مع أنه كان أحياناً لا يفصح عن هويته ، ولكنه كان يعيش طيلة رحلته كرفاقه العرب تماماً ٠ ولقد عرف الإنجليز بأعينهم الثاقبة قيمة ليتشمان ، لذلك فقد كلفوه بتنفيذ بعض المهام ، فأرسلوه إلي منطقة ما بين النهرين حيث خدم هناك بإخلاص تفوق به على لورنس حتى إننا يمكن أن نقول : إنه قد وضع لورنس في الظل . فقد كان البدو يعرفونه وهو يعرفهم حق المعرفة ، ويعرف الأرض التي يعيشون عليها وكان يألفهم بشكل لم يتوصل إليه لورنس على الرغم من أن لورنس كان يرتدي تلك الملابس العربية الفضفاضة المكلفة وعلى الرغم من خنجره الارستقراطي المذهب ٠

كـان ليتشمان طويل القامة نحيف الوجه ضخم اليدين والقدمين ذا فم مطبق يدل على العناد . ولقد لعب ليتشمان دوره بإتقان وعناد بناءً على عقيدة تامة ، ولكن لسو حظه لم يحظ باهتمام المؤرخين كما حظى لورنس لذلك نسيه الناس ، ولو حدث أن اهتم به مؤرخ من المؤرخين لكان اسم ليتشمان بلاد العرب ، وليس لورنس بلاد العرب ، هو المعروف في هذه الأيام ، ولكن من المعروف أن ليتشمان لم يكن يهوى المظاهر ويفضل الأنطواء على ذاته !

في الثالث والعشرين من نيسان ١٩١٠ ، ومن بغداد ، كتب إلي والدته ، التي اعتاد أن يبعث إليها برسائله عن كل أعماله ومغامراته ، رسالة يقول فيها (أن الذي اتصـوره هو انك ستظنين بأنني قد اختفيت لغرض حسن . أنني سأسافر لمدة طويلة . ومع هذا احذرك بأنني لا استطيع أن انبئك عن المكان الذي اتجه إليه ٠ لقد قررت القيام بمحاولة لبلوغ الأجزاء المجهولة من أواسط الجزيرة العربية ٠ والاتراك يقاومون ، لسبب ما ، مثل هذه المطامح . وعلى هذا فأنا أواجه مشقة عظمى في انجاز هذه المحاولة) ٠

ومـع إن الرحلة التي اشار إليها في رسالته هذه لم تكن ، في هذه المناسبة ، ناجحة إلي الحد الذي يبلغ فيه الهدف الذي كان يتوخاه ، مع ذلك كانت تلك الرحلة من الرحلات ذات الأهمية البالغة التي ظفرت بما كانت تستحقه ٠

كـان يخطط لهذه الرحلة منذ زمن طويل وهو في طريقه إليها ، ويعد نفسه لتنفيذها ٠ ولذلك بذل جهداً بالغاً في تعلم اللغة العربية ، ثم نجح نجاحاً باهراً في امتحانه بتلك اللغة ، كما قيل له ذلك ٠

كـان قد قام قبلا برحلة تمهيدية عبر الجزيرة ليظفر بالتجربة ، كما درس بعض الأدبيات المحدودة عن الجزيرة العربية ، واطلع بعناية على ما دونه

الرحالون السابقون في الجزيرة العربية من تجارب لهم فيها . فهذا الجهد التمهيدي الوطيد يظهر بوضوح جدية نواياه ، مثلما يظهر العناية والصبر اللذين سلح نفسه بهما كيما يكون قادراً على مجابهة المشاق التي ستواجهه فيما بعد ٠

كـــان عقلـه الفعـال وطبيعتـه النموذجيـة لا تسـمحان لـه بتقليـل الاخطـار والمصاعب المادية التي لا بد لها أن تعترضه إذا ما قام برحلة من هذه الشاكلة . كذلك لا يسمح له تصميمه بأن يهمل أي حذر قد يعينه على إنجاز مشاريعه ٠

استقـل البـاخرة " كـولا " فـي " كراجـي " متوجهـاً إلـي الخلـيج العربـي فـي الثالث عشر من شهر تشرين الثاني . وبعد أن غادر " مسقط " ، التي التقى فيها بالملازم " فاول " ذلك الضابط القدير الذي أصبح فيما بعد أحد الخبراء بالشئون العربية ، تعرض إلي جو قاس جداً . ذلك أن عاصفة كاسحة جففت السفرة تبدو في كل شيء غير مريحة ، حيث غمرت أحدى الأمواج السفينة وقتلت أحد المسافرين ٠

وصـل ميناء " بو شهـر " في السادس عشر من تشرين التاني ، ثم حط رحاله بعد يومين في " المحمرة " ليستمتع بضيافة الملازم تي . أي . ولسن الذي أصبح فيما بعد " السر أرنولد ولسن " حاكم العراق الذي قدمه بدوره إلي رجل هاديء قوي العضل ، يبدو في مظهر الباحثين ممن يستطيع أن يتغلغل في أي مجتمع دون أن يحس به أحد سوى صحاب الملاحظة الدقيقة ، والذي كان يحتفظ بشخصية مرموقة لما يتحلى به من هدوء ورزانة ٠

كـان ذلك الرجل هو " سـون " الذي جاب انحاء كردستان متنكراً . وكان قبلاً موظفاً في أحد المصارف ثم أصبح مؤخراً قومياً وبطلاً ومضحياً في سبيل الواجب . جمعت هذه الصدفة لأول مرة ثلاثة من أشهر المشهورين ممن عرفاهم

في جيلنا ، ثلاثة رجال ممن خدموا إنجلترا أجل خدمة وبلا فضول ، ذلك لأن اياً منهم لم يكن معروفاً من ابناء وطنه ، أو لأن عملهم قد تنوسى بعض الوقت . كذلك زار شيخ " المحمرة " صديق بريطانيا الحميم ، مثلما كان عليه اسلافه من قبل ، وأعجب بحرسه المدججين بالسلام ، لكنه وجد العاصمة قليلة الأهمية . كانت اللغة العربية التي يتكلم بها سكان هذه الانحاء – كما قرر ذلك بصواب – رديئة لم يستطع فهمها وهذا ما اثار دهشته بعض الشيء .

وفي الليلة الثالثة لمكوثه استمتع هو وجماعة كبيرة بضيافة تاجر فرنسي كانت بين ضيوفه أربع نساء ذوات عفة مشكوك فيها أن قليلاً أم كثيراً ! . ولقد عاد في الساعة الثالثة صباحاً بعد ليلة معربدة . وفي الليلة التي تلتها وصل إلي البصرة فنزل في بيت المستر " ماكي " من موظفي " شركة ستريك " حيث مكث في البصرة حتى السادس والعشرين من تشرين الثاني . ثم واصل تعلمه اللغة العربية تحت إشراف رجل من بغداد . كانت الحروف التي يكتب بها جديدة عليه ولذلك وجد مشقة في تعلمها .

غادر لجمن البصرة في السادس والعشرين من تشرين الثاني إلي بغداد فوصلها في اليوم الثاني من كانون الأول .

كان المقيم البريطاني في بغداد المستر " لوريمر " صاحب كتاب " تقويم الخليج " – وهو من المؤلفات النموذجية عن الخليج العربي ، قد أصر على بقاء لجمن في دار المقيمية ، حيث جعله لوريمر وزوجته المرحة يشعر بمنتهى السعادة . وفي المقيمة التقى بالسر وليم ولكوكس المهندس الشهير الذي انجز في مصر عملاً ما يزال يقوم شاهداً على مهارته العجيبة ، والذي يعمل الآن لدى الحكومة التركية لوضع نظام واسع للري في بلاد الرافدين .

جـدد اتصالاته مع كثير من الاصدقاء وأوجد صلات أخرى مع أصدقاء جدد من الإنجليز والعرب والاتراك ، ذلك لأنه لم يكن موهوباً في إنشاء علاقات الصداقة كما هو معروف عنه حسب ، وانما لأنه لم يضع أية فرصة تمر دون التعرف إلي من يعتقد بأنه سيكون ذا نفع له ٠

لقـد احتفظ بخططه سراً دفيناً في صدره . ومع ذلك فقد ارتاب الاتراك ارتياباً شديداً فيه واكثروا من الشك في نواياه وقد استجوبوه عن أسباب قدومه إلي بغداد لكن أجوبته كانت واحدة على الدوام ، وكان يلقيها بابتسامة عجيبة غامضة " أن المناخ يلائمني جد الملائمة . أن بغداد والصحراء تدخلان السرور إلي نفسي كثيراً وأن في اصدقاء كثيرين انعم برفقتهم "

وبهذه الطريقة واصل اقتناصه السفران ، وتجواله على ظهور الخيل ، وأقام حفلاته الصاخبة وأظهر مسلكه الذي يدل على البراءة ٠ واستمر الاتراك في تعقبه ومراقبته عن كثب . ومع ذلك لم يستطيعوا أن يكتشفوا أي شيء مريب في تصرفاته . وكان الاجراء التالي الذي صمم على تنفيذه هو أن يهديء قلقهم حينما تتهيأ الفرصة امامه لمغادرة المدينة ٠ فلقد قام علانية بجولة مشاهدة واستطلاع ، واستطاع أن يظهر كل البراءة في حركاته ٠

وفي الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين من صباح اليوم الرابع عشر من ديسمبر استقل علانية عربة في طريقه إلي مدينة كربلاء ٠

ولقد أعلن عن مقدمه إلي المدينة إعلاناً تاماً فاستقبله القنصل البريطاني " محمد حسن " على بعد ثمانية أميال خارج المدينة . وكان

الطريـــق الذي سار فيه يعج بالزوار الذين اتخذوا سبيلهم إلـي مرقـد " الحسيـن " في حين كانت المدينة ذاتها تغص بالآخرين الـذين كـانوا يحتفلون بـالذكرى المؤسفة لمقتل ذلك الإمام ٠

والحقيقـة أن استقبال من لدن موظف بريطاني قد اضفى عليه أهمية استطاع أن يستغلها بحذر . فقد كان يود أن يخلق لنفسه مثل هذه الشهرة التـي يستطيع عن طريقها أن يلتقي بالكبار من القوم ، ومن هم أدنـى منهم ، بحيث تصبح معلوماتـه كاملة ، ويكون مجال مخادعته ضئيلاً ٠

كـان يعتزم أن يلتقـي بـأمراء الجزيـرة العربيـة كيمـا يحكم علـى قابليـاتهم ، ويحصل على المعلومات الصحيحـــة عنها وكانت الأنباء تجتاز الجزيرة العربيـة بطريقة سريعـــة سحرية مما الفه الشرق ، إذ يرويها الرجـال فـي مشـارب القهوة وهم يجتازونها الواحد بعد الآخر في متاهات الصحراء دون توقف ٠

ولقــد استفـاد من الـــدروس التي تعلمها الرحالون الـذين سبقوه . لكنـه مع ذلك صمـم على أن يغايـــر طرائقهم . ولذلـــك حل ، وهو فـي كربـــلاء ، في بيت " مجيد خـان " أحد الامراء الفرس . واستدعـــاء المتصرف " جلال بك " ومعه عقيد كردي هو أمر الحامية التركية هنـاك ٠ وخرج فـي نزهتـه للصيد علـى مسافة عشرة أميـال بامتداد طريق " النجـف " حيث شـاهد العديد من خيـام " بنـي حسن " تتناثر في السهول ، وأكثر من هذا أهمية علم منهم أنـه قبل شـهرين مضت كانت قبيلتا " شمر" و " عنزة " تخيمان بجوارهم وقد بلـغ مجمـوع خيامهمـا خمسـة عشر ألف خيمة ٠

كانت كل أمال قد تركزت في هدف واحد هو الوصول إلي " حائل " عاصمة " ابن الرشيد " التي لم يزرها احد من الأوربيين منذ أن زارها الرحالة الألماني " البارون فولده " سنة ١٨٩٣ ٠

والواقع أن المدونات المتوفرة تشير إلي أن عدد الأوروبيين الذين زاروا عاصمة شمر هذه كان قليلان وكانت مدينة الرياض من الأهداف الأخرى التي تطلع اليها أيضاً ٠

كانت الصعوبات القائمة في سبيل أعظم مما كان يتصوره فقد حدث أن ساد الصحراء كلها في وقت من الأوقات اضطراب واسع فراحت تنقلات القبائل البدوية تجري في كل مكان منها وحولت غاراتهم المتعاقبة تلك الصحراء إلي ميدان واسع للحرب ٠

وكان الصراع الطويل بين ابن الرشيد حاكم حائل وابن سعود حاكم نجد قد أخذ يتسم بالحدة والقسوة . وفي الوقت ذاته كان الشيخ مبارك بن الصباح حاكم الكويت حليفاً لابن الرشيد . لكنه ما لبث أن حمل السلاح إلي جانب ابن السعود بشكل واضح ٠

واستطاع فخذ " الروله " من قبيلة " عنزة " أن يدحر قوات ابن الرشيد في " الجوف " وأن يجرد هجوماً على عاصمة شمر ذاتها في نفس الوقت الذي كان فيه " فهد بك " رئيس عنزة ، وهي من أكبر القبائل البدوية ، يتحرك نحو الجنوب بقوة كبيرة لم يسبق لعنزة أن حشدت مثلها من قبل ، في حين كانت أفخاذ أخرى لقبائل عدة تشتبك فيما بينها في حروب أقل أهمية ٠

لقد القى بنفسه في مثل هذا الخضم من الاضطراب الذي قد يلف رفاقه في أية لحظة من اللحظات ٠ ولذلك كانت المسيرة نحو الجنوب محاطة بالحذر الشديد ، وكانت متواصلة ليل نهار . كان تقدم القوم في مسيراتهم بطيئاً ومريحاً يشوبه الهدوء وعدم الاضطراب . ولذلك كانوا يرقبون نتائج مغامرتهم تلك بفارق من رباطة الجأش وعدم المبالاة ٠

وكانت رباطة الجأش هذه نتيجة طبيعية لقرون من الاضطراب وأجيال من المعاناة . والواقع أن الحالة السائدة آنذاك كانت تعد من الأحوال المحتومة والقطعية ٠

لقد سجل الرحالون المشهورون في الجزيرة العربية من أمثال " دوتي " و " هوبر " و " الواموزيل " وغيرهم ممن سجلوا بإخلاص صعوبة العيش في الصحراء لقد قال هؤلاء بأن لا مجال للتغيير . وكانت القصص المصرية والسينما قد صورت اضطراب الصحراء أبلغ تصوير ٠ ولذلك تقبل العالم على نطاق متسع القول القائل أن شراسة قبائل الصحراء وتمردها حقيقة حتمية ، بل لقد اعتبر العالم مآسي حياة الصحراء تضيف المزيد من القصص الخيالية إلي المناطق المتوحشة المنعزلة التي ينفق فيها السكان ، الذي اضر بهم الفقر ، حياتهم ٠

ومع ذلك كانت تلك الاقاليم تدلل على اداتين من ادوات التغيير الذي كان يبدو أنه لن يقع ، وسلطت الأنظار بعين العطف والإنسانية على تلك الأماكن التي كان الظلام يسودها ، وحين كان ورفاقه يتحركون ببطء وحذر نحو المنطقة التي يحكمها ابن السعود ، كان هذا الرجل قد هيأ القدر ليغير عوائد البدو واحوالهم في الطرف الجنوبي من الجزيرة العربية ٠

وصـل في الثالث من فبراير ١٩١٠ إلي وادي الجراثيم على بعد مائة وسبعة أميال من المكان الذي بدأ حركته منه . وفي هذا الـوادي حقق لجمن أول اكتشـافاته الجغرافية وهو وادي " الخـر " المجري الجاف لنهر قديم طوله اربعمائة ميل كـان ينبع علـى مقربـة من واحـة الجوف ، ثم تنسـاب مياهه فـي ذلـك الـوادي لتصـل إلـي مسافة أربعة أو خمسة أميال من " شط العرب " ٠

كـانت أهميـة هذا الاكتشـاف ، ويعد أول أوربـي حققـه ، تتمثـل فـي أن هـذا الـوادي يؤلـف طريق مواصلات طبيعـي وسـهل عبـر الأجزاء الشـمالية مـن الجزيـرة العربيـة ، وفي استخراج الماء منه بيسر ٠

على أن لم يكـــن ، عندما بلـغ ذلك الـوادي ، ليقدر أهميـة اكتشـافه أو يعلـق عليه كثيراً ٠

فـي الخـامس من فبرايـر وصـل ورفاقـه نقطـة تبعد ثلاثـة وأربعين ميلاً إلـي الجنوب فخيموا على مقربة من " سميــت " في هذه النقطة كان " الصلبـة " ، إحدى فرق النـور الضـاربة في الصحـراء والتي لا يعرف أحد الأصل الـذي تحـدرت منـه ، يعلمون ، بوسائلهم الغريبة الخاصة ، كل ما كان يحدث في الصحـراء ٠

وقـد ذكر هؤلاء الصلبة للمستر ورفاقه أن ابن الرشيد قد اغـار علـى عنـزة مؤخراً وقتل احد شيوخها وغنم بعض جيادها ٠

اثــارت هذه الانباء شيئاً من الفزع في صفـوف اتبـاع " الشيخ ماجد " . فقد كـان متوقعـاً أن يتلاقـوا مـع قبيلـــة عنـزة المجـاورة فـي ايـة لحظـة ، وأن يتعرضـوا للانتقـام على يديها لقاء الضرر الذي اصابها ، ورغـم العـداء التقليـدي بـين القبيلتـين

فأن جماعة " ماجـد " كانوا قد اصطحبوا معهم بعض الجياد لرئيس عنزة " فهد بك الهذال " وراحوا يسيرون بحذر أكثر ، ويبعثون بكشافتهم في المقدمة ، وإلي اجنحة مسيرتهم . وكانت لهم اسباب وجيهة تدعوهم إلي الحذر الشديد لأن احتمال تعرضهم للاضطراب تعاظم بعد أن اصبحوا الآن يسيرون في منطقة تعود ، حسب قوانين الصحراء ، إلي عنــزة ٠

فــي عــدد مارس سنة ١٩١١ من " المجلة الجغرافية " التي تصدرها الجمعية الجغرافية الملكية في لندن ، وهي من أشهر المجلات العلمية في إنجلترا ، كتب مقالة عن مغامرته الأولى في أواسط جزيرة العرب قال فيها :

" كـل هذه البلاد تقع في ديرة قبيلة عنزة الكبرى ، أي أن لها حق الرعي والسقاية فيها . وعنزة هي العدو الموروث لقبيلة " شمر " ولكن عن طريق المجاملات الغريبة في الصحراء ثم التوصل إلي اتفاق مع شيخ فرع " العمارات " من " عنــزة " استطاعت به شمر ، التي كنت اسافر معها ، أن تحصل لها على اذن بالمرور في تلك الأراضي بسلام ، وأن يكون في مخيمها جملة من رجال عنزة انفسهم ٠

وفــي جــوار " الحــزول " علمنا من الصلبة نقلة الأخبار المشهورين في الصحراء ، أن عنزة كلها ، باستثناء فخذ واحد ، كانت تتحرك نحو الجنوب لمهاجمة " ابن الرشيــد " ٠

وقبــل ثلاثة أشهر كانت " الرولــة " أحد أفخاذ عنزة التي خيمت حول "الجوف " قد هاجمت تلك المدينة واستولت عليها وقتلت حاكم ابن الرشيد فيها ٠

وكـــان " ابــن سحيــلان " شـيخ الرولـة قد عـين ابنــه حاكمـاً فـي المدينـة ، وفرض الضرائب على السكان ٠

وكـانــت عنـزة الآن تأمل أن تعقب ذلك النجاح بالاستيلاء على حائـل ذاتهـا بمساعدة ابن سعود امير الرياض الذي قيـل أنـه هو الآخر كـان يتحـرك صـعداً من الجنوب ٠

وفي الثاني عشر من شباط وعند انبثـاق الفجر شاهدنا عنــزة تتحـرك سائـرة في خط مواز لمسيرتنا ٠

كـــان من ســوء الحظ أن " الرولـة " التي لم تكـن لتعرف شيئاً عن الانفـاق السابق ذكره بين شمــر " والعمــارات من عنــزة ، كانـت تسير في جنـاح مقـارب لطريقنا . وسرعان ما أطبق فرسانهم عند حلول الظـلام علـى " شمــر " فاستولوا على كل ما كان لديها من متاع وأبــل وخيم وغيرها بعد قتال شمال عدة أميــال من الأرض ٠

كـانـــت جمـاعتي الصـغيرة المؤلفـة مـن ثلاثـة أشـخاص ، قـد أعـدت العـدة للهــرب ، وتجنـــب " الـرولـــة " واذ ذاك اسـتطعنا أن ننجـــح فــي الوصــول إلـــي "العمارات " التي استقبلني شيخها " فهد بــك " بمنتهى الرقة ٠

ولــم يكن فهد نفسـه قـد سمــع بـأمـر الهجـوم علـى شمـر إلا بعد أن انتهى القتـال ٠ ولـذلـك اتخذ الخطوات اللازمـة في الحال لإعـادة المنهوبـات ، ونجح في رد قسم منها إلي أهلها ٠

يقــول فــي يومياتــه أنـه استطاع أن يتجنــب فرسـان " الرولـــة " الـذين هاجمـوا شمر على حين غرة ، بكلمـات قلائـل تحدث بها اليهم ، لكنـه لم يفصـح لنـا تلك الكلمات ولا الطريقة التي استطاع بها تجنب الخطــر ٠

غيــر أن تصرفه في تلك الحادثة وفي مناسبات أخرى غيرها ، لا يمكن أن يمر من دون تعليق ، لأنه يكشـف عن هدوئه وعن جراتـه وعن السرعة التـي كـان يتحرك بها دماغـه والقرارات التي كان يتخذها ٠

كــان الهجوم ، كما اشرنا إليـه ، مباغتــاً اتسـم بالشدة المفاجئـة ، والواقع أن صيحات " الرولـة " المفزعة ، وهدير سنابك الخيل ، وسعة طـاق النـار التـي كـان الفرسان المهاجمون يطلقونها من على ظهور خيولهم ، قد ضاعفت من الاضطراب الذي استولى على اتباع " ماجـد " التعساء ٠

وكمــا هو معتـاد بالنسبـة للبدو من العرب كانت النيران ضـارية . غيـر أن طلقـات قليلـة وجدت أهدافها مصادفــة فـي بعض الرجـال والخيـل والأبـل . كانـت الضوضـاء مرعبـة . وكانـت عين لجمن اليقظـة ترقب الحالـة بدقـة . وكانـت ثانيـة واحدة تكفيه لكي يقرر مجرى العمل الذي يريد الإقدام عليه ٠

أنــه لا يستطيـع أن يقـذف بنفسـه في هذه المعمعـة ، فهو أن فقد حياته يذهب ضحيـة حمقـاء ، وأن جرح أو أسر تكـون كل مخططاتـه قد انتهت وتبخـرت ، كـان علـى رأس الفصيل راكبـاً مع " مـاجـد " حين وقع الهجوم . وكان رفيقـاه " خضـر " و " زاوة " على مسافة منه ٠

ولقــد رأى أن فرسـان الرولــة سيهاجمون الجماعـة التـي كـان يسير معهـا ولذلك خرج عنها وتحرك بسرعة إلي جابن الفصيل بعيداً عن العـدو ونـادي رفيقيــه خضـر وزاوة بصـوت عـال أن يلحقـا بـه حـالاً ٠ وخـرج الثلاثــة مـن حلبــة القتـال يضربون على غير هدى فـي الصـحراء فبلغوا منخفضـاً عميقاً من الأرض أخفاهم عن أنظار القــوم ٠

وبعــد أن تشـــاوروا فيمـا بينهــم استقــر رأيهــم علــى أن يلتحقـوا بفخــذ العمــارات مـن عنــزة ، التـي لـم يعـودوا يشـاهدون أي أثـر لهـا الآن ، وأن يطلبـوا حماية الشيخ فهد بك . وعلى هذا الأساس وصل لجمـن ورفيقـاه إلي مخيم العمارات سلام ونزلوا ضيوفاً لـدى " صــلال " شيخ فخـذ " الفـدعــان " ، ولكن بعد أن فقد لجمن أحد ابلـه ، وكان يحمل الرز والطحين وادوات الطبخ وبندقية وذخيرتها . هنا اكتشف لجمن أن عنزة كانت تستعد للقيام بهجوم عام ضد " أبن الرشيد " ٠

فــي اليـوم التالي كان يفتش عن اصدقاء جدد له وقد سره إذ وجد مثل أولئك الأصدقاء وكان هؤلاء الأصدقاء هم " شعــلان " شيخ الرولة الذي قص عليـه كيف استمتع في السنة الماضية بالتعرف إلي الرحالة النمسوي " الواموسيل " الذي يمسيه العـرب " موسـى النمسـاوي " والـذي نشـرت الجمعيـة الجغرافيـة الأمريكيـة مـؤخراً رحلاتـه فـي شـمالي الجزيـرة العربيـة فـي ستة مجلـدات . وكـان هـذا الرحالـة يعمـل لحساب الأتراك والألمان ما يعمله لجمن الآن لحساب بلدنا ٠

ولـم يكـن مـوزل هـذا عسـكرياً وإنمـا كـان خبيـراً بالتجسس وقد أمضـى فـي عمله المضني هذا عشرين سنة ٠

أما فقد كان عسكرياً فظاً ، وكانت اعماله قد بدأت توا . ولذلك سيكون من المهم ، فيما بعد ، أن تقارن النتائج التي تم الحصول عليها في تجربة الحرب الحادة حين كان كل جانب فيها يسعى إلي أن يقلب الآخر في تحقيق سيطرته ونفوذه على القبائل العربية ٠

كان فهد بك واسمه الكامل " ابن مشحن بن هذال " يحظى باهتمام كبير من الاتراك ، ولذلك حاولوا بكل الوسائل والمغريات أن يصالحوه مع حليفهم " ابن الرشيد " بذات الطريقة التي حاولوها مع ابن السعود المنافس الأكبر لأبن الرشيد ٠

وكان فهد بك داهية ثاقب الفكر إلي درجة أنه لم يلزم نفسه الزاماً عميقاً بالاتراك ، بل استعمل الحذر في أن لا يغيظهم علانية ٠ وكانت نتيجة ذلك أن الاستقبال الذي استقبل لجمه به كان فاتراً وتلك حقيقة ظل لجمن يتذكرها مدة سبع سنوات ٠

ولما كان فهد بك قد لعب دوراً مهماً في تاريخ لجمن الأخير فأن إيراد وصف موجز لهذا الرئيس الشهير لن يكون في غير موضعه ، ويخبرنا أن فهد بك كان رجلاً مسناً يكاد يصبح اعمى . ومع أن باصرتاه كأنتا على تلك الشاكلة في ذلك الوقت ، فاتهما قد تحسنتا فيما بعد ، أو انهما قد اصيبتا بكثافة إلا أن بصره لم يتعبه في السنوات الأخيرة ٠ وكان بطيء الحركة تقيل الوزن حين يمشي على قدميه ، لكنه كان رجلاً صلباً وخبيراً بركوب الخيل بشكل عجيب . وكان صوته عميقاً وهادئاً وهو يلفظ عباراته الوفيرة ببطء . ورغم بدانته فقد كان الانفعال يبدو على وجهه حين ينفعل أو يتحرك ، وتكون ابتسامته العريضة لينه لطيفة . على انه حين يريد أن يظهر تذمره تبدو ملامح وجهه وقد غرقت في جمود لا حراك به قط ٠ وهو مثل بقية العرب مجاملته فخمة ، سخاؤه له صفته الخاصة المميزة ٠

لقد كان حاكماً بكل معنى الكلمة . وكانت سلطته في حدود مملكته الجافة غير المستقرة لا غبار عليها ، ومحبة رجاله له عميقة ٠ كان قد التقى لأول مرة مع فهد بك في خيمته الكبرى التي لم تكن لتضم جناحاً للنساء كما جرت العادة ، اذ فردت لهن خيمة منفصلة ٠

وكان يحيط به نفر من شمر الذين نهبت أموالهم ، ومن بينهم الشيخ ماجد ، وهم يحاورونه في ضرورة رد تلك الأموال لأن " الهجوم كان غادراً ضدهم ، ذلك انهم كانوا قد دخلوا اراضي عنزة ليسلموا إلي فهد بك خيله التي جلبوها معهم ، وعلى هذا فهم يعتبرون ضيوفه "

لم يكن فهد ذا مزاج حسن آنذاك . وكان ابن اخيه أكثر لطفاً من عمه وهناك شيخ آخر هو " فهد بن دغيم " أعجب به لجمن اعجاباً شديداً لأنه كان بدوياً أصيلاً إذ كان يفضل المادة القاسية والأصيلة على المادة الهشة التي يصقلها الاتصال الصريح مع المدنية ٠

ومن " ليفية " واصلت عنزة مسيرتها . وفي اليوم التالي وهو الرابع عشر من فبراير هوجم مخيم " المعدان " وتم نهبه ، غير أن عنزه فقدت قتيلين في تلك العملية ومن ثم اعادت المنهوبات وهكذا لم تظفر ، حسب بأيه بشيء !

والشيء المؤلم أن لم يبين لنا سبب إعادة المنهوبات في تلك المناسبة ، ذلك لأن القوانين التي تحكم حروب الصحراء غريبة ومهمة ٠

لقد كان القتال اليائس من أجل الوجود في تلك الأرض القاسية خلال القرون الماضية ، قد فرض قيوداً على تصرفات الرجال ، و وضع حدوداً بالنسبة

للمعاملات الفظة . ففي كثير من الحالات الخاصة كان الرجل يعامل معاملة الضيف المعزز وتظل أمواله مصونة أوانه ، حسب منطوق العدالة الواضح ، يفقد حياته وأمواله أيضاً ٠

أنــه لمنظر مثير أن ترى ذلك الغيض من المحاربين العرب وهم يتحركون ببطء وجلالة إلي أمام ٠ وحين كان يحدق باندهاش ، في ذلك الطوفان البشري كان يخيل إليه أن الصحراء لن تضم مثل هذه القوة العنيفة المتحركة كالنهر الهادر . ومع ذلك فقد تبعثرت تلك القوة خلال ايام وتناثرت اشبه بأوراق الشجر أمام العاصفة ٠

ولنتــرك الأمر إلي نفسه ليحدثنا هو عن تلك المفارقة الغريبة ٠ " كانت عنزة ، وهي أكبر قبيلة في شبه الجزيرة العربية ، قد بلغت ذروة قوتها آنذاك . فقد راح شيوخها يذكرون لي تكراراً بأنهم لا يتذكرون مرة سابقة سارت فيها عنزة إلي الغزو بمثل ذلك العدد ٠

وإذ كنت اتطلع من احدى الروابي وجدت الصحراء على امتداد البصر ، وهي تموج بجماهير متحركة من الأعراب وكل فريق منهم يسلك طريقه الخاص ٠ وكقاعدة عامة كان الخيالة يسيرون في المقدمة ، ومن خلفهم راكبو الأبل " الذلول" وفي الوسط ، وعلى ذلول منتخب ، كان " مركاب الرولة " ، ويتألف هذا " المركاب " من هودج مغطى بريش النعام الأسود تستقله فتاة من عائلة الشيخ في المعركة لتشجع المحاربين وتحثهم على البذل في القتال ٠

وكـان " المركـاب " فـي الايـام السـالفة مـن المنـاظر المألوفـة لـدى البـدو فـي الحـروب . أمـا الآن فـأن " الرولـة " هـي القبيلـة الوحيـدة التـي ظلـت تحـتفظ بهـذا المركاب ٠

وبعـد القتال الذي وقع مع شمر بثلاثة أيام وصلنا إلي طريق الحج المعروف باسم " درب زبيدة " عند نقطـة " الجميمـة " وهذا الطريق الذي يمتد من " مشـهد علي " عبر جبل " شمر " إلي " المدينة " هو الطريق الذي كان الحجاج من إيران وبغداد يستعملونه دائماً . وفي هذا الطريـق سـار كل من " بلنـت " و " هوبر " من حايل إلي " مشهد علي " ٠

وقـد أخذ هذا الطريق اسمه من اسم زبيدة زوجـة الخليفة هارون الرشيد الشهيرة التي اقامت فيه مخازن للمياه تصرف باسم " البركات " ومنازل للاستراحة على مسافات متقطعة بامتداده ، وذلك لغرض توفير الراحة للحجاج ٠

ولقـد خـربـت تلك البرك والمنازل في أوقات مختلفة علـى ايدي الغزاة ولا سيما الوهابيين . ولـذلك لـم تبق منهـا سوى بركـة واحدة فـي حالـة جيدة وتقع هذه البركة في الجميمة ٠

وقـد شيدت هذه البركـة بـالحجر المسلح فـي منخفض مـن الأرض ويتسرب الماء إليها من كل الجوانب وتبلغ مساحتها تسعين قدماً وعمقها عشرين قدماً وفيها درجات تهبط إلي القمر وفتحات مدورة لسقي الدواب ٠

حيـن بلغت عنزة هذه البركـة كـان العطش الشديد قد استبد بها لعدة أيام ، وخشـيت أن لا يكفيهـا مـا كانـت تحملـه مـن مـاء ، ولا سـيما بعـد أن سـمح لأفـراد

المعسكر أن يشربوا ما كان لديهم منه ، ولذلك صدرت الأوامر بأن يقصر استعمال الماء للرجال ولإبل المقدمة . أما الابل التي تحمل المتاع فلن تروى ٠

وما كان أحد ليأبه بمثل هذه الأوامر كثيراً ولذلك كانت أبل المتاع العطشى تساق إلي الماء لترتوي منه وكان المعتدون يعاملون معاملة مثالية ٠ فقد كان أولاد الشيخ وخدمه يمتطون جيادهم ، ويطلقون النار بين الجموع ، ويلعبون بسيوفهم في الوقت الذي يكون فيه اصحاب الابل منهمكين في جر ابلهم وهي غير مصابة إلي الماء لاروائها ٠

وفي الجميمة وصلت الانباء تقول أن ابن الرشيد كان على بعد يومين عن حائل ولذلك نصبت عنزة خيامها في خطوط متلاصقة محبوكة بدلاً من اقامتها مبعثرة كما اعتاد البدو ذلك ٠ وفي المنخفض الذي تقع فيه بركة الجميمة عددت من دون تدقيق حوالي ثلاثة الاف وخمسمائة بيت في جزء صغير من الأرض وكانت مفارز من القبائل العربية في وادي الفرات تصل يومياً إلي هذا المكان لتنضم إلي هذه الحركة املاً في السلب وهو الشيء الذي يجذب انظار الأعراب حتماً ٠

ولم يكن رجال القبائل هؤلاء كلهم من البدو الاقحاح لكنهم كانوا افضل تسلحاً ، وكان معظمهم يحلم طرازاً جيداً من بنادق " مارتيني " ومع انهم كانوا يتظاهرون بذلك السلاح إلا انهم لم يستخدموه . وهذه البنادق ذات قيمة كبرى في القتال ذلك لأن الرجال أذا كانوا لا يمتطون الأبل أو الجياد يصعب عليهم أن يهربوا بيسر ، بينما اعتاد البدوي أن يفعل ذلك حالما يظهر له أن الموقف قد أصبح ضده ٠

وهــؤلاء الأعراب هم من قبيلـة " المعدان " وهم يختلفون عن البدو لأنهم يملكـون المواشي والدواب ويزرعون في المواسـم قدراً من الأراضـي التي تقع على ضفاف الانهار ٠

وكلمـا وصلت جماعة من هؤلاء المعدان أعلن عن ذلك باطلاق النار الكثيفة حيث يقوم كل فريق قـادم منهــم بتقديم رقصـاته فـي المعسكر ، والقفز أمـام خيمـة الشيخ ، وهم يصيحون صيحات القتال ، ويطلقون نيران بنادقهم في الهواء ، بغض النظر عمن تصيبه تلك الاطلاقات ٠

وقـد برهن هذا الحال على تفكك عنزة . لأنه فـي الايـام القلائـل التـي اعقبت الوصول إلي الجميمة كان اطلاق النـار الكثيـف يسمع عن بعد وقد أوقف الاطـلاق انتظاراً لوصول نجدات جديدة كان يتوقع وصولها ٠

على أن هذا النجدات المتوقعة كانت في الواقع تتمثـل في ابـن الرشيد والقوة المتحركة معه ٠ فقد كان كل واحد من افراد تلك القوة يركب " ذلـولا " ويحمل معه " رديفـاً " على ذلك الذلول ٠

لقــد أقام ابن الرشيد بمسيرة شاقة فأذهل معسكر عنزة بوصـوله إليـه ٠ ولـم يكن لدى رجال عنزة من وقت سوى أن يسوقوا ابلهم ويتجمعوا قبالة المعسكر وفـي اعقابهم جماهير من نساء واطفال يسيرون مشياً على الاقدام فـي الوقت الـذي وقـف فيه ابن الرشيد عند الجانب الآخر ٠

واندفع ابن الرشيد نحو معسكر عنزة لكنه لم يتعقب رجالهـا لأن الوقت كـان آنـذاك ظلامـاً دامسـاً ، وفـي صـباح اليـوم التـالي نهبت شـمر معسـكر عنـزة ٠ وبعـد

مرور فترة قصيرة لم تبق سوى الحيوانات النافقة لتدلل على المكان الذي كانت تلك القوة الهائلة قد نصبت خيامها فيه ٠

وكمـــا جرت عادة الاعراب في القتال ، لم يسمح ابن الرشيد لأحد من رجاله ان يمسوا خيام شيخي عنزة بسوء ، إذ بعث قائد ابن الرشيد بعد المعركة إلي شيخ عنزة رسالة يأسف فيها لأنه لم تكن لديه الفرصة الكافية لتقديم احتراماته له !

ولـم تكـن الخسـائر ، كمـا هو معتـاد فـي مثـل هـذه المقاتـل ، كبيـرة لأي مـن الطرفين فقد كان بين القتلى شاب من شمر ما أن سمع بأن عمـه قد قتـل حتـى اطلـق النار على نفسه ومات منتحراً ٠

لقـــد تـأثرت كثيـراً حـين وجـدت عـدداً مـن نسـاء عنـزة بعـد أن هـربن مـن المعسكر يلقين إلي بما كن يحملنه من حلى قضية للحفاظ عليها دون أن يتقن في هذا بأحد من ابناء جلدتهن ٠

فـــي هـذه اللحظـة اسـتطاع أول شـمري يـدخل معسـكر عنـزة ان يحمينـي وذلولـــي ، واذ ذاك عدت مع " الغـزو " إلـي معسكر ابـن الرشيد الـذي كـان قائمـاً آنذاك في موقع " الزبالة " على طريق زبيدة ٠

قـــد يكون العجب اصاب اذ وجد النسوة يسلمنه حلين . ذلك أن عقله الساذج وبساطته قد حالا بينه وبين التأكد من اهمية عمل كـان القوم يتحدثون عنـه فيمـا بعد بدهشة في انحاء القطر ٠ فهذه يومياته تضيف شيئاً ذا اهميـة إلـي الحكايـة ، لكن مـا أفاد به لجمن بايجاز وهدوء بعد سنوات ونحن جلوس في ظلال الشجار النخيـــــل " بشفـائـه " قـد اضاف إلي معلوماتنا ما كان ينقصها ٠

لقـد استطاع في تلك اللحظة ، وقد استقر ذقنـه علـى ركبتـه الباديـة العظـام ، وعيناه تحدقان بحلم إلي الجنوب عبر سهول فارغة من الصحراء بعيداً امامه والتـي اجتازها في رحلة لا تنسى ، استطاع أن يحيا ذلك المنظر من جديد ، وان يستعيد ذكرى تلك اللحظات الحامية المرعبة التي ظل خلالها ضيفاً في يد القدر ٠

فـي اللحظة التي اعطى فيها الإنذار بوقوع ذلك الهجوم . كـان لجمن يجلس في خيمة فهد بك الكبرى ، وكان ساقي القهوة يقدم للقوم اقداح ذلك السـائل الأسود في الوقت الذي كـان فهد بك فيه متكأ علـى راحلـة أحد الجمـال ، وقد وضـع سيفه المعقوف على ركبته ، وتحلق ضيوفه من حوله وهم يصغون إلـي رجل كـان يقص عليهم احدى وقائع الصحراء ٠

وعلـى حين غـــرة سمع صوت اطـلاق النـار من بعيد فتوقف القـاص عن الكلام ، وانصت الجميع وهم يظنون أن فريقاً آخر من قبيلـة المعدان قد وصل إلـي المخيم ، واذ ذاك استأنف القـاص سرد قصته ليقاطعه أحد البدو الذي اندفع إلـي الخيمة من دون تحية ، وراح يتكلم ، وهو مضطرب ، كلاماً لم يفهمه أحد ، ويلقي بكلماته الصادرة وهو يسير عبر باب الخيمة إلي ناحية الجنوب ٠

ونهض الجميع في اضطراب وتلقفوا اسلحتهم واتجهوا كالسيل نحو العراء ، في حين وقف لجمن عندمدخل الخيمة وهو يحدق فـي الاتجـاه الذي اشـار المبعوث الخائف اليه ٠ كانت سحابة كثيفة من الغبار تلف الافق ٠ وفـي غمرة هذا الضباب المتصاعــد من الرمـال الثـائرة والمعسكر كـان السهل يلتمع بجماعـات من فرسـان عنـزة وهـــم يدفعـــون بخيـولهم إلـي الامـام ويسـوقون الابـل التـي كانـت ترعـى بصيحات مرعبـــة ٠

ورفع فرأى حشوداً كثيفة من حشودهم يتقدمون مهطعين ، وتشير فرقعة نيران بنادقهم وازيز الرصاص المنطلق منها إلي ما كان يظهرونه من عداء . وسادت المخيم ذاته جلبة واضطراب لا حد لهما . وأسرع رفيقاه إليه واخذا يحثانه على الهرب لأن حياته لم تعد تساوي شروى نقير ، لكنه رفض ما أراداه وامرهما بأن يوسقا جمله وجملهما بأسرع ما يمكن ، ويتجها بها إلي ناحية الشيخ ماجد الذي كانت ابله تسير في آخر الأبل المقبلة على مخيم عنزة ٠

وأسرع الثلاثة يوسقون جمالهم بسرعة جنونية ، حتى اذا انتهوا من ذلك دفع لجمن بالجمال الثلاثة إلي خيمة ماجد على عجل ، ليعود هو نفسه إلي خيمة فهد بك فيقف فيها هادئاً وهو يراقب ذلك المشهد الفريد بكل هدوء وسط ذلك السيل الجارف من البشر المتحرك باندفاع ٠

ظهر في البداية أن العدو المهاجم لابد وأن يندفع إلي وسط مخيم عنزة التي استبد بها الهلع المفاجيء ٠

كانت النسوة والاطفال ، وقد سادهم الفزع الشديد . يتشبثون بكل ما هو قريب اليهم من متاع ، ويلقون به على ظهر كل جمل يقترب منهم ، كانت صرخاتهم المجلجلة تضيع في غمرة صيحات العدو الذي كان يقترب من المخيم بسرعة ، وكان ازيز الرصاص يضاعف من حدة تلك الاصوات المنطلقة . وكانت مهمة كل فرد ، ذكر اً أم انثى ، هو أن يهرب من المخيم ٠

أما هو فقد بقى واقفاً يرقب بهدوء كل ما كان يحدث . لقد وجه أول الأمر انظاره إلي شمر وهي تتقدم ، ثم ادار بصره في عنزة وهي تهرب ، وراح يقيس

المسافة بينهما وهو يسأل نفسه من سيكون الفائز في ذلك السباق الجنوني : أهي عنزة التي تريد النجاة ، أم شمر التي تريد الأخذ بخناق عدوتها التقليدية !

لقد سجل هذه اللحظة الرهيبة في يومياته فقال " لقد ظهر وكان النصر حليف شمر لكنني لم أحسن تقدير السرعة التي كانت عنزة تستطيع اظهارها " . وحتى في مثل هذه اللحظة المحفوفة بالمخاطر لم يفقد هوايته اذ استغل الفرصة والتقط عدداً من الصور للهجوم الذي كانت شمر تقوم به آنذاك على عنزة .

ومع هذا كان عقله يتحرك .. فقبل ايام قلائل اضطر إلي أن يهرب من مشهد مماثل للمشهد الحالي أما في هذه المرة فأنه ظل هادئاً خلف وابل من الرصاص ينتظر وصول هذا الحشد الهائل من البدو .

أنه يقدم الآن على مخاطر مرعبة لا تتمثل في كثرة الرصاص المنهمر ، بل في أولئك الرجال المخبولين الذين اقبلوا بقصد المطاردة والتطلع إلي النهب ، لكنه كان يدرك أن ابن الرشيد هو الذي كان يقود ذلك الهجوم وانه يعتبر ذلك فرصة مواتية له تعينه على الالتقاء بابن الرشيد والظفر منه بإذن في السفر إلي حائل .

وحين سئل عما إذا لم يقدر مخاطر مغامرته تلك أجاب معتذراً " حسناً " ! لو انني بقيت مع عنزة لكانت كل مطامحي في الوصول إلي حائل قد ذهبت سدى

في غمرة هذا الفوران الكاسح المخيف ظل لجمن ساكناً لوحده دون أن يتأثر بالهلع الشامل الذي كان يسود المكان ولم يتخذ أية استعدادات للهرب ، وحين مرت النساء به وجده في هدوئه خير وسلة للحفاظ على معظم ممتلكاتهن الثمينة ، فقد القين بين يديه غير المرغوبتين بحليهن الرخيصة ، وذلك تقدير غريب

لمرؤءتـه ، ورغم أنـه لـم يمكث معهن سوى ايام قلائل ، ولهدوئـه وشـجاعته التـي أوحت اليهن بالثقة في قدرتـه علـى الخلاص من الأذى والحفاظ علـى مخشلاتهن البسيطه والغالية في نظرهن ٠

لـم تـتم تنحيـة عنـزة عـن المعسكر الا بمشـقة حينمـا انـدفعت شـمر نحـون كالاعصـار ، فقد اكتسحت المعسكر بفرسـانها المنـدفعين فـي المقدمـة ومـن خلفهـم راكبو الابل وهم يقتلعون خيامه فـي طـريقهم ويواصـلون تعقب الفـارين مـن عنـزة ، وحين كلت شمر من المطاردة ، ونفذ صبرها من تفاهة المغنم الذي كانت تنتظره ، عادت لتجد نفسها أمام عربدة نهم مريعة شارك فيها الشيخ ماجد ورجاله ٠

وحـين انـدفع الرجـال المهتـاجون نحـو خيمـة فهد بـك صـعقوا إذ رأوا لجمـن جالساً وحده فيها وهو يدون يومياته بكل هدوء . وعقلت الدهشة ألسنتهم لدى رؤيتـه على حاله تلك فوقفوا أمامه لحظة ساكنين بدون حراك ٠

كانت تلك اللحظة هي التي أنقذته من الخطر المحدق بـه لأنهـا منحتـه الوقت لأن يهتف بهم صائحاً بقوة أن يقفوا بعيداً عن بـاب الخيمـة ليستطيع أن يرى كيف يكتب . لقد قال لهم ذلك بصوت الآمر وإذ ذاك اذعن أولئك الرجـال لأوامره تلقائياً وهم الذين اعتادوا ان يفتكوا بأي شخص يعترض سبيلهم ٠

فـي هـذه اللحظة ظفرت شجاعته بالمكافأة التي تستحقها ذلك لأن أحد الشبان من رجال ماجد ممن ساقته الصدفة إلـي دخـول الخيمـة آنذاك ، قد أوضـح لأولئك الرجال هوية هذا الرجل بكل تأكيد وإذ ذاك زال الخطر عنـه نهائيـاً ٠ وحـين عـادت شمر من غارتها في اليوم التالي صحبها في مسيرتها بينمـا لـم يعد أي أثـر لمعسكر عنزة الذي كان يتألف من أكثر من ألف خيمة ٠

عــادت شمر ، بعد الغزو ظافرة لتواصل مسيرتها في ذات الطريق الذي كانت تسير فيه ، وهو " درب زبيدة " ، لتتجه نحو منطقة " زبالة " على بعد اثني عشر ميلاً حيث اقام ابن الرشيد مخيمه ٠

ولقـــد أمضـــى تلـــك الليلـــة بكاملهـــا وهـــو يضـــمد جـــراح المصـــابين مـــن المحاربيـــن ، ولم يكن ليهتم براحته هو قدر اهتمامه بهذا العمل المنطوي على الرحمة والشفقة ، واكماله تضميد الجروح ، وتأمين ما كانت تحتاج إليه خيلة وبراذينه ٠ فعلى ضوء مصباحين نفطيين كليلين ، كان يعالج – حسب معلوماته الجراحية – ما أصيب به الرجال من مختلف رصاص البنادق ، أو ضربات السيوف ، فاستطاع أن يخيط كتف رجل خلعته ضربة سيف حاد ، وأن يجبر ذراعين كسرتا تحطمتا بجبارات بسيطة ٠

كـــان كل ما حواليه يذكي نيران المعسكر الذي كان يضم ألف خيمة من البدو الذين استضافهم ، وكانت الحماسة لا تزال حية حتى تلك اللحظة ، وعلى استعداد لأن تنطلق لدى أقل اثارة ، فقد كان الجميع متفقين على العمل الذي كان يمارسه ، وهو إنقاذ ذلك الخط الطويل من الرجال الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر أن يخفف ذلك الغريب آلامهم بمعالجته جروحهم ٠

فـــي اليوم التالي ، وهو الثامن من فبراير ، ذهب يقدم احتراماته إلي زعيم شمر كلها ، وكان مخيمه يتألف في معظمه من خيام بيض ، وهو ما اعتاد أهل حايل استعماله من الخيام واستقبله أحد حرس الزعيم ، واسمه ، عبدول بن مبارك بن فريك ، وكان رجلاً بديعاً يرتدي عباءة موشاة بالذهب ، وقد ظل يسقي لجمن أقداح القهوة إلي أن يغدو الأمير مستعداً للقائه ، ومن ثم ادخل – بعد قليل – إلي خيمة الزعيم الواسعة ٠ ويصف ذلك اللقاء فيما نشره عن مغامرته الأخرى في " المجلة الجغرافية " في هذه الفقرات المستخلصة منه فيقول " أن الأمير الحالي سعود بن

الرشيد ، وهو صبي في الثانية عشرة من عمره ، وابوه هو عبد العزيز الرشيد الذي قتل في معركة وقعت سنة ١٩٠٦ وقد خلفه على الامارة ولده الأكبر " متعب " ولكن هذا لقي مصرعه ، دون توقيت ، على يد ابن عمه " سلطان بن حمود الرشيد ولم يلبث " سلطان " أن مات هو الآخر وهكذا لم يبق من أفراد تلك العائلة سوى الأمير الحالي الذي كان قد أخذ إلي " المدينة " ٠٠ ذلك أن " سلطان بن حمود " ما فتيء بعد فترة قصيرة أن قتل بيه أخيه " سعود بن حمود " وهذا قد فتك به عمه بعد ذلك ، وجاء بالأمير الحالي " سعـود " من المدينة وكان هذا الحادث الأخير قد وقع في شتاء ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ م ٠

حيث بلغت مخيم شمر ذهبت لمقابلة الأمير الذي كان يجلس في خيمة واسعة ، وقد جلس إلي جانبه الوصي عليه " زامل بن سبهان " ٠ كان سعود فتى جميلاً ذا طلعة بهية محبوبة جداً . وهو فارس مار ، وركوب الخيل هي المتعة المفضلة لديه . ونظراً لحداثة سنه فلم يكن يحب الجلوس كثيراً في المجلس حيث تطرح قضايا القتال على بساط البحث طويلاً . وفي بعض الأحايين يظهر عليه مزاج من العنف يبدو أنه قد ورثه ، مع صفات أخرى من أبيه عبد العزيز ٠

أما الوصي زامل بن سبهان فهو في الرابعة والثلاثين من عمره وهو رغم شبابه أقوى رجل عرفته امارة ابن الرشيد لسنوات عديدة ، ذلك أنه كان المسئول ، إلي حد كبير ، عن التغيير الهائل الذي يجري آنذاك في الحكم القائم في أواسط الجزيرة العربية ، وفي صفة ذلك الحكم ٠

ففي الوقت الحالي يشيع استعمال التبغ في كل مكان ، ويدخنه الأفراد حتى في ديوان الأمير . وفي إحدى المناسبات أشعل زامل لنفسه سيجارة أمامي في خيمته الخاصة ، كما لعب في إحدى المرات لعبة الورق التركية ٠

كذلــك لـم يكـن هـؤلاء البـدو يتمسـكون فـي ملبسـهم بالبسـاطة التـي يمليهـا المذهب الوهابي ، وانما كانوا يرتدون اردبة موشاة بالذهب ومنسوجة من الحريـر ، كذلك طرأ تغيير أيضاً على علاقات أمارة حائل بـالقوة المحيطـة بهـا . ذلـك أن عدم الاهتمام قديماً بالدولة العثمانيـة قد أفسح المجـال أمـام مشـاعر الاخـلاص المكبوتـة ، والحفاظ على الاتصال بالباب العالي بصفة مطردة ٠

فحيثمـا كـان يرد ذكـر " البـاب العـالي " فـي الحـديث كـان " زامــل " علـى الـدوام يطلـق عليـه اسـم " دولتنـا " أي حكومتنـا ، وكمـا هـو الأمـر دومـاً بالنسـبة للجزيرة العربية كانت علاقات ابن الرشيد بطوائف البدو الكبرى تتغير باستمرار ٠

ويبـدو في الوقت الحاضـر أن " العتيبـة " وهي القبيلـة التـي تقيم بين حائل ومكة ، صديقة لابن الرشيد بالإضافة إلي اقسام من " بنـي حـرب " الـذين يسكنون بين حائل والمدينة ، وفريق من قبيلة " المطيــر " التي تسكن باتجاه الكويت وكـان " مبارك بن صباح " شيخ الكويت يظهر صـادقة غير قويـة ، إذا مـا اخذنا بنظر الاعتبار انه في الوقت الحاضر هو وعدوه الدائم ، ابن سعود أمير الرياض ، رفقاء في السلاح ٠

وكـان سعدون باشا شيخ المنتفق وعشيرة " الضـفير " وكلتـا العشيرتان من الشرق ، أصدقاء لحائل ٠

وعلــى الرغم من موقف المصـالحة تجاه القبائل المحيطـة ، لم يكن الامير ليتردد فـي التعامل ، بطريقة موجزة ، مع الشيوخ المتمردين ٠ ففـي صـارعه مع عنزة ، لـزم شـيخ بنـي حـرب الثـاني ، وكـان ينبغـي عليـه فـي نظـر زامـل أن يهـب لمساندة الأمير ، إلـي أن رأى ان شمر قد اصبحت لها اليد العليا وحينئذ أقبل إلـي

مخيم شمر ليقدم تهانيه . ولكن زامل ما لبث أن أقدم في الحال على تقييده برباط الخيل ، و وضعه في خيمة العبيد وهدده بالقتل إن لم تدفع عنه فدية معينة ٠

وكان من المحقق أن ينفذ ذلك التهديد لو لم تدفع الفدية التي كانت تتألف من مائتي ذلول وخمس وعشرين فرساً عربية ٠ وقد كان هذا الرجل أقوى شيخ لواحدة من أعظم القبائل في الجزيرة العربية ٠ هذا في الوقت الذي نرى فيه المباديء والترتيبات التي تطبق في الميدان ذات نظام سام نسبياً ٠

ففي باكر الصباح يعلن احد المنادين مشعراً يتحرك المخيم وعندئذ ينشر حامل العلم علمه الذي كان يحمله ، وعبد أن يمتطي الأخير ذلوله تبدأ القوة كلها بالتحرك ترفرف فوقها اعلام حائل الوردية الثلاثة ، وهي الاعلام التي خصص واحد منها للأمير ، وخصص الاثنان الآخران لكل حي من أحياء المدينة ذاتها ٠

وفي المخيم كانت الخيام البيض ، والتي لا تشبه خيام البدو السود ، تنصب على مثل هذه التشكيلة ايضاً . وترسل فرق الاستطلاع مسبقاً عادة ، للبحث عن العدو ، والماء ، والمرعى . وينهمك احد الرجال العارفين بشئون السلاح في اصلاح مختلف أنواع الأسلحة ، ويتلقى عن ذلك أجراً من الأمير نفسه . وحين تحتدم المعارك لا يفكر البدوي في القتال الا قليلاً بينما يركز تفكيره في النهب في الدرجة الأولى . ولكن شمر اعتادت أن تواصل القتال إلي أن يندحر العدو ، واذ ذاك حسب يسمح لها بالنهب ، وتضرب أعناق من يقعون في الاسر ولا يستثنى من ذلك سوى الشيوخ ٠

والسخاء عند البدو مفرط . فما أن يصل الضيف حتى يستقبل استقبالاً حالاً من لدن شخص يرتدي ثوباً مذهبا ذلك الشخص هو " عبدول بن مبارك بن فريك " حامل راية ابن الرشيد ٠

وهذا المنصب خطير وإن كان محفوفاً بالمخاطر لأن على حامل الراية أن يكون في مقدمة المعركة دوماً . وعبدول رجل في الخامسة والثلاثين من عمره وفي جسده ما لا يقل عن عشرة جروح من أثر الرصاص ٠

وحينذاك يؤخذ الضيف إلي خيمة خاصة لينعش بأقداح القهوة إلي أن يستقبله الأمير في الديوان العام واذا كان ذلك الضيف ذا مركز تخصص له خيمة خاصة ، ويزود بكل ما يرغب فيه ، بل أنه ليتناول طعامه من صحن الأمير ذاته ٠

أما الضيوف الآخرون فيطمعون في خيمة خاصة ، ويندر أن يقل عددهم دوماً عن الستين أو السبعين شخصاً ٠ و وسائل التسلية في المخيم قليلة ولذلك فان تمثيل المعارك هي التسلية الرئيسية المعروفة ٠

وغالباً ما يتزعم الأمير نفسه عملية التمثيل هذه ، اذ يبدأ الطراد بين الخيام ويحمل بيده رمحاً ، ويتبعه بقية أفراد حاشيته من الفرسان ٠

وفي الليل يكون الحديث في الديوان مبهجاً سيما اذا ما تناول قصص المعارك ، وتواريخ العوائل ، في الوقت الذي ينشد فيه الشعراء اشعارهم ، ويتغنى الحداة بالقصيد ٠ وهؤلاء الشعراء رجال يطوفون بين القبائل ، ينتقلون من واحدة إلي اخرى ينظمون القصائد في مدح الشيوخ ويتلقون منهم الجوائز لقاء ذلك ٠ واذا لم يكرمهم الشيوخ افرطوا في ذمهم في مخيمات أخرى ٠

ويتمسك سكان حائل كثيراً جداً بتأدية فريضة الصلاة ، ويتشددون فيها دوماً ٠ وينطلق المؤذنون للصلاة في الساعات المعتادة لذلك في اماكن مختلفة من المخيم ، ويراقب المتخلفون عن اداء الصلاة ويضربون بسبب ذلك . ورغم تمسك رجال شمر بشعائر الدين الا انهم ليسوا من المغالين في ذلك على خلاف ما هو معروف عن عرب العراق ٠

ففي الأسابيع الخمسة التي امضيتها مع الأمير لم اسمع منه قط كلمة نقد واحدة موجهة ضد المسيحيين ، واذا ما حدث والقى على احدهم في المجلس اسئلة تمس الدين سارع الشيوخ إلي اسكاته ٠

وحين كان الوصي زامل يعيد على مسامعي ، ولمنفعتي ، ايات من القرآن كما اعتاد ذلك دوماً ، كان يسألني – قبل أن يفعل ذلك – عما إذا كان لدي اعتراض على ما كان يفعله ٠

ولا يتردد الملالي الذين يشارك عدد كبير منهم في الغزو ، عن الحضور إلي خيمتي ، وتناول القهوة أو الطعام معي . وكنت حين اغادر الأمير ينهض كثير منهم لتوديعي ٠

توجه الغزو سائراً على مهل في هذا الوقت إلي منطقة تدعى " الحجيرة " نزل القوم فيها ونصبوا خيامهم حول آبار " اللينة " التي تقع بين " النفوذ " والحجيرة ٠

يبلغ عدد الابار في هذه المنطقة حوالي مائة بئر تنتشر فوق ارض مساحتها خمسة أو ستة اميال ٠ وقد حفرت هذه الآبار في ارض حجرية صلدة بيضاء . ومع

أن عمق البعض منها يتراوح بين عشرين وثلاثين قدماً ، وقطرها لا يزيد عن قدمين ، فأن من الصعب فهم الطريقة التي حفرت بها هذه الآبار في الأصل ٠

وبجوار هذه الآبار ترى بقايا دور حجرية مهدمة . وتقع اللينة على الطريق المعروف باسم " درب سلمان " وهي في اقصى الشرق من الطرق الثلاثة التي تمر من حائل إلي " مشهد علي " ٠

وفي اللينة صادفنا قافلة للحجاج عائدة من " المدينة " إلي مشهد علي (النجف) . وبالنظر لاضطراب الوضع في البلاد لم يستطع الحجاج استعمال هذا الطريق مدة ست سنوات ، وكانوا يفضلون عليه طريقاً آخر أطول هو طريق دمشق ، أو السفر بحراً من بغداد ٠

ولما كان الحجاج مصدر ربح لابن الرشيد ، ولسكان حائل انفسهم ، لذلك كان يسعى دوماً إلي بث الدعاية لهذا الطريق والسماح للحجاج بالمرور عبر اراضيه بأقل كلفة !

في الرياض :

واصل ليتشمان طريقه إلي الرياض عبر الطريق المعتاد ماراً ببريدة ثم عنيزه فشقراء ، واقترب إلي الرياض من جهة " الدرعية " في التاسع من ديسمبر و وصف الرياض ، فكتب : " تقع هذه المدينة على انخفاض مائة قدم من السهل الذي نحن فيه ، وتمتد المدينة مع ضواحيها وبساتين نخيلها لمسافة ميلين من الشمال إلي الجنوب . ويتصل طرفها الجنوبي بوادي حنيفة ويعرف هنا باسم الباطن ، وتطوق بساتين النخيل الكثيفة المدينة بشكل كامل من ثلاث جهات ، ويحيط بها

أيضاً سور ضخم حديث البناء به أبراج وبعضها تتحكم بأبواب الدخول المختلفة ٠٠ دخلنا المدينة – ولم تكن على يقين مما ستكون عليه طبيعة استقبالنا في معقل الوهابية هذا – مررنا بعدة شوارع فرعية هادئة ثم وصلنا مربعاً واسعاً فيه سوق تجاري ، كانت الحركة التجارية في ذروة نشاطها ظهراً ، وأثناء مرورنا تركزت علينا العيون الفضولية حتى وصلنا ساحة كبيرة ، في الجانب الأيمن منها قلعة عالية تبين أنها قصر عبد العزيز آل سعود أمير نجد الوهابي ٠٠ انخنا جمالنا وجلسنا على مقعد من الطين يمتد بمحاذاة الجدار ، وتجمع حولنا مجموعة من أهل البلد والعبيد يسألون عن أخبار عودة الحجاج المتوقع وصولهم خلال أيام قليلة وظنوا أننا أول العائدين منهم ! ٠٠ وصل حاجب الأمير وأبعد عنا المتجمهرين وأخذنا إلي داخل القصر واستفسر بود عن صحتنا وطبيعة مهمتنا ، كان أول الرسميات تناول القهوة في غرفة القهوة التي يتردد خلالها خدم وعبيد القصر ، كلهم يتباهون بعباءات مزينة بالزي وبسيوف لها مقابض فضية ، وبعد وقت قصير ، أخذنا إلي قاعة علوية تشرف على السوق والمدينة وهنا رحب بنا عبد العزيز الأمير الوهابي نفسه " ٠٠

تم تخصيص جناح بالقصر لإقامته ، وقام بعدة جولات في المدينة ، أحياناً بصحبة " عبد العزيز " نفسه ، وتحدث عن التجارة في الرياض ، ومسجدها الجامع الشديد البساطة الخالي من الزخارف ٠٠ ولاحظ صغر السوق نسبياً ، وأن البضائع أسعارها غالية ، والتمر هو أهم المعروضات مع بعض الفاكهة ، وأشار إلي أن عبد العزيز يملك بضع مئات من الخيول التي ترعى في – الخرج – جنوب الرياض ، التي تتوافر فيها المراعي والمياه الجارية ٠٠ كما صحبه عبد العزيز في جوله لإطلاعه على المباني التي يجري تشييدها في القصر ، وقد أخبره عبد العزيز : "انها أول مرة تتاح له الفرصة للقيام بالبناء حيث كان فيما مضى مشغولاً بالحرب " !

وفــي عام ١٩٢١ قتل ليتشمان وهو يحاول تهدئة أحوال المنطقة التـي رحل إليها وحارب فيها ، وبعدها نسى الناس اسمه بسرعة . ولكنه قد نال إعجاب كل من عرفه ، وقدر شجاعته ، وتواضعه ، وقوة احتماله ، وعطفه علـى البدو الذين كانوا يبدون إعجابهم به أيضاً ٠

إن رجــالاً مثـل ليتشـمان لابـد أن تـنعكس صـورهم وتـتقمص فـي الأسـاطير العربية . فالرومانسية والإعجاب الذي كان يكتنف الحياة البدوية قد انتقل إلي هؤلاء الرجـال . فأصـبحوا كـأنهم بـدو ممتــازون مـن عـرق عربـي أصـيل ، وفـي معظـم الحالات لم يقم هؤلاء بمثل ما قاموا به عمداً . ومع ذلك فأن لورنس وفيلبي وتوماس وتشيسـمان Cheesman وثيسـيجر Thesiger وكثيـر غيـرهم ، مثـل ليتشـمان وبورتون وداوتي من قبل ، قد جذبوا اهتمام الغرب ، ولهذا فعندما أصبحوا كرجال البـدو المحــاربين تمامــاً انتزعـوا إعجـاب الغـرب بأولئـك البـدو الـذين أوحـوا بهـذا الإعجاب ، فالتصق الإعجاب بهم !

والحقيقة أن ذلك الإعجاب قد منح لهم بحماس أكثر نظراً لأنهم أوروبيون قد غزوا البدو في عقر دارهم فلم يعد هنالك أي تحفظ في الإعجاب والتصفيق لأعمال هؤلاء ومغامراتهم ما دام أن ذلك لا يحمل فـي ثناياه أي نقد للقيم الأوروبيـة أو أي تلميح بأن هنالك في الصحراء اسلوباً للمعيشـة أكثر نجاحـاً من الأسلوب الأوروبـي في الحيــاة !

هاميلتون .. وتقرير موجز !

على الرغم من شهرة الزيارة الأولى لفيلبي إلي الرياض ، فقد سبقه في الواقع " أر . إي . أيه . هاميلتون " الوكيل السياسي لبريطانيا في الكويت ، موفداً من قبل " بيرسي كوكس " المعتمد السياسي في العراق ، وذلك لمناقشة موضوعات تتعلق بالكويت ، خاصة منع مرور البضائع إلي داخل الجزيرة العربية ، قدم هاميلتون تقريراً عن رحلته في ٢٦ صفحة ٠٠ وكان وصوله إلي الرياض في ٢٧ محرم ١٣٣٦ هـ الموافق ١٣ نوفمبر ١٩١٧ م حيث أخذ مباشرة إلي مجلس القصر ٠

عقب لقاء قصير في " مكتب ابن سعود " ثم تناول طعام الإفطار ، توجه هاميلتون في الساعة الثانية ظهراً لزيارة الإمام عبد الرحمن بن سعود ، وكتب في تقريره الموجز :

عندما وصلنا إلي الرياض جرى استقبالنا عند بوابات القصر ، واتجهنا إلي المجلس حيث يجتمع كبار الشيوخ ٠٠ بعدئذ جرى حديث خاص في مكتب ابن سعود ثم تناولنا طعام الإفطار ، وفي الساعة الثانية بعد الظهر توجهت لزيارة الإمام عبد الرحمن بن سعود ، وهذا هو لقبه ، وهو شيخ ذو لحية بلون الزعفران يناهز السبعين من عمره ، وله شخصية جذابة ٠٠ أرشدنا البعض إلي غرفة استقبال مضيئة ذات سقف عال يرتكز على ثلاثة أعمدة والأبواب في نهايتها بزوايا مستطيلة عكسية ٠٠ أما النوافذ فكانت مثلثة الشكل في أعلى الجدران ، وهي تسمح بدخول الضوء الكافي ٠٠٠ الأرضية مغطاة بالسجاد الجيد كما ممتد الوسائد بطول الجدران ٠

جــرى حديث طويـل تنـاول بصـفة أساسـية الأمـور السياسـية العامـة ٠٠٠ والإمـام عبد الـرحمن شـاحب اللـون لـه عينـان سـوداوان صـافيتان تنطقـان بالصـدق والحكمة ٠٠ لقد سحرتني دماثـة الإمـام ، وكان ذلك نفس شعور كل المرافقيـن لـي الـذين أجمعـوا علـى شـدة براعتــه ٠٠ عـدنا إلـي القصـر عبـر الحصــن (حصـن المصمك) الذي تمكن عبد العزيز ورفاقه المخلصون من بسط السيطرة عليه عـــام ١٣١٩ هـ / ١٩٠٢ م ٠ وشاهدنا آثار طلقات نارية في إطار الباب الضخم ٠٠ كان يكمن في الحصن سبعون من الدافعين الذين استسلمــوا بعد سقوط عشرين منـهم مـا بين قتيل وجريح ٠٠ دار حديث طويـل مـع الأمير فـي حجرتـه الخاصـة ، وقـدم لنـا الشاي صبي لطيف ، قدم علينا عبد الله الحكيم طبيب شاب من الموصل حصل على درجته العلمية من القسطنطينية ، وهو شـاب وسيم يشبه الفرنسيين يبلـغ الثلاثين من عمره ٠٠ يتحدث الفرنسية بطلاقـة ٠٠ حضـر كذلك أحمد بـن ثنيـان مـن أسـرة آل سعود ، وهو شاب يبدو في طلعته أكبر سناً من عمره الحقيقي ، وتطـل مـن عينيـه مودة ، ويتقن الفرنسية جيداً ، وكان مولده في القسطنطينية ٠

خـرجنـا بعدئذ للمدينة وزرنـا بعض المحلات التجاريـة ٠٠ ولـم تكن نوعيـة البضـاعة جيدة ، قمنا بمعاينة الجمال وقصدنا حملة القافلة ، ثم إلي عبد العزيز الـذي يملك بيتاً في نـهاية السوق ٠٠ تناولنا القهوة ، وبعد تناول طعـام الفطـور خلـوت إلـي العمل حتـى الواحدة بعد الظهر ، ثم امتطيت جواداً إلـي إحدى حدائق الأمير فـي صحبــة عبـد العزيـز الربيعـي وفارسـين آخـرين ، وتناولنــا القهـوة فـي الحديقـة ، وشاهدت بئراً ضخمة لكن المياه فيه على مسافة ١٠٠ قدم تحت السطح ، ويجـري رفعها بواسطة حمير كبيرة تتقـدم تدريجياً فوق وأسفـل المنحدر على كلا الجـانبين ، وتكلـف صيانة البئـر مـائتي دولار شـهرياً ٠٠ توجد أشـجار الفاكهـة من كل نـوع ، وكذلك الفلفل الحار والباذنجان ٠

وفـي الخامس عشر من نوفمبـر حضـرت مجلساً في مكتب ابن سعود ٠٠ يرتدي الملك في فصل الصيـف عباءة خفيفـة وثوبـاً أبيض طـويلاً بـدلاً مـن بـردة الصـوف ٠٠ قامـة الملـك تصـل إلـي أكثـر مـن سـتة أقـدام ، كمـا أن بنيتـــه قويـة ومتناسقة ، وأهداب عينه اليسرى متدلية إلي حد ما فوق عينه الفاقدة للبصر ٠٠ أنفه رائع ، ولكنه بارز ٠٠ لحيته بارزة فوق الذقـن وصغيرة مقلمـة الأطـراف ، وأحيانـاً يبرز شعر لحيته بشكل أفقـي ٠٠ ابتسامته عذبـة تكشف عن أسنان مرتبة ٠٠ بشرته بيضـاء حرقتهـا الشمس كثيـراً فـي الماضـي ، وفـي يده اليمنـى ندبـة مـن جـرح قديم أصيـب بـه فـي معركـة ضـد الأتـراك وحلفائهـم آل الرشيد فـي البكيريـة ٠٠ وفـي معركته مع قبيلـة العجمان أصيب بجرح في وركـه ، وإلـي الآن تتجـدد آلام الجـرح كلما تغير الطقس فجـأة وهبت رياح الشتاء بقوة بعد حرارة الصيف الشديدة ٠

وفـــي السـاعة الثانيـة والنصـف بعد الظهـر انطلقت مـع ابـن سـعود ومعظـم عائلتـه علـى ظهـور الخيـول ، وأدى ابـن سـعود مـن علـى ظهـر جـواده أسـلوبـاً مـن رقصـات الحـرب وبعـد العـدو بـالخيول فـي حلقـة دائريـة لمـدة نصـف سـاعة عمـدنا للجلوس مستندين على جدار من الطين للتعرض قليلاً لأشعة الشمس بينمـا نزعت السروج من على ظهر الجياد ، وأخذت في الدوران على الرمـال ٠٠ صـوب ابـن سعود رصاصتين من مسدسه وعشر طلقات من بندقيتـه علـى علامـة بعد أن وضـع حجراً على مسـافة ١٥٠ يـاردة ٠٠ ثـم عدنا فـي موكب بعدئذ إلـي المدينـة ٠٠ بعد تنـاول العشـاء ذهبنـا حـوالي الثامنـة مسـاءاً إلـي الأميـر كالمعتـاد ٠٠ ومكثنـا حتـى العاشرة والنصف مساءً ثم آوينا إلي الفـــراش ٠

فـــي السـادس عشـر مـن نـوفمبر توجهت للمجلس السـاعة الثامنـة والنصـف صباحاً حيث وجدت الأمير بمفرده ، ثـم انطلقنـا بالجيـاد حـول الريـاض التـي تعد صغيرة نسبياً ، واجتزنـا إلي خارج قرية منفوحة ٠٠٠

في السابع عشر من نوفمبر في الساعة الثامنة انطلقت مع ابن سعود راكبين الخيول لملاقاة تركي الذي أطلق مع فرسانه أعيرة بنادقهم ومسدساتهم لدى مرورهم أمام ابن سعود الذي كان جالساً على حافة بئر في ظل جدار ، وقد تكرر هذا العدو بالخيول أمام ابن سعود ثلاث مرات ، ثم تبودلت التحيات والعناق تبعاً لحرارة اللقاء ، بعد ذلك عدت إلي المدينة حيث كان لدي مقابلة الثامنة مساء كالعادة مع " ابن سعود " الذي شبه طبيعة العرب ببلادهم ، فبين حين وآخر تحدث سيول عارمة تكتسح أمامها كل شيء ، الأبنية والحدائق والمنازل إلي أسفل الوادي " ٠

في يوم التاسع عشر من نوفمبر ، وفي اليوم التالي ، قام " هاميلتون " وأصدقائه بنزهة على الابل في " منفوحة " والتقطوا صوراً فوتوغرافية ، وشاهدوا أطلال وأسوار المدينة القديمة ٠٠ وفي الحادي والعشرين من نوفمبر ، قام بنزهة خلوية في معية " أبن سعود " تكريماً له في منخفض وادي حنيفة ٠

وكان من أغرب ما ذكره هاميلتون في تقريره : أن تسعة جنود ألمان قد سبقوه إلي الرياض ! ٠٠ ولم يذكر أية تفاصيل وهل لهذا علاقة بالتحالف التركي – الألماني حول ابن سعود والنشاطات السياسية في غربي الجزيرة العربية ٠٠ وقد أشار " وليم قيس " إلي أن أسلوب هاميلتون في كتابه تقريره كان أقرب إلي لغة الحديث ، وغير مترابط ، ومختلف تماماً عن أسلوب فيلبي في تقاريره ودقة ملاحظاته !

لورانس : بين الواقع والأسطورة !

احتلت شخصية ضابط الاستخبارات البريطانية الرحال " ت . أ . لورانس " مساحة كبيرة من تاريخ الجزيرة العربية في العصر الحديث ، وذاع صيتها ونسجت حولها الكثير من القصص والأساطير في مطلع القرن الماضي ، وكتبت عنها المقالات والدراسات ، سواء في إطارها التاريخي ودورها السياسي ، أو في نطاق مساهمتها الأدبية والنظرة الاستشراقية التي لم تكن بمنأى عنها وأنما ظلت أسيرة أهدافها وغاياتها .

وحظى " لورانس " باهتمام الغرب تبعاً للدور الخطير الذي لعبه في تغيير وجه الأحداث السياسية للمنطقة العربية في فترة هامة من تاريخها ، وفي رسم صورة أعدت سلفاً في مكاتب وزارة الخارجية البريطانية وأعدتها بعناية فائقة الدوائر الاستشراقية التي نشطت من خلال رحاليها إلي الشرق في ذلك العصر .

ولد توماس ادورد لورنس في السادس عشر من أغسطس عام ١٨٨٥م في تريمادوك Tremadoc بويلز ، وهو الابن الثاني من خمسة أخوة غير شرعيين ولدوا لسير توماس روبرت تشابمان ، بارون وستميث Westmeath السابع بايرلندا ، من مربية بناته سارة مادن ، بعد أن هجر زوجته وبناته الأربع ، ورحل إلي ويلز ، وعاش معها حياة زوجية دون زواج شرعي تحت اسم لورنس ، ذلك لأن زوجته رفضت أن توافق على الطلاق .

وعندما بلغ توماس الثامنة استقرت العائلة في اكسفورد حيث تخرج الأخوة من جامعتها ٠ وكانت صدمة لتوماس عندما علم وهو في سن العاشرة انه ابن غير شرعي وقد دفعه هذا الشعور بالنقص إلي محاولة أثبات تفوقه على اقرانه في مدرسته ، وفي الجامعة عندما انصرف إلي دراسة علم الآثار حتى انه استرعى انتباه المستشرق الشهير هوجارث Hogarth فكان له أبا ثانيا ٠ ويروي بعض المؤرخين أن هذه العقدة دفعت الأخوة الخمسة جميعهم إلي أن يقسموا ألا يتزوجوا أبداً ٠

وقد استهوى الشرق العربي لورنس منذ شبابه الأول ، فكان يقبل على قراءة " الصحراء العربية " Arabia Deserta – by Doughty بشغف ونهم ، وسافر إلي سوريا وفلسطين لدراسة القلاع الصليبية من اجل كتابة بحث عنها لجامعته ، وانضم إلي بعثة أثرية ارسلها المتحف البريطاني إلي كركميش على نهر الفرات ، ولكنه توقف في جبيل بلبنان ليتلقى دروساً في اللغة العربية في مدرسة تبشيرية ، وانتظر هناك مجيء الدكتور هوجارث الذي انضم اليه ، ثم سافرا إلي كركميش عام ١٩١١ م ٠

وعندما بدأت الدول الغربية تضع الخطط لاقتسام أملاك الدولة العثمانية ، وجدت بريطانيا أن الحرب لابد قائمة ، فأرسلت بعثة إلي صحراء سيناء فيها لورنس ، مدعية أن هدف البعثة هو اكتشاف الطريق التي سلكها بنو إسرائيل بعد خروجهم من مصر ، بينما كان هدفها في الواقع هو رسم الخرائط للمنطقة لاستعمالها في حالة الحرب ، وعاد لورنس ورفاقه إلي لندن لكتابة التقارير ورسم الخرائط ، وعندما نشبت الحرب كانوا ما يزالون يعملون فيها ٠ وقد طلب المسئولون من لورنس أن يكتب دليلاً لصحراء سيناء لاستعمال الجنود ، ثم نقل بعد هذا إلي مكتب المخابرات العسكرية بالقاهرة ٠

ومـا أن اعلنت الثورة العربية في الحجاز حتى سارع لـورنس فانضم إلـــي (رونالــد ستــورز) لمقابلـة المسئولين هنـاك ، فكانـت هـذه الخطـوة بدايـة علاقـة لورنس بالعرب ، بالأمير فيصل خاصة ٠

وعــادت البعثـة الإنجليزيـة إلـي القاهـر لتنقـل للمسئولين نتيجـة محادثاتها ، وعـاد لورنس ثانية إلي الحجاز بعد أن عين ضابط اتصال بين السلطات البريطانيـة والقوات العربية ٠ وعندما كان لورنس في القاهرة نما إليه شيء من أخبـار معاهدة سـايكس – بيكـو التي تمت في الخفاء بين بريطانيـا وفرنسـا وروسيا لاقتسـام البلاد العربيـة ، وهـي معاهـدة مناقضـة للعهـود التـي قطعتهـا بريطانيـا علـى نفسـها نحـو العــــرب ٠

عــــاش لـورنـــس مـع العـرب فـي ثورتهـم ، مرافقــاً لفيصـل ، مـدة سـنتين ونصــــف ، وفـي اثنـاء هذه المدة سـار الجيش العربـي من مينـاء جـدة علـى البحـر الأحمـر حتى دخل دمشق منتصراً ٠

لـورنـس الأسطـورة

وقـد كان أول من وجه الانظـار إلـي لـورنس صـحفي أمريكـي اسمه " لويل تومـاس " Lowell Thomas فقـد تـرك هذا أمريكـا إلـي أوروبـا عـام ١٩١٧ م ليكون مراسلاً حربياً لصحف أمريكية ، فلما وصل إلي فرنسا لم يجد سوى الدمار في كل مكان ، فتركها إلـي الشرق العربــي ، وزار " رونالـد ستورز " Ronald Storrs الـذي كان آنذاك حاكم القدس ، وهذا بدوره قدمه إلي لورنس ٠ وقد أعجب الصحفي الأمريكي الباحث عن الأبطال والمغامرين بلورنس وقد دخل عليه بملابسه العربية الفضفاضة ، وأخذ يروي له طرائف عن مغامراتـه فـي حـرب الصـحـراء ٠

ثـم صـحبه معـه إلـي العقبـة ، حيث زار الأمير فيصـل فـي معسكره ، ورافقـه فـي الزيارة إلي البطراء . وعـاد الصـحفي إلـي الولايـات المتحدة ليبدأ بنشر سلسلة من المقالات مزينة بالصور ، وليلقي محاضراته عن البطل المثالث الرابض هنـاك فـي الصـحراء العربيـة ، اولاً فـي نيويـورك ، ثـم متجـولاً فـي مـدن الولايـات المتحـدة ، وكانت المحاضرات موضحة بالصور ، وبقلم سينمائي ، وتلقـى تحت عنـوان " مـع النبـي فـي فلسطين ، ولـورنس فـي بـلاد العـرب " ٠ وقـد نجـح لويـل تومـاس نجاحـاً بـاهراً فـي محاضـراته ، فأصبح اسم لـورنس علـى صـفحات الصـحف كـل صـباح ، وأصبح شخصه رمزاً للبطولة المثالية التي لا يشوبها عيب ٠ هذه هي الصورة التي قدمها توماس ٠

وحــدث ان استمع إلي إحدى هذه المحاضرات رئيس فرقة موسيقية انجليزي هـو " بيرسـي بيرتوز " فعجب أن يكون مواطن من بلاده متمتعـاً بكل هذه الشـهرة فـي أمريكـا ، ومجهـولاً فـي وطنـه . ولـهذا عمـل عنـد عودتـه علـى أن يحضـر لويـل توماس ليلقـي هذه المحاضرات في دار الأوبرا الملكية والأثبرت هول بلنـدن ٠ وقـد ابتدأ لويل توماس بالقاء محاضراته في سبتمبر ١٩١٩ م وسـاتمرت حتـى بدايـة عـام ١٩٢٠ م ، وحضـرها مـا لا يقـل عـن مليـون مستمع كـان مـن بيـنهم جميـع الـوزراء والسفراء والرجال العسكريين ، ورجال الصناعة والأعمال ، وقد كان لورنس نفسه يحضر بعضها حيث يدخل فيجلس في آخر الصفوف في زاوية مظلمة لا يـراه منهـا أحد ٠ وقدم لويل تومـاس عرضـاً خاصـاً أمـام الملك جورج الخـامس بطلـب منـه ٠ ومن بريطانيا قام توماس بجولة مماثلة في دول الكومنولث ٠

هكــذا خلـق لـورنس الأسطــورة وعـــــرف اسمه وذاع ٠ وقـــد اعتـرف لويــــل تومــــاس فيمـا بعـد بأنـه كـان مخطئـاً فـي كثيـر مـن الجوانـب التـي عرضـها للـــورنـــس !

السيرة المعتمدة لحياة لورانس !

نشـــر مؤخـــراً في بريطانيا كتـاب جديد عن سيرة حياة هذه الشخصيــة المثيــرة للجـدل . بعنــوان (لــورنس العـرب " السـيرة المعتمــدة لحيـاة لـورنس " Lawrence of Arabia لجيرمي ويلسـون الذي قام بتأليف هذا الكتـاب بتكليـف من الأوصيــاء علـى تركــة لـورنس ، وهـم الـذين اتاحـوا لـه مجـال الإطـلاع علـى جميــع الأوراق والوثـائق المتعلقــة بالموضــوع ، و وفــروا لـه فرصــة العمـل علـى نطاق واسع عن طريق تجنيد عدد من الباحثيـن المساعـديـن ٠

جـــاء الكتـاب سفـراً ضخمـــاً فـــي ١١٨٨ صفحــة ويحمل الدليـل علـى أن الحضـــارة تقــوم علــى عناصــر متكاملـــة بـيـن الأفـراد والمؤسسـات . فلــولا أن السياسييــن والعسكرييــن الـذين اشتـركـوا فـي احـداث الحـرب العالميـة الأولـى ومـا قبلهـا ومـا بعدها ، سجلـوا في تقاريـرهـم ومراسـلاتهـم ورسـائلهـم تفاصيل مـا وقـع لهـم وشـاهدوه بـأعينهم ، ولــولا الحـس الحضــاري الـذي يتمثــل فـي دور الوثــائق الرسـمية ٠ لمـا اسـتطاع المؤلـف أن يحشـد كـل هـذه البينـــات فـي دراسـة متصلــة ومترابطــة ٠ تكاد لا تترك زيادة لمستـزيـد ٠

صـــدر الكتاب بهذه الضخـامـة لن المؤلف اراد من دراسته التاريخيــة ، أن يروي سيرة حياة لورنس من خلال الأطـار العام للأحداث التي كانت لـه علاقـة بهـا ولذلــك نـراه يخصص فصـلاً كـاملاً للمفاوضـات بين الشـريف حسين ومكمـاهون ، وفصــلاً كـاملاً لاتفاقيـة سايكـس – بيكـو وفصــلاً كـاملاً لاستسـلام جـيش الجنـرال تاونسند البريطاني في كوت العمارة عام ١٩١٦ – مع ان دور لورنس فـي كـل هـذه الموضوعات كان بسيطاً ومحـدوداً ٠

ومـن هنـا يبدو لي أن كتاب جيريمي ويلسون مفيد للمختصين في موضوع الحرب العالمية الأولى وتأثيرها وتفاعلاتها في بلاد العرب ، ولكنه ليس من الكتب التي يمكن أن تروق للقاريء العادي فهو أقرب إلي الكتاب الاكاديمي ، والجديد في الكتاب أن المؤلف تعمق في توثيق الاحداث التي تؤيد وتؤكد أن شهرة لورنس قامت على أسس متينة ، وأنه بالفعل قام بالأعمال التي عزاها لنفسه ٠

لقـد نجح الداعية الأمريكي لويل توماس – ابتداء من عام ١٩١٩ – في تصوير لورنس بصورة البطل الرومانتيكي الذي طلع لتوه من بين صفحات ألف ليلة وليلـة . وهنا تبرز صورة ذلك الشاب الأشقر ، خريج جامعة اوكسفورد وهو يعيش حياة البدو في الصحراء . ويقطع الفيافي والقفار على ظهور الجمال . ويتسلل في عمق المناطق التي يسيطر عليها الاتراك متخفياً من أجل أن يطلع على الأسرار العسكرية . لا يبالي بالجوع والعطش ، ولا يسأل إذا قضى لياليه في الصحـراء تحت نجوم الصيف الساطعة ذلك الفتى الأشقر الذي ولد من زواج غير شرعـي ، يتصدى لمهمة تقارب المستحيلات مهمة قيادة العرب في حربهم التحررية ٠

ولكـن البطـل الذي ارتسمت صورته في اذهان الغربيين لم تقتصر عناصر بطولته على بـلاد الغرب . بل أن القليل منها يعود إلي بلاد الغرب . فهذه " البطولة " نشأت وترعرعت في بلاد العرب وإلي حد كبير على حساب العرب . ونرى الباحثين العرب – وأنا منهـم – يوجهون اللوم إلي جيل آبائهم ممن عمل لورنس معهم لأنهم لم يكتبوا تفاصيل علاقته ومعرفتهم به وآرائهم فيه . ولكن الذين عمل لورنس معهم من العرب لم يكونوا يدركون أنه سيحرز هذه الشهرة التي طبقت الآفاق . وفي عام ١٩٦٨ عندما قابلت الأمير زيد بن الحسين في لندن وحدثته عن شهرة لورنس ، وما يقال في بلاد الغرب من أنه كان يقود العرب وأنه لولاه ما

أحرز العرب ما أحرزوا من انتصارات – بدت الدهشة على وجهه وكان تعليقه كلمة واحدة قالها بلهجة العراقيين " خطية " ومعنى ذلك كما فهمته " يا للبهتان " وفي المقدمة التي كتبها نوري السعيد لترجمة كتاب (ثورة في الصحراء Revolt in the Desert وهو النص المختصر لكتاب (أعمدة الحكمة السبعة) نراه يقول أن لورنس عرف أشياء ولكن هناك أشياء كثيرة لم يكن يعرفها ٠

وإذا عدنا إلي كتاب جيريمي ويلسون نلاحظ أنه جاء ليثبت أسطورة لورنس ، التي تداولها غيره من المؤلفين الغربيين . بل أنه يأتينا بحكاية جديدة يصعب على المنطق قبولها ، وخلاصتها أنه حدث أثناء هجوم جيش الجنرال اللنبي على عمان والسلط في نيسان ١٩١٨ – أن قبائل البدو المحيطة بعمان هاجمت محطات سكة الحديد وأخذت ١٢٠٠ أسير من القوات التركية واستضاف البدو أولئك الأسرى ٠ وجاء لورنس على الأثر وكانت النتيجة (على حد قوله في عام ١٩٣٣) أنه والبدو اعادوا اولئك الأسرى إلي محطات سكة الحديد مع الاعتذار . وهذه قصة غريبة لم يسمع بها أحد من البدو المحيطين بعمان . ولم يرد لها أي ذكر في أي تقرير أو رسالة . ولا يؤيدها أي مصدر عربي أو بريطاني أو تركي ٠ ولكن المؤلف يذكرها على علاتها . دون أن يقول أنها لا تعدو أن تكون شطحة من شطحات خياله ٠

ونأتي على ذكر الرحلة السرية التي زعم أنه قام بها في يونيو (حزيران) ١٩١٧ من (النبك) في وادي السرحان . إلي برقة (في البادية السورية) ٠ إلي تدمر ثم إلي رأس بعلبك شمالي دمشق ، ثم إلي دمشق وبعدها إلي جبل الدروز ثم إلي الأزرق وبعدها إلي النبك وكيف فعل ذلك ؟ ولم يرافقه أحد من رجال الشريف ناصر أو الشيخ عودة أبو تايه – هكذا يقول – بل رافقه بعض البدو وكان كلما مر بديرة أحدى القبائل يستبدل رفاقه برفاق جدد . ومع أنه يسافر دون أن يكون

معه شخص تعرفه تلك القبائل ٠ إلا أنه (بقدرة قادر) يمضي في رحلته أمناً مطمئناً ، ويجتمع بشيوخ القبائل وزعماء جبل الدروز وعلى رضا الركابي في دمشق وبزعيم قبيلة الرولة نوري الشعلان ٠ ويجب أن نذكر هنا أن الحرب كانت قائمة على اشدها ، وأن الأمن لم يكن مستتباً في البادية ، وأن كثيرين في المناطق التي يزعم أنه سار فيها كانوا موالين للدولة العثمانية ٠ أن أي عربي يعرف تلك المناطق ويعرف احوال البدو في تلك الفترة – لا يدخل في عقله أن رجلاً أجنبياً تتم عنه باعترافه لهجته الغربية في خلال خمس دقائق يمكن أن يقوم برحلة كهذه !

وأمام هذا السيل الجارف من الكتاب المعجبين اشد الاعجاب بلورنس ، قام الكاتب القصصي ريتشارد الدنجتون Aldington بنشر كتابه " لورنس بلاد العرب Lowrence of Arabia " ١٩٥٥ ليجعل كل همه دحض هذه الأسطورة البطولية ، ليحيل مكانها صورة لإنسان مليء بالعقد والشذوذ وقد كان الدنجتون أثناء الحرب العالمية الأولى مع الجيش في فرنسا ، فلما انتهت الحرب ، وأحرز الحلفاء النصر ، ساءه أن يسمع على الألسنة أن القوات الإنجليزية في الشرق العربي هي التي حققت النصر ، وأن على رأس الجميع يقف لورنس ٠

وعلى الرغم من هذا فأن صورة لورنس البطل المثالي بقيت قائمة ، ولم يستطع الدنجتون أن يطمسها ، ولكنه كبح جماح المعجبين الذين كتبوا عنه فيما بعد ، وطلعن من غلوائهم من أمثال : المؤرخ الفرنسي جان بيروفيلار Jean Beraud – Villars والكاتب السويدي اريك لونروث Erik Lonnroth والآنسة فلورا ارميتاج Flora Armitage التي يعد كتابها " الصحراء والنجوم " ادق كتاب في معلوماته التاريخية ، والكاتب الانجليزي المسرحي Rerence Rattigan الذي عرضت له في العام ١٩٦١ في لندن مسرحية

Ross عن حيـــــاة لورنس ، فنالـــــت نجاحاً باهـراً ، ثـم أخيـراً انطونـــي نتنـج مـؤلـف لـورنـس بــلاد العـــرب Lawrence of Arabia ٠

فــي ٣٠ سبتمبر ١٩١٨ دخـل الجيش العربي دمشـق ، وانـزل العلم التركـي ليرفع مكانـه علم الثـورة العربيـة وأعلـن فيصل ملكاً علـى سوريا ٠ وهنـا حدثـت مفاجأة غير منتظرة ، غذ دخل لورنس على اللنبي وطلب منه أن يعفيـه من الخدمـة ليعـود إلـي بريطانيـا ٠ وحـاول اللنبـي أن يثنيـه عـن عزمـه ، ولكنـه وجـد لـورنس مصمماً ٠ وهنا يبرز تساؤل محير : ترى لماذا ترك لـورنس فيصل بعد أن دخل دمشق منتصراً ، وكان من المنتظر أن يبقى بجانبـه ليشاركه فرحـة النصر ؟ لقـد اختلف المؤرخون في تفسير الباعث الذي دفع لورنس إلي مثل هذا العمل ، ففريق قال انه بعمله هذا قد اكد ما اتهمه به حزب العمال البريطـاني والشيوعيون الإنجليز من أنه لم يكن سوى جاسوس فـي المخـابرات البريطانيـة يؤدي خدمـة معينـة ، فلما حقق ما طلب منه اختفى ٠ ويذهب آخرون إلي أبعد من هذا فيتهمون لـورنس بأنـه كـان ضـالعاً مـع اليهود ، ويستشـهدون هنـا باهدائـه كتـاب " أعمدة الحكمـة السبعة " إلـــي (S.A) وهمــا حرفــان يرمــزان إلــي (ســارة ارونســوهن Sarah Aaronsohn) الجاسوسة اليهودية الحسناء التي ألقي الأتراك عليها القبض أثنـاء الحـرب فـي فلسطين فـانتحرت فـي الناصـرة حتـى لا تبـوح بسـر ، وهم يقولـون أن لورنس كان عشيقاً لها ٠ويرد المبرئون للورنس عن هذه التهمة بأن لورنس لم يلتق بهذه الجاسوسة ابداً في حياته ، فقد كانت هي في فلسطين فـي الوقت الـذي كـان هو فيه في مصر والحجاز وشرق الأردن والوثائق تؤيد ذلك ٠ والواقع أن لـورنس قد اعطـى المتسـائلين عن معنـى الحـرفين تفسيرات متناقضـة ٠ فقـال لروبـرت جريفز أنهما رمز لصديق العربي السوري الشاب الشيخ أحمد من أيام رحلتـه الأولـى إلـي سوريا ٠ وقـال لآخـرين انهمـا رمـز لصـديقه العربـي الشجاع فـي حـرب الصـحراء الشيخ علي ٠٠ وزاد لورنس الأمر تعقيداً بـأن قـال لغيرهم أيضـاً أن الحـرف الأول

رمز لاسم شخص لم يسمه والحرف الثاني رمز لاسم مكان ٠وخلاصة هذا الأمر كله أن التفسيرات المتناقضة لم تزد الأمر إلا تعقيداً ، بحيث يصعب القطع في هذه القضية ٠ ويرى لويل توماس أن لورنس عاد إلي بريطانيا بسبب ما كان يشعر به من إرهاق عصبي وجسمي فقد كان بحاجة إلي الراحة ٠ اما انطوني نتنغ فيرى أن لورنس كان مخلصاً للعرب ، ولكنه اختفى من الميدان لشعوره بالاثم وتأنيب الضمير ، لأنــه كان يعلـــم مقدماً بما سيحل باصدقائه العرب ٠ والواقع أن كتابه " أعمدة الحكمة السبعة " يوحي للقاريء بما جاء به نتنـغ ، فهو يقول معلقاً على معاهدة سايكس – بيكو : " انني لم ابلغ درجة من الحمق تجعلني لا أدرك أنه لو فيض للحلفاء أن ينتصروا ، فأن وعود بريطانيا للعرب لن تكون سوى حبر على ورق ٠ ولو كنت رجلاً شريفاً ، وناصحاً اميناً ، لصارحتهم بذلك وسرحت جيشهم ، وجنبتهم التضحية بارواحهم في سبيل أناس لا يحفظون لهم إلاً ولا ذمة ٠٠٠ " ويقـول في مكان آخر : " أما الشرف فقد فقدته قبل سنة ، يوم أن اكدت للعرب بأن بريطانيا ستحافظ على وعودها " ٠

ويستشـهد المؤمنون باخلاص لورنس للعرب بالحادثتين التاليتين : ذهب لورنس ليتسلم من الملك جورج الخامس وسام الحمام Order of Bath تقديراً له على ما قام به في الحرب ، وما أن مد الملك يده إليه بالعلبة التي فيها الوسام حتى ادار لورنس ظهره وخـــرج ، آبيــا أن يتسلم وساماً من بلاد حنثت بوعودها لأصدقائه ، ويروون عن الملك أنه قال : " لقد ادار لي ظهره ، ويدي ممدودة إليه بالعلبــة ! " ٠ أما الحادثة الثانية فهي أنه وضع " صليب الحرب " وهو الوسام الذي قلده أياه (بيساني Pisani) الفرنسي تقديراً لجهوده في الحرب ، في عنق كلب الدكتور هوجارث ثم طاف به شوارع اكسفورد احتجاجاً على تـأمر فرنسا مع بريطانيا على العرب ٠

وعـاد لورنس إلي لندن بعد أن رقي إلي رتبة كولونيل ، وبدأت المؤامرات تحاك حول العرب لاقتسام بلادهم ، مما دعا فيصل إلـي السفر إلـي فرنسا وإنجلترا للمفاوضة وكان لـورنس دوما بجانبه ، ولكن حق الضعيف دوماً مضيع وحضر فيصل مؤتمر الصلح ليشرح القضية العربية فـي ٦ فبراير ١٩١٩ فلم يفده ذلك ٠ وعاد فيصل إلي دمشق ٠

وتتابعت الأحداث فكان المؤتمر العربي في دمشق في مارس ١٩٢٠ ، ثم اشتدت قبضة الفرنسيين ٠ وأمر غورو Gouraud الجيش الفرنسي بالزحف على دمشق ٠ وظن فيصل إن الانجليز سيهبون لنجته ، وخاصة صديقه اللنبي ، ولكن بريطانيا وقفت مكتوفة اليدين ٠ وفي ٢٧ يولية (تموز) وجه غورو انذاره إلي فيصل بتـرك دمشق ، وأن القطار بانتظاره فـي صباح اليوم التالي لينقله إلـي فلسطين ٠ وترك فيصل عاصمته فـي الموعد المضروب ، يشق طريقه وسط الجموع المحتشدة الغاضبة الثائرة على مؤامرات الساسة التي حيكت في الظلام ٠

وقامت بريطانيا علـى يد ونستون تشرشل ومستشاره لـورنس بعد هذا بالتسويـة التي ظنت أنهـا بها قد كفـرت عن بعض خطاياها نحو العرب ، وذلك بوضع الأمير فيصل ملكاً علـى العراق ، والأميـر عبد الله اميراً علـى شـرق الأردن ٠

وفـي بريطانيا كان لورنس ابا المفاجآت ، كما كان دومـاً ، فهناك أنهـى " أعمدة الحكمة السبعة " عـام ١٩٢٢ واصدر منه نسخاً خاصة لاصدقائه فقط ، ثم اتخذ لنفسه اسم (روس Ross) وانخرط في القوة الجوية ، ولما عرفت هويته اثار بعمله ضجة ، واحدث حرجاً للمسئولين وتسمى باسم " شـو " وعاد إلي القوة

الجوية ، وسافر إلي الهند ، ثم عاد إلي إنجلترا ٠ وفي عام ١٩٢٥ ترك الخدمة العسكرية قائلاً : " لن التحق بوظيفة بعد اليوم " ٠

وبعد ثلاثة أيام ، وفي ١٣ مايو ١٩٢٥ ، كان لورنس يقود دراجته البخارية ، ومال بها ليتفادى ولدين كانا في طريقه ، فوقع ودراجته في خندق ، وفقد وعيه ليموت بعد ستة أيام ٠ وقد دفن في مقبرة موريتون Moreton على بعد بضعة أميال من مسكنه ٠ وأقيم له تمثال نصفي في كتدرائية سانت بول بلندن بجانب رجال الفن والحرب مثل : نلسون ، و ولنجتون ، وكونستابل ٠ ورثاه اصدقاؤه : تشرشل ، وستورز ، وبرنارد شو ، واللنبي ٠٠ وقبل ذلك قالت جرتود بيل فيه : " لقد عاش لورنس ليبعث الدفء في كثير من الغرف الباردة الرطبة " ٠

كلمة أخيرة !

لست بصدد تقييم توجهات وسياسات زعامات عربية استنامت للخداع فأضاعت ثم ضاعت ! ٠٠ ولكننا بحاجة دائمة لأن نذكر الأجيال العربية الحالية بأن مأساة عالمنا العربي اليوم قد نسجت خيوطها وصبت اصفادها منذ مائة عام ، وأن ما يحدث اليوم هو استكمال لهذا المخطط !

لقد نشرت جريدة " التايمز " في يوليو ١٩٦٨ وثيقة بخط لورانس قال فيها : " انني فخور ومستريح الضمير لأن الدم الإنجليزي لم يسفك في المعارك الثلاثين التي شهدتها ، فالعرب الذين اتقنت خداعهم وسقتهم بعشرات الألوف إلي مذبح انتصارنا لا يساوون في نظري موت انجليزي واحد ، وقد كنت أعرف منذ البداية بأن وعودنا لشريف مكة لم تكن تساوي الحبر الذي كتبت به " !!

لقد خدع لورانس جيل باكمله من العرب ، مشوا بأرجلهم إلي الكارثة وهم يرقصون ويغنون على أحلام الحرية والوحدة ! ٠٠

لقد تسببت تصريحات لورانس المتناقضة بشأن القضايا العربية في إحداث قدر كبير من الارتباك ، وقد اختفت شخصيته الحقيقية في كتابات الذين ارخوا له وأعجبوا به ، وينطبق الشيء نفسه على الفيلم الشهير " لورانس العرب " المأخوذ عن كتاب " With Lawrence in Arabia مع لورانس في جزيرة العرب " الذي كتبه لوويل توماس Lowell Thomas ففي مثل هذا الجو الكئيب ، سيؤدي اكتشاف الدافع الحقيقي بالتأكيد إلي وضع رواية الكتاب في المنظور الصحيح ٠ بدون ذلك ، قد لا يدرك المرء المغزى الحقيقي لكتاب " أعمدة الحكمة السبعة " ، والذي يعد ، في رأيي تسجيلاً صادقاً لفهم المؤلف الخاص عن العرب والإسلام ٠

كان من بين النقاد الذين اعتبروا لورانس بطل الدفاع عن القضية العربية تاباشنيك الذي رأى أن لورانس كان مصاباً " بانفصام في الشخصية " ، كما رأى أن " هوية لورانس الإنجليزية " كانت دائماً ما تنزوي تقريباً خلف هويته العربية الجديدة !

وعن مؤامرة " سايكس – بيكو " والتي كانت من أكبر الكوارث التاريخية على المنطقة العربية ، كتب لورانس : " لقد ترامت الشائعات عن هذه المؤامرة و وصلت إلي العرب عن طريق الأتراك ٠ وكان الناس في الشرق ينعمون بمصداقية أكبر من تلك التي تتمتع بها المؤسسات ٠ ولهذا طلب مني العرب ، لما لمسوه في من الود والإخلاص في وقت الحرب ، وذلك بصفتي وسيطاً مستقلاً ، أن أقر بوعود الحكومة البريطانية . ولم يكن لدي أية معرفة سابقة أو قريبة عن التزامات ماكموهان و وعوده أو معاهدة " سايكس – بيكو " التي صاغتهم من قبل أن أقرغ لوزارة الخارجية وقت الحرب . ولكن ، لأنني لست

مغفلاً فقد كنت أستطيع أن أرى ، أنه في حالة انتصارنا في الحرب ، سوف تصبح كل وعودنا للعرب مجرد حبر على ورق ٠ ولـو أنني كنت مستشاراً مسموع الكلمة ، لكنت قد أمرت بإرسال رجالي إلي وطنهم ولم أكن لأدعهم يخاطرون بحياتهم من أجل مثل هذه الوعود الجوفاء . ولكن قوة الإلهام العربية كانت هي سبيلنا الرئيسي للانتصار في حرب الشرق ٠ ولهذا فقد أكدت لهم بأن انجلترا تلتزم بوعودها بحذافيرها . وهذا الاطمئنان جعلهم يقومون بدورهم على أكمل وجه : ولكنني بالطبع بدلاً من أن أكون فخوراً بما حققناه سوياً كنت دائماً أشعر بالخجل والمرارة ٠ ولم أكن أريد أن أشرك العرب ، دون علمهم ، في مقامرة على حياتهم وكان من الحتمي ، بل ومن العدالة ، ألا نجني إلا المرارة وهذا هو النتاج الحزين لكل هذه المحاولة البطولية " !

هـذه الفقرة بكل تأكيد تزيل هذا الستار " العربي " عن وجه لورانس ، وهنا يظهر بوضوح كعميل بريطاني هدفه الوحيد هو تقسيم الإمبراطورية العثمانية لصالح كل من إنجلترا وفرنسا . وفي أحد مواضع الكتاب ، التي يشير فيها لورانس إلي انتصار بريطاني خالص ، يعترف لورانس بأنه " يمكن استغلال كل ما هو مادي ومعنوي في بسل تحقيق النصر " ٠ فمن وجهة نظره ظل الصراع العربي بطولياً طالما كان مفيداً للمصالح البريطانية ٠ ولم يكن لورانس مجرداً من كل شعور بوخز الضمير ولكنه كان دائماً على استعداد لتجاهل مثل هذه المشاعر أو على الأقل قمعها من أجل مصلحة بلاده !!

فـي قصـر البديعـة الصيفـي !

وصـف " جيرالـد دي جوري " عصر الملك عبد العزيـز آل سعـود بأنــه " كـان عصـراً فريداً جمـع فيـه بـين محاسـن الحيـاة فـي العصـور الوسـطى ومدنيـة وحضارة القرن العشرين " !

كـان " دي جـوري " ضـابطاً بريطـانياً عمل في السلك الدبلوماسـي ، وتنقـل في عدد من الدول العربية ٠٠ عمل في جدة والكويت والعراق وشغل منصب وكيل سياسي في الكويت خلال الفترة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩م ، كما شغل منصب قائم بالأعمال لـدى الوصـي علـى العـراق عـام ١٩٤١ م ، زار الريـاض عـدة مـرات فـي الأعـوام ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ م وكانــت زيارتــه الأولــى للريــاض بصــفته مبعوثــاً لوزارة الخارجيــة البريطانيـة لمناقشـة بعض القضـايا السياسـية مـع الملك عبـد العزيـز ٠٠ أمـا زيارتـه الثانيـة للريـاض التـي تمـت فـي عـام ١٩٣٥ م فكانـت بصفته مرافقاً للوزير المفوض البريطاني في جدة مستر " اندرو ريـان " الـذي قدم للريـــاض باسم الملك البريطانـــي " جـورج الخـامس " ليمـنح الملـك عبد العزيـز وساماً بريطانياً رفيعاً اعترافــاً به كحاكم مستقل يـرتبط ببريطـانيـا بعلاقـة دبلوماسية كاملة ٠٠ وكتب " دي جــوري " كثيراً عن رحلاته وعن المملكة العربية السعودية وتجاربه بها ٠

كـــان وصـوله إلـي الريـاض فـي التاسـع عشـر مـن ربيـع الأول ١٣٥٣هــ / ١٩٣٤م توجه إلي إحــدى الخيام بالقرب من أسوار الرياض إلي أن وصل الشيـــخ " يوسف ياسيـن " السكرتير الخاص لجلالة الملك ، الذي اصطحبـه إلي منزلـه قرب البوابة الشرقية ٠٠ ثم رافقه عقب العشـاء لمقابلـة الملك عبد العزيـز ، حدثـه الشيخ

ياسين عن خدمة الطيران التي ستبدأ قريباً ٠٠ ونشاط شركة النفط الأمريكية ٠٠ وأشار إلي اسلوب الحياة الأوروبية في بيت الشيخ ياسين !

و وصف الساحة المفتوحة الوحيدة أمام قصر الملك عبد العزيز " الذي يشبه القلاع ، وقد كان هذا القصر القديم مقر القيادة العسكرية الشتوي للملك ، يترك فيه عائلته فيما يخوض معاركه ، ويتيه المرء في القصر أكثر مما يتيه في الشوارع المحيطة به " !

وعند وصولهما إلي السطح ، خلع الشيخ ياسين نعليه ، ففعل دي جوري مثله ، و وقف الحرس لتحيتهما ٠٠ وعبر الردهة المضاءة بالقناديل " شاهدت أبن سعود يقف منتصباً بقامته البالغة ستة أقدام وأربع بوصات ، حتى بين رجال الحرس البدو الطوال المنتقين بعناية كان يبدو عملاقاً في الطول والمنكبين ، رجلاً في شكل جبل ٠٠٠ مد لي يده ثم شد بي أن أجلس إلي يمينه على سجادة فارسية الصنع ، بينما ارتفع من الجانبين مصباحان ٠٠ وقد ابتسم الملك وهو يطرح الأسئلة حول الرحلة والطريق ٠٠ لم أر في حياتي ابتسامة طاغية أكثر من هذه الابتسامة ، أن لبعض الحكام العرب سحراً طاغياً ، وها هو سحر ابن سعود يبدأ في اسري "!

يعود الملك من قصره الصيفي في البديعة حوالي الساعة الثانية والنصف ليلاً بالتوقيت العربي أي بعد الغروب ، وينصرف إلي أعماله ، فيوقع الرسائل واحدة بعد الأخرى ، ثم يعطيها إلي سكرتيره ، كما يستقبل الزوار ، ويصغى إلي عرض لأخبار المقاطعات وأخبار العالم ، ولا يصغى إلي الموسيقى إطلاقاً ٠٠ وعند منتصف الليل بالتوقيت العربي يقرأ القرآن الكريم أو يستمع إلي قراءته ، وبعد ذلك يقرأ بعض الأدعية وينام حتى الفجر حيث يقوم إلي تأدية الصلاة ، وبعد

ذلك يرتاح قليلاً ، ثم يعمل حتى موعد صلاة الظهيرة . وبعد الظهر يعود إلي القصر الصيفي في وادي حنيفة المليء بالأشجار ٠

قبل أن نذهب لزيارة الملك عند المغرب كنت والشيخ يوسف ياسين نجلس على الأرض لكي نستمع إلي نشرة الأخبار من الراديو . وغالباً ما نستمع إلي إذاعة القاهرة ، وبعد الاستماع إلي الأخبار يسرع الشيخ يوسف إلي الملك لكي ينقلها إليه قبل أن ينساها ، وبعد ذلك بقليل يأتي خادمه ومرافق وحامل القنديل لمرافقتي إلي القصر ، وهناك يدور الحديث حول " توازن القوى " وعندما استأذنت بالانصراف بعد اللقاء بقليل طلب الملك مني البقاء ، وطلب قهوة ، فراحت الكلمة تنتقل من رجل إلي آخر ، وتسمى هذه القهوة " قشر " وهي شاحبة اللون ، ثم انتقلنا إلي الحديث حول موضوع الحبشة والحرب الدائرة هناك ، رأى الملك أن السلاح الذي يستخدمه الإيطاليون سوف يمكنهم من كسب الحرب ، ويرى أن الحرب قد تتطور إلي حرب كبرى ، وهكذا ينتقل الحديث إلي مواضيع كثيرة مثيرة للاهتمام ٠

ليس من السهل كثيراً النوم على السطوح في الرياض ، ذلك أن صوت السواني الخشبية يشبه صوت عازف متمرن لا يكف عن العزف ٠ بعد الاستئذان من الملك جاء إلي الشيخ يوسف بهدية الملك ، وهي عباءة من وبر الإبل مطرزة بخيوط الذهب ، وكوفية ، وعقال ، وخنجر ذهبي "!

كما دون " دي جوري " انطباعاته عن رحلته الثانية إلي الرياض في عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥م حيث أشاد بتحسن طريق الرحلة ، بالرغم من بعض المخاطر ، وشاهد صوراي المحطة اللاسلكية وبساتين النخيل وأسوار الرياض في طريقهم إلي " القصر الصيفي " حيث كانت الأعمال الملكية لا تزال تجري في القصر القديم داخل أسوار الرياض والمعروف بـ " قصر فيصل " جد الملك عبد

العزيز ٠٠ وأشار إلي أن شيوخ القبائل يأتون لحضور اللقاء السنوي للعشائر في بداية الصيف ، وخلال لقاء الملك بهم يقدمون طلباتهم وشكاواهم كما يقدمون ولائهم ويمنح كل شيخ هدايا تتناسب ومكانته ٠٠ ويضيف " دي جوري " :

" قادنا حاجب الملك عبر غرفة الانتظار إلي حجرة الاستقبال الخاصة بابن سعود ، وعبرها ودون توقف ٠٠ مررنا بالجنود المصطفين في الأروقة البيضاء ، ومنها إلي المدخل المقوس للديوان الملكي نفسه ٠٠ وتوجد على جانب الديوان ونهايته نوافذ تطل على ساحته ٠٠ والجانب الآخر للديوان يطل على مكان مضاء مشمس بحيث يمكن رؤية السائرين عبره دون أن يتمكنوا من رؤية الذين في الغرف المسقوفة المظللة ٠٠ والضوء قوي نوعاً ما بالخارج ، واقل قوة بالداخل ، ومعتم في نهايته ٠٠ والأرضيات مغطاة بسجاد فارسي ذي ألوان داكنة وياقوتية تتباين تبايناً واضحاً مع صف الأعمدة البيضاء التي تسند وسط الغرفة ، وتسقط أشعة الضوء ، عبر وسط المجلس ، ويتناثر وميضها ولمعانها على الأعمدة ، وعند نهاية المجلس يقف الملك وحيداً منتصب القامة ٠

كانت قامته العملاقة تنصب كاملة ، وهذه الوقفة الدقيقة تشبه وقفة العسكريين ، وهي عادة الأمراء العرب عند استقبال ضيوفهم ٠٠ كان جامداً شامخاً تتدلى عباءته من فوق كتفيه حتى الأرض في تناسق منتظم ، وملابسه بسيطة ولكنها جيدة الصنعة ومرتبة بعناية ، وتتكون من بردة من الصوف الناعم المستورد من دمشق ، وتعرف بصدر الحمامة ، وتضم ملابسه عباءة فضفاضة بنية اللون من وبر الجمال ، وشماغاً قرمزي اللون ، وعلى رأسه عقال من الصوف الأسود المعصب باللون الذهبي ، وهذا العقال لا يوجد في نجد إلا عند العائلة الحاكمة ، والذين يعطيهم الملك مثل هذا العقال ٠٠ "

ويواصل " دي جوري " سرد انطباعاته بشأن البرنامج اليومي للملك ، فكتب : " ينهض الملك قبل الفجر لأداء صلاة الصبح ، وباقي يومه مقسم تبعاً للفروض الدينية : صلاة الظهر ، صلاة العصر ، صلاة المغرب ، وصلاة العشاء ٠٠ ويصوم شهر رمضان ، وفي أغلب الأحيان يقوم سنوياً بأداء فريضة الحج ، وتتم تلاوة القرآن يومياً في أروقة القصر بين صلاتي المغرب والعشاء ، ويجلس مرتلو القرآن تحت ظلال الأروقة المقوسة المسقوفة على مقربة من غرفة جلوس الملك بحيث تصله أصوات المرتلين خافتة " ٠٠

ثم يمضي " دي جوري " حتى يوم الاحتفال بتقديم الوسام البريطاني وهدايا الملك " جورج الخامس " وقد قام بالتخطيط لبرنامج الحفل الملكي ٠٠ وكتب : " لقد أرسل ملك إنجلترا ثوب النبلاء وشعاراً مرصعاً لبرنامج الغد إلي ملك المملكة العربية السعودية ، وقد قام كل من استطاع أن يجد سيفاً بالذهاب إلي القصر في اليوم التالي لكي يحضر الاحتفال بتقديم وزير الملك (أندرو ريان) بالنيابة عنه هدايا جلالة الملك جورج لأبن سعود ، وعند مغادرتنا لقصر البديعة الصيفي برفقة مسئولي القصر والحراس الذين جاؤوا معنا من الساحل شاهدنا عدداً من الناس قادمين من الواحات المجاورة في وقت متأخر على حيواناتهم وراجلين مسرعين عبر الطرق المؤدية إلي الرياض ، وعند بوابة المدينة وفي المداخل الرئيسية للقصر وفي الأروقة وحجرات الانتظار تم ترتيب الحراس الملكيين الذين اصطفوا كطريق لا نهاية له من الرجال بالثياب المذهبة ، وسطعت عليه أشعة الشمس بحيث لا تجد لهم ظلالاً ٠

وعند أحد المداخل يوجد دليل الملك الذي يرجح أن يكون أعظم دليل مقتف عرفته الجزيرة العربية وهو " مشلح بن هدبا " ، وهو ذو مظهر رائع ، ولحيته مخضبة تخضيباً شديداً بالحناء ، كما أن عينيه مطوقتان بالكحل ، وقد وقف خلفه

فصيل من الأدلاء وصف من المتدربين ٠٠ إنهم متقفو الآثار الذائعو الصيت الذين ينتقون غالباً من قبيلة آل مرة التي تقطن في صحاري الجنوب القاحلة الكبرى ، ويعد أبناؤها من أشرس رجال الجزيرة العربية ، إذ يستطيعون التجوال بثقة في أماكن قد يتردد بدو القبائل الشمالية في الذهاب إليها ويستطيعون تمييز أثر الجمل الأبيض من الأسود ، وأثر أقدام المرأة العذراء من المتزوجة ، واثر أقدام المحارب من الشاب الصغير ٠٠ وجميع العرب يصدقون وجود هذه المقدرة ، لكن لا أحد منهم يستطيع أن يفسرها ٠

كان ينتظرنا عند نهاية قاعة الملك بجانب المدخل خمسة من أبنائه ، ويقف الملك نفسه بجانبهم بينما يقوم أبناؤه بتحية الوزير واحداً إثر الآخر ، وقد اسطف عند مدخل المجلس وحتى الأروقة حشود من الشيوخ مرتبة حسب مقاماتها ، والجنود ، وخدم الديوان الذين يقف خلفهم الحراس ٠٠ وأخذ جلالة الملك مكانه عند نهاية القاعة ٠ وسيفه " الرحيان " بالقرب من يده مخفي جزئياً ٠٠ وفي المدن لا يحمل الأمراء والمعروفون سيوفهم معهم ، وإنما فقط حراسهم ، وحمل أي زائر او أمير للسيف يعد خطا اجتماعياً يقارب الاهانة ، ولكن للملك دائماً سيف من سيوفه بالقرب منه ٠

وقف الملك والحاضرون ساكنين ومصغين للرسالة المقروءة بلغة أجنبية من ملك وراء البحار ، ومن خلال النوافذ المقوسة تلاحظ أشجار نخيل بعيدة في بساتين وقد تمايلت رؤوسها في انسجام مع نسيم منتصف النهار الذي هب عليها ٠

عندما ودعنا أبناء الملك باسمين عند المدخل ، وحضر مسئولو القصر لمرافقتنا إلي الخارج : رفع مؤذن مسجد القصر أذان صلاة الظهر مكرراً الجمل التي تدعو المسلمين للصلاة ، ومررنا عبر صفوف الجنود المصطفين في

الأروقة ولامست معاطفنا أسلحتهم أثناء عبورنا متجهين نحو البوابة الكبرى للقصر "

وكان " دي جوري " حريصاً على وصف رحلات الصيد الملكية ، فكتب : " يخرج الملك وحاشيته عند كل فصل ربيع للصحراء ليمكثوا فيها عدة أسابيع لممارسة الصيد ، وعندما يعطي الملك الأمر المنتظر بتشوق منذ فترة يمتلىء القصر بجلبة وفرح ٠٠ والمسئول عن الخيام عليه إعداد ما يقارب مئتي خيمة ٠٠ وهناك أولاً السرادقات البيضاء الكبيرة التي ترتبط ببعضها بممرات مسقوفة مليئة بالسجاد والوسائد ، مزينة بالحرير لاستخدام الملك ، وهنالك العديد من السرادقات أصغر حجماً مزينة بالحرير الدمشقي أو ملونة بنسيج هندي ، كما أن هنالك الخيام ذات الجوانب المستديرة المزينة في اعلاها المخروطي بأطراف محارية الشكل أو هي بدورها لها زخارف حمراء وزرقاء ٠٠ وأخيراً هنالك خيام التابعين من البدو وهي سوداء مصنوعة من صوف الأغنام ، وتقوم المطابخ الملكية بإعداد وتجهيز قدور الطبخ النحاسية الضخمة والعديد من أكياس الأرز والتوابل ، ورئيس الصيادين الذين يصطادون بالصقور والمشتغلين بصناعة البنادق وصيانتها لهم أعمالهم التي في انتظارهم ، ولمكتب الاتصالات أن يعد محطته اللاسلكية لتكون جاهزة ، وأخيراً يقوم الأمير الذي يقود القافلة الملكية بإصدار أمر التحرك إلي المكان الذي اختاره الملك " ٠٠

كانت الزيارة الرسمية قد شارفت على الانتهاء ، فوجه لهم جلالة الملك الدعوة لحضور حفل يقام في اليوم التالي في ميدان سباق الخيل ، اختتم بمأدبة وداعية كبرى ٠٠ وسرد " دي جوري " أدق تفاصيل ذلك الاحتفال التاريخي !

الكولونيل ديكسون

أو " أبو سعود " !

اشتهر عدد من الدبلوماسيين العسكريين البريطانيين كرحالة ومستكشفين في منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية ٠٠ " فالتعاون الوثيق بين الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية و وزارة الحرب البريطانية مكن من القيام بعدد من الرحلات السرية بهدف مزدوج جغرافي – أكاديمي وهذا الهدف المعلن المقنع للآخرين كان المسوغ لأن يباشر الضباط ذوو المهام الخاصة رحلاتهم ، وهذه هي الوسيلة التي استخدمتها الدول الكبرى لتحقيق أهدافها السياسية "

وهدف هذه النوعية من الرحالة والمقيمين السياسيين : جمع المعلومات السياسية والاقتصادية ودراسة عادات شعوب المنطقة وأحوالها المعيشية وتدوين المشاهدات لتوضع أمام صناع القرار السياسي ! ٠٠

وكان أبرز هؤلاء الكولونيل " ديكسون " المعتمد السياسي البريطاني في الخليج منذ عام ١٩٢٩ م والذي تجول في الجزيرة العربية وكتب عن حياته في الصحراء ، و وصف حياة البداوة ونظام البدو الاجتماعي ، ومفهوم الشرف العربي ، وتقاليد الزواج ، وملابس البدو وطعامهم ، وكل ما يتعلق بحياتهم في الصحراء ٠

ولد الليفتنانت كولونيل " هارولد ريتشارد باتريك ديكسون " في بيروت في الرابع من فبراير سنة ١٨٨١ م ، كان والده القنصل العام لصاحبة الجلالة البريطانية في القدس ، تلقى تعليمه في مدرسة سانت ادوارد

باكسفورد ، وكلية وادهام بجامعة اكسفورد ، انضم لفرقة حرس المشاة في عام ١٩٠٣ م ، وبعد أداء الخدمة العسكرية في إيرلندا والهند ، نقل في عام ١٩٠٨ م إلي الفرقة ٢٩ من حملة الرماح بسلاح الفرسان بالجيش الهندي ، ونظراً لمعرفته تم الحاقه بالفرقة ٣٣ بسلاح الفرسان خلال الحرب العالمية الأولى ، ثم أرسل إلي العراق في نوفمبر ١٩١٤ م حيث شارك في عمليات الاستيلاء على البصرة والقرنة والناصرية ، وأشيد بذكره في التقارير العسكرية ، في أغسطس ١٩١٥ م ، نقل إلي الإدارة السياسية تحت رئاسة السير " بيرسي كوكس " وساعد في تنظيم الإدارة المدنية في جنوب العراق ٠٠ عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة نقل وكيلاً سياسياً في البحرين وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٢٠ م عندما عاد إلي العراق ليشغل منصب الوكيل السياسي لمنطقة وسط الفرات ٠٠ ثم نقل إلي الهند عام ١٩٢٣ م ، وبعد أربع سنوات عين سكرتيراً للمقيم السياسي بالخليج العربي ، من مقر إقامته في البحرين ، بلغ السن القانونية في عام ١٩٣٦ م وظل في الكويت بصفته الممثل المحلي الرئيسي لشركة نفط الكويت ٠٠ وقد أتاحت له صداقته الشخصية للملك عبد العزيز والتي بدأت عام ١٩٢٠م والتي استمرت بلا إنقطاع حتى وفاة الملك عام ١٩٥٣ م ، وصداقته مع العديد من الشخصيات في الكويت والسعودية والعراق ، أتاحت له الفرصة للحصول على قدر كبير من المعلومات القيمة والمباشرة ، تم تسجيل بعضها في كتابه الأول "عرب الصحراء " ٠٠ وفي كتابه الثاني " الكويت وجاراتها " عرض الكثير من الذكريات الشخصية التي لم تسجل من قبل وتاريخ آل سعود والوهابيين وتقرير عن تمرد الأخوان عام ١٩٢٩ وتاريخ الكويت قديماً وحديثاً ٠

" على ساحل البحر ، في العاصمة الكويتية ما يزال بيت أم سعود يقف شاهداً على قصة : هارولد وزوجته فيوليت ديكسون اللذين قدما إلي

الكويت فأحباها وبادلهما الكويتيون الحب ، وفي الكويت بدأ الزوجان حياة جديدة واندمجا مع الكويتيين في الحضر والبدو ، وللصحراء مع ديكسون علاقة وثيقة الذي وأن حرم من دم بدوي في عروقه ، فأنه لم يحرم من " حليب عربي " حيث أرضعته إحدى نساء " السبعة " من قبيلة عنزة مما جعله أخاً لأبنائها وهي العلاقة التي كان ديكسون كثيراً ما يفخر بها في كتبه ٠٠ ويشتهر الزوجان في الكويت باسم " أبي وأم سعود " ولذلك قصة إذ كان هارولد ديكسون " في مؤتمر العقير " سنة ١٩٢٠ م مع الملك عبد العزيز عندما جاءه خبر ولادة أبنه الأول ، فطلب منه الملك أن يسميه سعوداً ففعل ، كما أن له بنتاً تحمل إسماً عربياً آخر هو " زهرة " والتي ولدت في الكويت وعاشت فيها إلي أن تزوجت وغادرت إلي بريطانيا ٠٠ وللسيدة فيوليت ديكسون كتابين هما : " أزهار الكويت والبحرين " و " أربعون عاماً في الكويت " وسجلت في الأخير مذاكراتها ، كما شاركت زوجها في كتابة بعض مواضيع كتبه خاصة فيما يتعلق بالنساء والنباتات والحيوانات البرية "

ومنذ عام ١٩٢٠م ، أصبح ديكسون وكيلاً سياسياً في البحرين ، فزار الهفوف ، وحل ضيفاً هناك على الملك عبد العزيز ، وتعرف على الشيخ فيصل الدوين ، وتعرف هناك للمرة الأولى على الحركة الإصلاحية الدينية التي بدت كمحاولة جديدة لتطهير الدين الإسلامي من الشوائب التي علقت به بفعل النفوذ الأجنبي ، وصف ديكسون معركة الجهراء وكان قريباً من الأحداث وشاهداً على حل الخلافات ومؤتمرات ترسيم الحدود ٠

قضى الزوجان ديكسون أربعة أيام ونصفاً في آخر شهر أكتوبر ، ديكسون على معرفة قديمة بالملك وأحد المعجبين به ، ومعرفتهما ببعض تعود إلي أوائل العشرينات ٠

دعـــا الملــك ديكســون بعــد تقاعــده مباشــرة مـن منصـبه كـوكيـل سياســي بريطانــي في الكويــت ، بصفة غير رسميــة ليستمع لوجهـة النظـر السـعودية حـول المشكلة الفلسطينيــة : لقـد شرحت له حقائق المشكلــة الفلسطينيــة المعقــدة أكثر من مرة بشكل قـوي ومؤثــر ، وكتـب عنهـا تقريـراً مفصــلاً ، فـي مجلس الملــك المطل علــى ساحـــة القصـر ٠ وصـــل الزوجـان ديكسـون إلــي الريــاض بواسطـة السـيارة وقطعـا الطريق من الكويـت في يوميـن ومـرا بـآبار رمـاح وبويــب ٠

كـــان للـزوجــان ديكســون اهتمـــام شـديــد بالنــاس والثقافـة والبيئـة لمنــاطق الجزيــرة العربيـــة التــي عاشـا فيهـا وتجـولا خلالهــا ، خاصــة الكويـت والمملكــة العربيــة السعودية ، كانت فيولـت Violet ديكسـون بارعة جداً في وصـف ما يحيط بها بشكل خاص . ورسمـت لوحـات مائيـة للزخـرفـة الداخليـة لقصـر البديعــة الـذي اقامـا فيــه ٠ كان الملـك حريصـاً أن يشاهد الزوجــان ديكســـون كل شـيء يرغبـان مشاهدته في الرياض وما يجاورها ٠

لقــد شاهـدا كل المدينـة وضواحيهـا ، وخرائـب الدرعيـة ، ومحطــة البـرق بالوسـيطي ، وقصـر المربــع ذاتــه ، وميـدان السـباق ، والمصـمك والسـوق . مـن الواضح أنهم أطلقــــوا العنان لإشباع نهمها بالمشاهدة ٠

مــع أن السيـد والسيـدة ديكسـون مجهـزان بــآلات تصـويـر لكـن من غيـر المعروف ما إذا الصـور التي التقطـاهـا لازالـت باقيـة ؟ شاهـدت فيولــت ديكســون داخـل قصـر نــورة أخـت الملـك خــلال مقـابلـة طـويلـة معهـا ، وذهبـت بعـد ذلـك لزيــارة قصـر المربــــع الجديـد الـذي تـــم بنــاؤه منـذ أمـد قـريـب . بمــا أنهــا قامــت بزيـــارات أيضــاً لأجنحـــة النســـاء فـي القصــر الملكــي ، وإذا مجمـوعــة الصـور لا تزال موجـودة فهـي تشكـل سجـلاً قيمـاً للمدينـة ٠ لقـد أعطيـت تسجيـلاً عن " العرضـــة " فوتوغرافيــاً ، وقـد تـم أداء العرضـة خـارج القصـر فـي الميدان

الرئيسي على شرف أحد أبناء الملك الشبان ، ونشرت أربع من هذه الصور في كتاب " الكويت وجاراتها " ٠

وعند وصول السيد والسيدة ديكسون الرياض آتيين من الشمال مارين بقصر المربع البارز جداً ، ظنا خطأ في البداية أن القصر هو مدينة الرياض ٠

وقد سجل الرحالة الدبلوماسي ديكسون انطباعاته عن هذه الرحلة فكتب : " وفي شهر أكتوبر ١٩٣٧ قمت أنا وزوجتي بزيارة الرياض تلبية لدعوة من أبن سعود ، فقطعنا مسافة تزيد على الخمسة آلاف ميلاً بالسيارة ، ذهاباً وإياباً . وعند عودتنا ، سجلت زوجتي انطباعاتها ٠ أما أحاديثي الخاصة مع فخامة الملك عبد العزيز آل سعود أثناء إقامتنا بالرياض ، والتي سجلتها هي الأخرى في هذا الفصل ، فكانت جياشة بالمشاعر وتسلط الأضواء على العديد من الحقائق خاصة عندما كان يناقش القضية الفلسطينية ٠ والواقع أن كلمات هذا الرجل العظيم والرائع حقاً ، والصديق الأصيل للحكومة البريطانية بلا شك ، كانت تستشرق آفاق المستقبل ، ولا زالت حية صادقة حتى اليوم . وكما وعدته ، فها أنا ذا أسجل بالتفصيل ، وأولاً بأول بعد كل حديث ، كل ما قاله لي في ثلاثة لقاءات طويلة . وقد أرسلت ما سجلت عند عودتي إلي الكويت ، ومعه رسالة خاصة وسرية ، إلي مستر ج.س.والتون ، مساعد وكيل وزارة الهند ، لإعلامه وإعلام حكومة صاحب الجلالة ٠

وكتبت فيوليت ديكسون : وكان فخامة الملك عبد العزيز آل سعود قد سبق له أن وجه الدعوة ، أكثر من مرة ، إلي صديقه ديكسون لزيارة الرياض . وفي هذا الصيف ، بينما كنت في لندن ، حصلنا على تصريح من

وزارة الخارجية ومن وزارة الهند للقيام بهـــذه الرحلـة ، كما لـم تبد شرطة النفط أيضاً أي اعتــراض ، واقترح علينا الملك ابن سعود فـي رسالـة بعـث بها إلينا أن تكـون زيارتنـا للرياض إمـا قبـل شهـر رمضـان – وكـان يبدأ فـي ذلـك العام فـي شهـر نوفمبـر – أو بعـد العيـد مباشـرة . وكـانـت الرحلـة تستغـرق ليلـة أو ليلتيـن في الصحـراء ولذلـك كـان أفضـل توقيـت لهـا هو أن تسبـق شهـر رمضـان ، حيث الجو جميـل ، ليـس شـديـد الحـرارة أو شـديد البرودة ٠

وصلــت من إنجلترا في ١٢ أكتوبـر ، وأجريت كافة الاستعدادات للسفـر في سيارتين فجـر يـوم ٢١ ، وأرسلنا إلـي الملـك خطابـاً بهـذا المعنـى . وتـم اختبــار القـــرب ، وأمرنا بتوفيـر خيمــة صغيـرة من النـوع الذي يحملـه الحجـاج معهـم وهم في طريقهم إلي مكـة ، إلي جـانـب اللوازم الضرورية فقط حتـى لا يتجـاوز حمولـة أي من السيارتيـن الحد الـذي يمكنهـا من اجتيـاز المنطقـة الرمليـة الوعـرة الممتـدة المعروفـة بالدهنــاء ٠

وفــي صبـاح يـوم ١٩ ، حضــر عبد الله النفيســي ، الوكيـل التجـاري لأبـن سعــود بالكويـت لزيارتنــا بعد أن تلقــى برقيــة من الملـك يقـول فيها أنـه يقيـم في مخيـم خـارج العاصمـة ويطلـب إرجـاء رحلتنــا لمـدة يـوميـن لأنه يريـد أن يكون في استقبالنــا بنفســه في الريــاض ٠

كتـــب هـارولــد ديكســـون تقـريـراً مفصـلاً عـن رحلـتهم فـي الطريــق مـن الكويـــت إلـــي الريـــاض ، ودون ملاحظـــات وفيـــرة عــن مشــاهداته الجغرافيـــة والجيولوجيـة ٠٠ وكتـب : وبينمـا نحن على وشـك الوصـول إلـي الحصـن ظهـرت إلـي يسـارنـا فجـأة قمـم أخاديـد نخيـل الريـاض ، ولـم يكن مـا نـراه أمامنـا فـي ذلـك

الوقـت هو مـا توهمت أنـه الريـاض ، ولكنـه كـان القصـر الجديد للملـك ، قصـر الشمسية ، وكان لا يزال قيد البناء ٠

تـوقفـت السيارة المرافقـة لنـا ، وأخبرنـا أن الملـك يرغـب منـا الـذهـاب مباشـرة إلي أحـد قصريـه الصيفيين الـذي يبعد عنـا بضـع مئـات من اليـاردات فـي البديعـة أقـل من خمسـة اميـال إلي الغـرب من العاصمـة ٠ ويسكـن الملك الآن فـي قصره الشتوي داخل أسوار المدينة ٠

وتـركنـا نخيـل التمـر علـى يسارنـا واستدرنـا حـول الواحـة من خـلال درب كثيـرة الصخور إلـي أن هبطنا ، بعد سبعة كيلو مترات ، إلي طريـق متعرجـاً شديد الانحدار بين الصخور انتهى بنا إلي ما يسمى بالباطن ، وهو السـهل الرملـي الكبير بـوادي حنيفـــة ، لنجـد أنفسنـــا أمـام قصريـــن يمتـد ورائهمـــا المزيـد مـن أخاديـــــد النخيل إلي أن تصل إلي جوار الجوانب الصخرية المنحدرة للوادي ، والتي لا يقل عرضها بحال عن نصف الميل ، وكان القصران ومـا يحيط بهمـا من بسـاتين يغطيـان حـوالي ثلثـي المسـاحة ، أمـا البقيـة فتركـت للسيـول الجارفـة التـي تنـدفـع بعـد هطـول الأمطـار ، وشيـد الملـك ، أسفـل سـور الحديقـة أمـام القصـر الـذي توجهنـا إليـه ، قاعـة خارجيـة صغيـرة خاصـة لـه ، وإلـي جانبهـا غرفـة صغيـرة لإعـداد القهـوة ، يجلـس بهـا فـي فصـل الأمطــار ليتنـاول قهـوة المسـاء بجـوار غـدران الميـاه المنهمـــرة ٠

يقـــول المثـــل العربـــي القـديـم : " ثـلاثـة أشيـاء تـدخـل البهجـة قلـب الرجـل : الخضـرة ، والمـاء ، والوجـه الحسـن ، ولا شـك أن هـذا القـول صـحيـح تمـامـــاً ٠

ثـم سـارا محـاذيين الطـرف الشمـالـي للـواحـة إلـي البـديعـة التـي وصفاهـا بالتفصيـل " وأسكننـا بأحـدث القصـريـن عمـرانـاً ، مـن المحتمـل أنـه نفس القصـر الذي أقام فيه كل من ريـن ودي جــوري . يتـألف مـن قنـائين (ليوانيـن) وغرف تحيط بكل واحد منهمـا ، وفنـاء صغير للخدم . والطـابق العلـوي مـن الفنـاء الأول مخصص للضيوف في الشتاء ، وفي الصيف يكـون مخصصـاً للنسـاء ، ويستخـدم الملـك الطابـق العلـوي من الفنـاء الثانـي والطابـق الأرضـي من مساكـن الضيـوف مخصـص لاستخـدام الخـدم ٠

فيمـــا يلـــي وصـــف مفصـــل للقصـــر وزخرفتـــه الداخليـــة : أعمـــدة تسنـــد الـرواق الجانبـي (الليـوان) الـذي يحيـط بالفنـاء ، شرفـات الأسـوار ، الخشبـات الثـلاث التي تمتـد فـوق الأعمـدة ، القماش المصبـوغ المستخـدم لتغطيـة السقـوف ، الأبواب والنـوافذ الخشبيـة المصبوغـة ، النقـوش الجصيـة المعقدة على الجـدران . الغرف مؤثثـة بستائر مـن الحـريـر ، وكراسـي خشبية ثقيلـة منجدة وأريكـات مـن بغـــداد ، وسجـــاد عجمـــي مـن كـل الأحجــام والحياكـــات – تمـامـــاً كمـا تظهـــر فـــي الصـور التـي التقطهـا شتـانيـك فـي السنة نفسـها ، وكمـا وصـفتها الأميـرة أليـس ، كونتيسة أثلـون ، في سنة ١٩٣٨ ٠

فـــي فنــــاء الملــك الــرواق (الليــوان) ذاتــه مؤثــث بأريكــات وكراســـي وسجــاد ، ومجلــس طويــل ملاصــق مـزود كـذلك بسـاعات ضخــام ربمـــا يشبـــه التــــاج ، وعلى جانبيـه مسنـدتـان كبيـرتـان مربعتـان ، وكـل واحـدة مغطـاه بثلاث مخـدات صغــار مصفـوفــة بجــوار بعضهــا ومغطـــاة بحريــر . وقمــاش السقف مشـغول بعنايـــة ومـــزين بقطـــع مـــن الحريـــر علــى هيئـــة دلال القهـــوة وأباريـــق الشـــــاي ، وأباريــق غلي المـــاء ، وأقمـار ونجـــوم ودوائـــر ٠

ولهــذا الفنــاء مدخــل منفصــل خــاص بالرجــال . يـوجـد فـي السطـح تحويطـة خاصـة يقــدم فيهـا العشــاء ، وفيــه أعمـدة لـرفـع معاليـق المصابيـح ٠

والقصـر الثانـي الأقـدم فـي البـديعـة مبنـي على الطـراز نفسـه ويستخـدمـه الملـك لاستقبـال المشايـخ والوجهـاء ٠

ورغـم مغـادرة الملـك القصـر متوجهـاً إلـي المدينـة منـذ عشـريـن يـومـاً ، كـانـت الساعـة الضخمـة فـي المجلـس لازالـت تعمـل وتشيـر إلـي الـوقـت بكـل دقـة ، وكـانـت القهـوة أيضـاً لا يتـوقـف إعـدادهـا وتقديمهـا للوافـديـن . وبينمـا نحـن نتجـول داخـل الغـرف ، جلسنـا بضـع دقـائـق فـي الشـرفـة بجـوهـا المنعـش وقـدمـت لنـا القهـوة ، وهنـا أخبـرنـا عبـد الله المسفـر ، وهـو أحـد معاونـي الملك فيصـل فـي العـراق ، وكـان قـد انضـم إلينـا ، وأخبـرنـا أنـه زار نيـويـورك مـع مستـر كـريـن منـذ عـدة أعـوام ، ثـم انتقلنـا إلـي السطـح حيـث يتنـاول الملـك غـداءه فـي الصيـف فـي ركـن مغطـى يستنـد إلـي دعامتيـن طويلتيـن ، زال عنهمـا كـل لـون أو طـلاء لمسافـة ثـلاثـة أقـدام ارتفـاعـاً علـى سطـح الأرض نتيجـة لمـا جـرت عليـه العـادة مـن ضيـوف الملـك من مسـح أيـديهـم بهـا ، وبمـا عليهـا من دهـون أو شحـوم مـن آثـار الطعـام ٠

اللقـاء الرسمـي الأول :

وصـف ديكسـون الأيـام التـي قضاهـا في الريـاض بأنها كانت كلهـا بهجـة ومتعـة ، وبرنـامـج الزيـارة كـان حـافـلاً بالمقـابـلات والمـآدب الفاخـرة ٠٠ كمـا وصـف اللقـاء الرسمـي الـذي استمـر ساعتيـن بحضـور بعـض كبـار المسئوليـن ومستشـاري الملـك ، فكتـب : أمضينـا فـي الريـاض أربعـة أيـام ونصـف اليـوم كلهـا بهجـة ومتعـة ، وأنجـزنـا برنـامجـاً حـافـلاً مليئـاً بالزيـارات والمقـابلات

والمـآدب والجـوالات الخارجيـة لمشاهـدة المعالـم الطبيعيـة ، بالإضـافـة إلـي حضـور العرضـة ، أو رقصـة الحـرب ، والتي قـدمـت ، كما قيـل ، تحيـة لنا ، وإن كان الواقـع يقـول أنها قـدمـت بمناسبـة انتهـاء أحد أبناء الملك الصغـار من حفـظ (ختـم) القـرآن كلـه ٠ وهـم يسمون الغـلام الذي ينهـي هذه المهمـة لأول مـرة بالخـاتـم ٠

وفـي صبـاح اليـوم التالـي لوصولنـا ، التقيـت بالملـك لقـاءً رسميـاً استمـر لمـدة ساعتيـن . فبعـد قـدمـت نفسـي فـي مكتـب وزيـر الخارجيـة ، السيـر فـؤاد حمـزة ، في القصـر الكبيـر ، صحبنـي فخامتـه إلي مجلـس الملك ، فوجـدة جـلالـة الملك عبد العـزيـز آل سعـود يجلـس على مقعـد مرتفـع في كرن من الغرفـة يطـل على الميـدان الرئيسـي أمام القصـر ، وإلـي يمينـه وإلـي يسـاره جلـس كبـار الأمـراء والمسئولين في الدولـة ، وإن كان بعضهم على مسافة بعيدة منه في الطرف الآخـر من الغرفة ، وكان الحاضرون هـم :

- حـاكـم حـائـل : الأميـر عبد العـزيـز بـن مسعـد الجلـوي آل سعـود ٠
- وثـلاثـة من أعضـاء بيت الرشيـد الملكـي وهـم الأميـر محمـد بن طلال الرشيـد ، والأميـر فيصـل بن طـلال الجابر الرشيد ، والأمير عبد الله بن متعب الرشيد ٠
- أبـن أخ الملـك : فيصـل بن سعد آل سعـود ٠
- أثنـان من أبنـاء الملـك : محمـد ومنصـور آل سعـود ٠
- حفيـد الملـك : عبد الله بن تركي آل سعـود ٠
- وأثنـان مـن مستشـاري الملـك : السيـد حمـزة غـوث والسيد شـريـف شـرف ٠
- ورئيس تحـريـر نشـرة أخبـار الإذاعـة : محمـد جسـور ٠

وبعد البروتوكول المعتاد ، قدمه الملك إلي الحاضرين ، ثم طلب منه أن يجلس بجواره ، وقال له الملك : " يا ديكسون ، أنت لست فقط صديقنا وصديق العرب ، ولكني أراك جئت مرتدياً ثياباً مثل ثيابنا كواحد منا ، ولذلك فالترحيب بك مضاعف " ٠

ثم انتقل الحوار إلي المشكلة الفلسطينية وتداعياتها ، والموقف من اليهود (الذين وصفهم الملك بالجنس الملعون) ، وموقف الحكومة البريطانية ، وقال بأنه يقبل أن تحكم بريطانيا فلسطين ولا يقبل أن تكون لليهود دولة مستقلة خاصة بهم مقتطعة من الأرض العربية .. !!

اللقاء الرسمي الثاني مع الملك :

عندما كنا في الرياض ، تجولت أنا وزوجتي في جميع أنحاء المدينة ، وضواحيها ، دون أي عائق ، وقمنا زيارات لمدينة الدرعية ، القديمة ، العاصمة السابقة لنجد ، ولمحطتي التلغراف والجراج الملكي ، ومحطتي الطاقة ، وقصر الشمسية الجديد المنيف ، ومضمار السباق ، وحصن عجلان الرشيدي الذي قبض عليه ابن سعود عندما احتل الرياض في انقلابه الشهير عند بداية تأسيسه لدولته ، كما قمنا بجولة في الأسواق ٠

وعندما علم الملك أنني أتجول في الأسواق صباح يوم ٢٧ أرسل في استدعائي و وجدته جالساً في قاعة للمجلس شبيهة بالقاعة التي التقيت به فيها المرة السابقة ٠ وبعد التحيات التقليدية والسؤال عن صحة زوجتي ، سألني عما إذا كنت قد زرت الدرعية ، وعندما رددت بالإيجاب ، قال أنني أستطيع أن أذهب إلي أي مكان في عاصمته وأن ألتقط كل ما اشاء من صور فوتوغرافية ٠

أنـت واحد منا يا ديكسون ، ولك الحريـة لأن تفعل كل مـا تريـد فـي بلادنـا ، تذهـب وتجـيء أينمـا شئت ، وكلما رغبت ٠

وعندمـا شكرتـه ، واصـل حديثـه فقـال :

ولمـا كنـت تـريـد بـلا شـك أن تتوجـه إلـي الهفـوف والقطيـف ، بعـد مغادرتك الرياض ، لترى آبـار النفـط هناك ، فقـد أبرقـت إلي إبـن جلـوي وطلبـت منـه اتخاذ كل الإجراءات اللازمة ٠

و وجـدت بعض الصعوبة في أن أبيـن لـه إن إجـازتـي لا تمتـد إلا لبضعـة أيـام ، وأننـي لـن أتمكـن من القيـام بهـذه الـزيـارة . وبعـد أن تليـت علينـا الأنبـاء العالميـة التي وردت من خـلال الإذاعـة ، وباللغة العربيـة ، انصرفت ٠

وكـان مـن المقـرر أن تبـدأ رحلـة العودة إلي الكويت بعد الغـداء يـوم الخميس ٢٨ ، وفي الساعة السابعـة من صباح ذلك اليوم شـهدنا العرضـة الكبرى ، أو رقصـة الحـرب ، والتـي استمرت لمـدة أربـع سـاعات فـي الميـدان الكبيـر أمـام القصـر ، شهدتهـا زوجتـي من جنـاح سيـدات الأسـرة المالكـة حيث جلست مع نـورا والأميـرات ، بينما شهـدتهـا وأنـا أجلـس علـى مقعـد أمـام الطابـق الأرضـي بالقرب من مدخـل القصر حيث تولى فـؤاد حمـزة العمل على راحتـي ٠

فـي كتـابـه الشهيـر " عـرب الصحـراء " حـاول ديكسـون أن ينقـل للقـراء والمهتميـن بشئـون الجزيـرة العربيـة : جوانـب مـن المعرفـة والخبـرات التـي اكتسبهـا علـى مـدار نحـو ربـع قـرن فـي المنطقـة ، فقـدم وصفـاً حيـاً وكـامـلاً لحيـاة البـدو فـي شمـال وشـرق جـزيـرة العـرب ، عايـش البـدو فـي خيـامهـم و وصـف بـدقـة تفاصيـل حيـاتهـم اليـوميـة ٠٠٠ " حتـى

ليجد القاري نفسه وقد اندمج في حياة البدو وعاش معهم في حلهم وترحالهم ، بخيامهم وبين مواشيهم ، وفي رحلات صيدهم وغزواتهم ، يتناول معهم الطعام ويشرب القهوة ، ويتحمل في الصيف القائظ الحرارة الشديدة والعواصف الرملية والجوع والعطش ، وينتشر معهم في الربيع بمراعيهم مع أغنامهم وأبلهم ٠٠٠ وعرف عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم حق المعرفة ٠٠٠ " كما تعرض في هذا الكتاب – بشيء من الافتراء – للعادات والأخلاق والمعتقدات الدينية !

وفي معرض حديثه عن " نفوذ شيخ القبيلة " و وراثة مشيخة العشيرة ، أكد على أن البدو " يحتاجون إلي قائد محظوظ في الحرب ٠٠ وفي السلم " فكل شئون حياتهم مرهونة بكلمة " الحظ " هذه ٠٠ " فابن سعود ، ملك السعودية ، يدين بعظمته للحظ الكبير الذي باركه وحالفه ، أو كما يقول البدو ويعتقدون بأن هناك عوامل هامة ساهمت في تكوين عظمته ، إلا أن هذه العوامل لا يمكن أن تقارن بالحظ الذي حالفه " ! ٠٠ فالحظ أو حسن الطالع من عوامل النجاح لشيخ القبيلة وللقادة والزعماء عامة ٠

وفي فصل بعنوان " الهدايا " أشار ديكسون إلي التقاليد الملكية في الضيافة وتبادل الهدايا ، وكذلك بين الأمراء والشيوخ تعد مظهراً هاماً في توطيد العلاقات ، فكتب :

" يعتبر الملوك ، كأبن سعود ، وكبار الأمراء والشيوخ ذوو الأهمية ، عن تقديرهم لشرف ضيفهم بمكوثه في ضيافتهم عشرة أيام ، ولكن على الضيف ، عند نهاية المدة ، أن يستأذن بالرحيل ، فيتبادل عندها كلا

الجانبين الهدايا ، المضيف لضيفه وجميع أفراد مجموعته ، والضيف للخدم ولحاشية مضيفه ٠٠٠ لقد تذكرت ذلك في المرتين اللتين زرت في إحداهما جلالة الملك عبد العزيز برفقة السيد برسي كوكس ، حين دفع كوكس عند مغادرته ستماية ريال سعودي إكراماً لخدم الملك وحاشيته ، بينما حصل هو وكل من أفراد مجموعته (أوروبيون) على فرس منتخبة وطقم كامل من الملابس الخارجية ، بينما كان نصيب الخدم عباءة وكوفية وعقال لكل منهم ٠٠٠٠ في كانون الثاني من عام ١٩٣٦ م عندما قام جلالة الملك ابن سعود بزيارة الكويت ، قام باهداء ثلاثمئة من حاشية الشيخ ، لكل منهم زبون وعباءة ، كما قدم خمسين ألف ريال سعودي لتوزيعها على المستحقين ، هذا بالإضافة إلي عشرة آلاف ريال للفقراء سلم معظمها باليد ، وأتبعها بتقديم إحدى عشرة سيارة إلي اقارب الشيخ ، أما الشيخ من جانبه فقد قدم خمساً وتسعين ألف ريال سعودي منها خمس وعشرون ألفاً لأولاد الملك ، وسبعماية وخمسون زبوناً وعباءة للحاشية "

إن مدونات هؤلاء الرحالة الدبلوماسيين وتقاريرهم أصبحت وثائق هامة في تاريخ جزيرة العرب وجغرافيتها وأوضاعها السياسية والاجتماعية في فترات محددة ٠٠ وأياً كانت دوافع ديكسون في خدمة المصالح العليا لبلاده ٠٠ ومعاصرته لبداية اكتشاف النفط وملامح التغير الاجتماعي ، إلا أنه تمنى : " بقاء صحراء العرب وسحرها والمغامرة إليها " !

أعظم المستكشفين لجزيرة العرب

هو واحد من أشهر وأهم رحالة القرن العشرين ، ممن جعلوا جزيرة العرب مجال عملهم وعلمهم ، وممن اجتمعت في شخصياتهم أبعاد الرجل العالم والباحث والسياسي والدبلوماسي والصحافي والمؤرخ والجغرافي والآثاري والتاجر ٠٠ كما أنه كان وما يزال أكثر الرحالة الذين أثاروا الكثير من الجدل والنقاش حول شخصياتهم وأهدافهم وطموحاتهم الشخصية والعامة ٠

بدأ " فيلبي " حياته الوظيفية في الخدمة المدنية البريطانية في الهند ، وعمل في الإدارات البريطانية في العراق وشرق الأردن ، و اختار المملكة العربية السعودية موطناً له بعد تركه الخدمة الحكومية البريطانية ، وأعلن إسلامه وتسمى باسم " عبد الله " ١٣٤٩هـ / ١٩٣٠ م ، ترحل كثيراً في الجزيرة العربية ، وكتب كثيراً عن رحلاته وتجاربه في المملكة من خلال كتب أصدرها أو مقالات نشرها ، وكانت زيارته الأولى للرياض في عام ١٣٣٦ هـ / ١٩١٧ م ٠

بدأت علاقة فيلبي بالجزيرة العربية تتوطد منذ عام ١٩١٨ م ، عندما أتى على رأس بعثة بريطانية للقاء عبد العزيز آل سعود حاكم نجد والأحساء في حينه . اختلف فيلبي مع سياسة حكومته في العراق ، بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبدأ باتخاذ مواقف سياسية تتعارض مع سياسة حكومته في المنطقة ، والتعبير عن مواقفه تلك علانية ، وخاصة فيما يتعلق بإقامة حكم ملكي في العراق . كما إنه أبدى احتراماً وتقديراً كبيراً لعبد العزيز آل سعود ، ورأى أنه هو الزعيم الذي يجب أن تتعامل معه بريطانيا لأنه الأصلح لقيادة العرب ولأنه النموذج المثالي الذي كان يحلم به . كتعبير عن عدم الرضا على أفكاره وأطروحاته

السياسية ، تم نقله عام ١٩٢١م إلي عمان كمندوب سياسي لبريطانيا في شرق الأردن ، الذي بقى فيه حتى عام ١٩٢٤ م . بعد ذلك ترك فيلبي العمل الحكومي عام ١٩٢٥م والتحق بالملك عبد العزيز ، ليرتبط مصيره منذئذ وحتى وفاته بالمملكة العربية السعودية .

منذ أعلن فيلبي إسلامه لقبه الملك عبد العزيز باسم " عبد الله " والذي عرف به لاحقاً ، عمل فيلبي خلال حياة الملك عبد العزيز مستشاراً غير رسمي له لرفضه أن يكون مستشاراً رسمياً ليحتفظ باستقلاله ، كما مارس التجارة ، والاستشارات التجارية ، ولعب دوراً في تقديم شركات التنقيب عن النفط في المملكة .

غادر فيلبي المملكة عام ١٩٥٥ م مجبراً بعد خلاف مع الملك سعود على ما كان يكتبه فيلبي عن المملكة في الغرب . تراجع الملك سعود عن قراره فعاد فيلبي إلي الرياض عام ١٩٥٦ م متفرغاً للكتابة . وتوفى في بيروت وهو في سنته الخامسة والسبعين عام ١٩٦٠ م .

خلال وجوده في المملكة ، قام فيلبي بعدة رحلات إلي مختلف مناطقها ، باحثاً ودارساً مكتشفاً لها . ولعل أشهر رحلاته تلك التي قطع فيها منطقة الربع الخالي وكتب عنها كتاب باسم " الربع الخالي " ، وساهم في شهرته العالمية كمكتشف جغرافي ورحالة عالمي . كما إنه كتب عدداً كبيراً من الكتب الأخرى التي تناولت تاريخ الجزيرة العربية في التاريخ القديم و المعاصر .

كانت القوى الدولية في مطلع القرن العشرين تطمح أن يكون لها نفوذ قوي في جزيرة العرب وبلاد الشام ، خاصة بعد تدهور أوضاع الدولة العثمانية .. وبعد

أن استعاد الملك عبد العزيز مدينة الرياض عام ١٩٠٢ م توالت تقارير الرحالة والمعتمدين السياسيين البريطانيين عن شخصية الملك عبد العزيز ٠

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، كانت جميع الخيارات مفتوحة أمام بريطانيا في جزيرة العرب ، ومرت العلاقات البريطانية بفجوة مع عبد العزيز "حاكم نجد " واحتدم الصراع بين عبد العزيز وشريف مكة ٠٠ إلي أن تلقى فيلبي توجيهات محددة من " بيرسي كوكس " المعتمد البريطاني في الكويت للقيام بمهمة إلي الرياض للقاء " ابن سعود " واكتشاف توجهاته السياسية ٠

في يناير سنة ١٩١٧م وصل " فيلبي " ورفاقه إلي الرياض على ظهور الأبل بعد سبعة أيام من السفر المتواصل ، وكان اللقاء الأول ، دهش فيلبي لشخصية عبد العزيز الجذابة وحزمه وتوازنه فاعتبره أعظم شخصية أنجبتها الجزيرة العربية لأكثر من ألف عام ، والمحارب الشجاع والحاكم الحازم والشاعر المفوه ، عظيم الجسم ، طويل القامة ، سحره جذاب ، وفي الوقت نفسه كان ذكياً وكريماً ومضيافاً ٠٠ مفاوض صلب ، ضليع في سياسات الصحراء وطبيعة ولاء القبائل وتحالفاتها من بلاد الرافدين حتى الحجاز ٠٠ كان واضحاً أن " فيلبي " قد تعلق بالملك عبد العزيز و وقع تحت تأثيره ٠٠ " لقد أثبت عبد العزيز أنه رجل من طراز غير عادي "

قبل بدء رحلتهم إلي الرياض ، كان " ابن جلوي " قد زودهم بجمال أفضل ، واستغرقت الرحلة خمسة أيام ، وأصر على أن يرتدوا الزي العربي ، لأنهم سيعبرون إقليم نجد المتشدد ، واكرمهم بهذا الزي : " الثوب " ، وبالنسبة إلي أناس في مركزهم لابد أن يرتدوا فوقها سترة ملونة " زبون " وأخيراً العباءة المشهورة في كل الجزيرة ، المنسوجة من وبر الجمال ، وياقتها مطوقة بخيوط

ذهبية ، ثم الصندل وغطاء الرأس المعروف ليكتمل الزي ، وقد رأي فيه " أوين " لباساً غريباً يمكن أن يرتديه فوق ملابسه ، ولم ينجح " سكوفيلد " ، على الرغم من كل محاولاته ، أن يبدو كشخص عربي ، أما " فيلبي " فقد شعر بالراحة في هذا الزي ، وتصور به على الفور ، وبدأ بالفعل بإطلاق لحيته ، وهو الأمر المعتاد في الجزيرة العربية ٠

سار الموكب تحت حراسة حامية جديدة ، عبر السهول والجروف وحزام الكثبان الرملية الحمراء المرعب والمسمى " الدهناء " ، ولاحظ " فيلبي " أن رعب هذا الحزام الرملي مبالغ فيه بشدة . وبعد خمسة أيام صعدوا آخر سلسلة من التلال مع تكبيرات بحمد الله ، ليروا أمامهم خط الخضرة لبساتين الرياض ٠

كان " فيلبي " في اليوم السابق قد أرسل مذكرة بوصولهم إلي عبد العزيز آل سعود ، وبذلك علم " هاملتون " أن بقية البعثة قد لحقت به ، وجاء لمقابلتهم ثلاثة رجال يركبون الخيل ، أحدهم المراسل الخاص لهاملتون ، والآخران من أتباع " عبد العزيز آل سعود " خصص أحدهما ليكون رفيقه عدة أشهر قادمة . وكره " فيلبي " ذلك " كرهاً يتزايد كل يوم من رفقتهما " ، هذا الرجل كان " إبراهيم بن جميعة " رئيس المراسم عند عبد العزيز آل سعود وقائد حرسه – للوهلة الأولى سار كل شيء بطريقة حسنة !

كان وصولهم إلي القصر الملكي بالرياض في ١٥ صفر سنة ١٣٣٦ هـ / ٣٠ نوفمبر ١٩١٧ م وسجل " فيلبي " انطباعاته الأولى ، فكتب : " كانت جموع من المارة القادمين للتو خارجين من الجامع يرمقوننا بنظراتهم ونحن نتابع سيرنا ببطء نحو ساحة القصر المكتظة بالناس ، وهناك أنخنا مطايانا بالقرب من بوابة القصر ، ومن ثم دلفنا إلي داخله ، وبدخولنا إلي القصر بصحبة إبراهيم مررنا عبر

ممر مزدحم يؤدي إلي ساحة داخلية ، من ثم صعدنا درجاً يقف على جانبيه العبيد المسلحون ورجال الحرس ٠٠ بعدئذ مررنا عبر دهليز ضيق أفضى بنا إلي ردهة مفتوحة مؤدية إلي الديوان الملكي ٠

ولجنا بعد خلع أحذيتنا عند عتبة المجلس ، إلي داخل غرفة واسعة مربعة الشكل ، وكان في استقبالنا رجل مسن يتصف بقوة البنية وقصر القامة ، حاد الملامح ، ذو عينين براقتين ٠٠ وحيانا بحرارة ومودة ، وأشار لنا بأخذ أماكننا على تلك المجالس الوثيرة في زاوية من زوايا الغرفة وبالقرب من نافذة مفتوحة ٠

وقد أدركت بعامل الغريزة وجود شخص آخر بالغرفة كان يقف بعيداً خلف العمود الأوسط ، عند دخولنا الغرفة ، كان جليل المظهر ، معتدلاً ، طويل القامة ، مرتدياً ثياباً بيضاء فضفاضة وعباءة باللون البني الفاتح ، وذا وجه رجولي معبر ، إن هذا الرجل هو ابن سعود (عبد العزيز بن عبد الرحمن فن فيصل آل سعود) إمام الدعوة الوهابية وحاكم بلاد الوهابيين ٠٠ أما الرجل الأول فإنه أبوه الإمام عبد الرحمن ٠٠ إنها المرة الأولى والأخيرة التي أرى الابن مع أبيه بموقف واحد ٠٠ ولحسن الطالع صادف وصولنا إلي الرياض يوم الجمعة ، فتم لنا مشاهدة اثنين من الأنظمة المرعية من قبل النظام الوهابي ، وهذان النظامان هما إغلاق بوابات المدينة وقت الصلاة ، والتقيد الدقيق بمباديء الأسرة وتقاليدها على نحو يصعب أن نجد له مثيلاً ، فكان الإمام العجوز قد درج في أيامه الأخيرة وبعد أن تقدم به العمر على أن يقوم كل يوم جمعة بعد أداء الصلاة بزيارة رسمية إلي ابنه بالقصر ، وفي هذا اليوم صادف وصولنا لحظة زيارة الإمام ٠٠ ونظراً لقدومنا إلي هذه البلاد كبعثة من الحكومة البريطانية فقد تم استقبالنا وإكرامنا في المجلس الرسمي وبين يدي الإمام الأب ، بينما كان ابن سعود جالساً في ركن قصي وهو يذل نفسه ويتواضع طاعة لما أمر به الله ٠٠ وفي هذه البلاد لا يتعمد الابن الدخول

إلي الغرفة العلوية بينما أبوه موجود في الغرفة السفلية ٠٠ وفي الحياة العامة عند مقابلة المواطنين فأن الابن بحضرة أبيه يجلس في مكان منخفض ، وهذا ينطبق على الأمير والتابع على الســواء " !

ثـم غـادر " فيلبي " الرياض في رحلة إلي " وادي الدواسـر " ، ثم عاد مرة أخرى إلي الرياض في منتصف شهر رمضان سنة ١٣٣٦ هـ / ٢٤ يونيو ١٩١٨ م ودون انطباعاته فكتب : في هذا الشهر كان ابن سعود يعقد جلستين في اليـــوم : الأولى بعد نومه الصباحي ، والثانية بعد صلاة العصر ، ليعالج أمور الناس ، ويسمع شكاواهم وتوسلاتهم إلي غير ذلك ٠٠ ونادراً ما يتركني بدون أن يطلبني مرتين خلال اليوم في الصباح والمساء ، ليناقش أموراً متعددة تتطلب اهتمامه الشخصي ٠

إن أول ظهـور للفجـر الكاذب يأتي تقريبـاً بعد سبع ساعات ونصف من غروب الشمس ، وكانت الإشارة لبدء الاستعداد ليوم جديد من الصيام تتم بتعليق لمبة ضوئية على ساريــــة تشبه المشنقة فوق سطح القصر الملكي ، بعد الآذان الأول ، يستيقظ كافة الناس ليجهزوا ليوم جديد : يأكلون ويشربون حتى ينادي الفجر الصادق بصوت آذان جوامع عدة ، ومن ثم يتوقف المصلون عن الأكل والشرب حتى آذان المغرب ، وذلك لمدة ١٥ ساعة ونصف مع الحرارة الشديدة والجو الجاف المغبر ، ولذلك كان النوم هو الملجأ الطبيعي لضعاف الروح ٠ لكن ابن سعود كان له عزم صارم وقليل من النوم والراحة ، ساعة بعد صلاة الفجر ، وساعتيـــن ونصف قبـــل الظهـــر ، وساعة قبل صلاة العصر ، وحوالي ساعتين (ولأقصى حد ثلاث ساعات) خلال الليل ٠

كـان ابن سعود يصعد إلي طابق علوي في جناحه الخاص في القصر قبل ربع ساعة من الغروب ، لينضم إلي عدة أفراد من العائلة المالكة ، وعند سماع صوت الآذان بنادي لصلاة المغرب يمسك كل رجل بحبة تمر بين إصبعين مرددين جملة : بسم الله ٠٠ مرات عدة مع الصلاة على النبي ٠٠ وتكون حبة التمر أول ما يبدأ به الإفطار ، ثم يليه شرب الماء لسد عطش اليوم ، ثم يقدم صحن كبير من شرائح البطيخ التي تستهلك في شهية كبيرة ٠٠ وتقام صلاة المغرب ، وبعدها يقدم العشاء ، ولكن القليل منهم يستطيع تناوله بعد أخذ كمية كبيرة من السوائل من الماء والبطيخ ٠

بعـد وجبـة العشاء يذهب كل رجل إلي بيته لينضم إلي زوجته وأولاده حتى صلاة العشاء حيث الذهاب مرة أخرى ألي مسجد القصر ، ولعامة الشعب الصلاة في مساجد المدينة . يلي صلاة العشاء قراءة القرآن بعد أخذ استراحة قصيرة من خلالها كان ابن سعود يأتي لزيارتي على سطح القصر الذي كان مخصصاً لي في الليل ، لأستطيع من هنالك دراسة صلوات المصلين في المسجد في الأسفل ٠٠ "

و وصـف " فيلبـي " في هذه الرحلة لقاءه مع " الإمام عبد الرحمن " ٠٠ والقصر الملكي ، ومطابخ القصر ونظام الحراسة ، والضيافة ، كما سجل انطباعاته عن مدينة الرياض وأسوارها العتيقة وبواباتها ، وسوق الرياض القديم ، وحصن المصمك ٠٠ والحفلة الملكية في " حديقة الشمسية " ٠٠

وجـدت البعثـة أن " عبد العزيز آل سعود " رجل لا يكل ، يقوم بالمقابلات ، يستمع إلي العرائض ، يحكم في القضايا ، يتناقش مع زواره ، يتوقف فقط من أجل الصلاة ، ولم يقطع هذه العادة إلا مرة او مرتين خلال وجود البعثة

لحضور احتفالين : أحدهما زفاف في العائلة وقد دعوا إليه ، ومرة في استعراض لركوب الخيل اشترك فيه مع ابنائه . في هذه الأوقات ، وكذلك في إحدى المرات التي زارهم فيها في مكان إقامتهم ، ولم يقل شيئاً عن رائحة التبغ المنتشرة ، تأدباً ، رأوه مسترخياً وسعيداً ، وكان في باقي الأوقات مشغولاً ، يعمل مكتفياً بالقليل من النوم ، حيث يطفأ المصباح النحاسي الهندي المعلق أعلى العمود في القصر ، حين يخلد إلي النوم . وجدوه محدثاً طلق اللسان ، غير معتاد على أساليب التفكير الغربية ٠

رؤيته لبعض جوانب الحياة الدينية والاجتماعية :

لقد كانت حياة " فيلبي " منذ مولده حتى وافته المنية أشبه بالأساطير ٠٠ وخلال حياته التي بلغت الخامسة والسبعين ، كانت شخصيته متعددة الجوانب غريبة الأطوار ، يتخرج في جامعة كمبردج ثم يقضي عشر سنوات في الهند – درة التاج البريطاني في ذلك الوقت – ثم يعمل في العراق والسعودية والأردن ، ويلعب أدواراً سياسية هامة ، ويحيا حياة البادية ، ويشتغل بالتجارة ، ويكتشف مجاهل الجزيرة العربية ، ويراسل الصحف ويؤلف الكتب العلمية والجغرافية وتمتد شهرته عبر القارات ، والمحيطات ٠٠

وفي كتابه " الذكرى العربية – Arabian Jubilee " كتب فيلبي : " لقد أحببت العرب حباً جماً يفوق حدود العقل والتصور ، وهذا ما حملني على التطبع بطباعهم ، والعيش كما يعيشون ، والتدين بديانتهم . وقد دفعني حبي هذا لهم إلي الاصطدام أكثر من مرة مع حكومتي ٠ مما اضطررت معه أخيراً إلي الاستقالة ، واعتزال العمل نهائياً في خدمتها ٠

أمــا قضية إيثار مصلحتهم على مصلحة بلادي ، فما كنت أعتقد قط بوجود أي تناقص بين المصلحتين ، لو أحسن الذين يوجهون سياسة حكومة بلادي الصنع ، وحققوا للعرب آمالهم ومطامحهم ، في الحياة الكريمة ، فمن شيمة العربي الوفاء لأصدقائه " !

وشـأنــه شأن العديد من عملاء الإمبريالية والمسيحية المستشرقين ن نظر فيلبي إلي العرب بعين بريطانية مسيحية مع فارق واحد هو أنه حاول تفهم الإسلام بعقل متفتح نسبياً ، في الوقت الذي دأب غيره من الرحالة على نقل الرؤية البريطانية السائدة عن الإسلام في القرون الوسطى . ومع ذلك ، شعر فيلبي في المرحلة الأولى من رحلته دأبه دأب العديد من الرحالة المستشرقين الآخرين الذين عاصروه ، أن هناك خطراً جسيماً يهدد ذاته البريطانية . فيكتب قائلاً " إن التعبير الصارخ في أرض المتعصبين عن كراهيتهم للكافر الموجود بينهم ... جعلني أعيش حياة منعزلة كئيبة " . إن آراء فيلبي عن العرب والإسلام تضم آثاراً من رد الفعل الطبيعي لمبشر مسيحي يعي جيداً هويته المسيحية .

ولا ريــب أن فيلبي يبدو في بعض الأحيان مادحاً للإسلام ومعبراً عن تقديره لسلاسة عقيدة ابن سعود ، إلا أن هذه التعليقات لا تترك أي انطباع عميق لدى القاريء ، حيث يكمن تحت القناع الذي يظهر به اعتقاده أن الإسلام ليس له أصل إلهي وأن محمداً قد ابتدع هذا الدين فقط ليفرض سلطانه على شبه الجزيرة العربية !

ويتشكـك فيلبي أيضاً في مفهوم المسلمين عن الجنة والحياة الآخرة ، ويرى أن سبب إيمان العرب الراسخ بالحياة الآخرة لا يرجع إلي تعاليم الإسلام أو الجاذبية التي تتمتع بها رسالته ، ولكن إلي الحالة المزاجية للعرب التي تلاءم معها الإسلام إلي أقصى حد : إن العربي متفائل حقاً ، نساء لآلام الماضي ، مكتئب بسبب ما

يحيط به من مشكلات طالما أنها قائمة ، وبالنسبة للمستقبل فهو يتخيل أموراً تافهة ، فهو يتخيل خيراً يتحدى حدود العلم ، يصفون أعشاب الصحراء الربيعية قائلين " هال طول " ، يكملون قصور لهجتهم الصحراوية بإيماءات تستحضر في ذهني رؤى غابات سهول الأعشاب الكثيفة والتي تتجاوز بكثير أقصى إمكانيات الربيع ، المقدر له إخلاف الرجاء في كلتا حاليه ، ويعظمون سنام البعير وقت الربيع كما يدخل المرء الجنة ، فلقد طبعت سنوات المو والعوز رؤيتهم الحمقاء لفردوس الإبل المنتظر ، فهل يمكننا أن نتساءل إذا كان هناك شيء في الأرض يمكن أن يزعزع إيمانهم الراسخ بوجود جنة للإنسان " ...

كمـا لاحظ فيلبي أن عبادة الأموات والتوسل بهم عند الله كان محرماً عند أتباع المذهب الوهابي . ويقول أنه إذا زار أحد أبناء نجد مقابر الأولياء بالحجاز ، فمن المؤكد أنه سيصعق لأول وهلة بسبب الممارسات غير الإسلامية التي يمارسها إخوانهم في الدين : " فبعضهم شاهد هناك بلا شك لأول مرة التوسل طلباً لشفاعة الأولياء ، وهو ما تعلموا أن ينظروا إليه باعتباره ذنباً لا يغفر " . ومع ذلك ، لم يجدوا أي ضرر في الدعاء برحمة الله للذين توفوا بالفعل : " أن الموت نصب عين المسلم التقى بشكل دائم ، وهو لا يذكر أبداً رجلاً قد توفى باسمه مجرداً ، ولكنه يضيف قائلاً : " الله يرحمه " ...

كمـا لمـس فيلبي الأثر الذي أحدثته الحركة الوهابية في قلب الجزيرة العربية ، فقد قيل له إن احتفالات العيد قبل بزوغ فجر الوهابية في القصيم كانت تتضمن جلسات الرقص والغناء وكل أنواع اللهو الصاخب بما في ذلك العروض العسكرية ، ولكنها سرعان ما تحولت إلي احتفالات دينية خالصة تقام فيها الصلوات وتذبح الأضاحي ، أما ما تبقى من الوثنية فكان صخباً مزعجاً من الغناء والضوضاء يستمر صبيان المدينة في ترديده طوال الليل ، كما يحكي فيلبي بعض

العادات العربية التي كانت شائعة في قبيلة " مرة " بوادي الدواسر حتى ظهور الحركة الوهابية ، فقد أخبره أحد رجال هذه القبيلة ، ويدعى جابر ، أن أهل الوادي لم يعرفوا الصلاة قبل بسط الوهابيين نفوذهم عليه ، كما كانوا يتزوجون بدون شيخ يزوجهم أو شهود ، حيث تتم زيجاتهم وفق الطريقة البدوية : ٠٠ يضع العروسان المقدمان على الزواج " مشاعبهما " أي : عصي الجمل بينهما ثم يدوران حولها مرتين أو ثلاثاً وهما يرددان معاً تلك الكلمة البسيطة " مليشنا " أي : " تزوجنا " ، وبهذا يصبحان زوجاً وزوجة دون أية مراسم أخرى لإتمام الزواج ٠

وكــذا نقل فيلبي عن رجل يدعى ابن جلهم أن عادة ختان الإناث ، وهي عادة وثنية من عادات الجزيرة العربية القديمة ، كانت لا تزال منتشرة بين بدو منطقة الدواسر ، وكذلك في المناصير على ساحل الإحساء ، ومعظم قبائل عمان ، إلا أن قبيلة مرة التي كانت تسكن وادي الدواسر اعترتها عملاً مشيناً ، ويرى فيلبي أن البدو اعتبروا النظافة الشخصية مسألة ثانوية ، ومرد ذلك كما أوضح في نبرة تهكمية أن المسلمين يتطهرون بالرمال " ٠٠ ربما كان هذا ضرورياً في بلد يندر وجود الماء فيه ، ويتوافر البديل المباح وهو الرمال "

هــذا وقد التقى فيلبي بين الحين والآخر ببعض الطوائف الدينية التي كانت تتبع مذاهب مختلفة خاصة بقبائلهم بعيداً عن المنهج الوهابي ، مما جعل فيلبي يقدر دور الحركة الوهابية في توحيد القبائل العربية المختلفة حول عقيدة واحدة حيثما استطاعت بسط نفوذها . ولكن حيثما عجزت الوهابية عن بسط نفوذها كانت كل فرقة غارقة في صراع مع أخرى حول أدق المسائل الدينية ٠٠٠

لقــد تأثر فيلبي كثيراً بالحكم الوهابي ، وقدرة ابن سعود على السيطرة حتى على أعتى خصومه . كانت أبرز الأمور التي أثارت دهشة فيلبي في بلاط

الوهابيين وجود الكثيرين ممن كانوا يوماً من الأيام من ألد خصوم ابن سعود ، غير أنهم صاروا من رجاله بسبب " الصفعات القوية التي وجهها لهم في ساحة الوغي ، ونبله الثابت في ساعة النصر ، وهو درس آخر استخلصه من إخفاقات أسلافه " .

ويصف فيلبي أبن سعود بأنه " حكيم في جيله " ، حيث أبدى لين الجانب مع أهل القصيم والإحساء ، إذ تجاوز عن أمور لو وقعت في مكان آخر غير الإحساء لكان لها ضرر جسيم على دعائم حكمه ...

ورغم إعجاب فيلبي بأبن سعود وبعض أصدقائه المقربين الذين سعد برفقتهم ، إلا أن وصفه للعرب عامة في سرده للأحداث يوافق فكرة البريطانيين التقليدية المعادية للعرب والإسلام ، فقد رأى أن عرب نجد الوهابيين لا زالوا قابعين في الهمجية التي تجاوزها أهل عنيزة لاحقين ركب الحضارة . وهذا الثناء مرجعه إعجاب فيلبي بالنظرة الدنيوية عند أهل عنيزة ، حيث يرى أن ما يميزهم عن باقي أهل نجد هو سخاء ضيافتهم ، وتحررهم من ربقة التعصب الديني أو الطائفي على اختلاف أنواعه : " لقد بدا لي وكأنني انتقلت فجأة من مجتمع بربري إلي آخر متحضر للغاية بل وعلى قدر من الثقافة ، حيث ينظر فيه للغريب الذي يعيش في كنفه لا على أنه محل نفور وريبة بل على أنه ضيف على المجتمع ككل يتوجب على كل بيت في المنطقة أن يحسن ضيافته بغض النظر عن مشاعر هذا الضيف نحوهم . كان من حسن حظي أن أشهد وأعيش التجربة في كل أقاليم نجد تقريباً قبل أن ينتهي بي المقام في القصيم ، كما كنت محظوظاً كذلك لأنني تجرعت مرارة التجربة قبل أن أذوق حلاوتها "

لم يجد فيلبي في الجزيرة العربية ما يدل على قيام أي حضارة بها ، حيث إن الكيان الأسري والتقاليد القديمة لا تزال تجمع بين الناس ، وينتقد كل

ما لا يثبت صحة مفهومه عن المجتمع المتحضر ، ويظهر كيف كان يقيم حكمه على المجتمع العربي وفق المعايير الغربية للحضارة ٠

مما لا شك فيه ، أن فيلبي كان مدعوماً من حكومته البريطانية ، لدراسة أحوال بلاد العرب ، خاصة الجزيرة العربية ، وقد اعترف بذلك في مواضع عديدة من مؤلفاته ، وكان من حسن حظه ظهوره في عهد الملك عبد العزيز آل سعود الذي كان يرغب في الحصول على أمثال فيلبي كي يقوموا له بالعديد من المهمات السياسية والعلمية ، فكان لقائهما عام (١٣٣٦ هـ / ١٩١٧م) ثم علاقتهما التي استمرت نحو أربعين عاماً ، أخرج خلالها منظومة علمية متكاملة عن جزيرة العرب ، قائمة على الرحلات والتجوال في أرجاء الجزيرة العربية ، على الرغم مما لاقاه من عقبات جغرافية وسياسية وأمنية واجتماعية ، تجاوز فيلبي كل ذلك بفضل صادقة وحماية ودعم الملك عبد العزيز ، ثم عزيمته الفريدة في التغلب على الشدائد وسعة معارفه وثقافته وإتقانه اللغة العربية ، بالإضافة إلي دبلوماسيته سواء مع حاشية الملك عبد العزيز أو مع عامة الناس ، وتعمقه في معرفة العادات والتقاليد المتوارثة ، حتى صار خبيراً بأحوال أهل جزيرة العرب وقيمهم ، فترك لنا كنزاً معرفياً هائلاً عن جزيرة العرب ٠٠ بإيجاز شديد ، يمكننا القول بأن الصحراء العربية وافقت مواهب فيلبي واستحق أن ينقش على قبره : " أعظم المستكشفين لجزيرة العرب " !

في صحراء الربـع الخالــي

بقيت هذه المنطقة من الجزيرة العربية مجهولة تماماً للعالم ، لا يعرف عنها شيء ، تلك هي المعروفة بالربع الخالي ، وقد كان هذا الربع الخالي يعتبر من أكثر مناطق العالم انغلاقاً ، وصعوبة اجتياز ، فهو بحر من الرمال ، ولا تكاد توجد به آبار ماء ، وهي إن وجدت فالمسافة بين البئر والأخرى تبلغ أحياناً نحو أربعمائة ميــل ٠ كل هـــذه العقبات كانت تصرف أنظار الرحالة عنه إلي غيره ، وقد وصفه الرحالة داوتــي في كتابه " رحلات في الصحراء العربية " قائلاً : " إنني لم أجد أحد بين العرب يستطيع أن يحدثني عن الربع الخالي وما فيه ، ولو حديث خرافـــة " !

إن حجــب الجهل التي كانت مسدلة على معظم أجزاء الجزيرة العربية كانت قد هتكت باستثناء الحجاب المسدل على منطقة " الربع الخالي " الذي كان مزمعاً أن يمزق في تلك الأيام ٠

يبدو أن إحدى الغرائب التي تروى عن الربع الخالي هي أن الجميع بما فيهم بعض أهل شبه الجزيرة العربية يدعون أن هذه المنطقة خالية من السكان (مع أن فيلبـي يقول انها ليست خالية من السكان) ، وهكذا فالرحالة المتمرسون يعتقدون أن حالة الإقفــار التام مبالغ فيها ، وهذه المنطقة أي الربع الخالي تشتمل على منطقة جنوب شرق الجزيرة العربية بأكملها وتؤلف حدودها المرتفعات الواقعة على الساحل ، وأما القسم الجنوبي الشرقي من الربع الخالي فهو يتألف من سهوب أفقية مستوية عارية قاسية ، وأما الثلثان الباقيان فهما عبارة عن صحراء عادية وهي امتداد واسع لرمال ملساء تشبه المحيط يبلغ اتساعها ٦٠٠ ميل ٠٠ ويبلغ عرض

الربع الخالي بما فيه السهول والرمال الممتدة من الشمال الغربي إلي الجنوب الشرقي يبلغ (٤٠٠) ميل ، وفي الوسط وقرب حضر موت تضيق أراضيها فتصبح بعرض (٢٠٠) ميل ، وهذا العرض على قلته كاف للقضاء على أي رحالة غير مستعد استعداداً كافياً !

كتب س . ب . مايلز المعتمد السياسي والقنصل البريطاني في عمان (١٨٧٢ – ١٨٨٠) يصف صحراء الربع الخالي بأنها هي : " الصحراء العربية الكبرى ، أكبر رقعة رملية قفراء غير مأهولة في القارة الآسيوية ، ويبلغ طولها ٧٠٠ ميل ، وتقع بين عمان شرقاً حيث يوجد أعرض جزء منها ، واليمن على الغرب حيث توجد أضيق مناطقها ، ومن الشمال تحدها مجد واليمامة والأحساء ، ومن الجنوب حضر موت ، وظفار ، والبحر الجدري يمتوسط عرض ٣٠٠ ميل . أما عن المعالم الطبيعية لهذه الصرحاء فنحن نكاد نجهل عنها كل شيء ، إذ لم يقم أي من الأوروبيين حتى الآن باكتشاف أعماقها ، ومعلوماتنا عن سكانها البدو باهتة وغير أكيدة ، بحيث لا يمكن أن نعول عليها . وعلى أية حال فالمعلوم أن هناك منطقة الدهناء الواقعة على الشمال الشرقي . وهي منطقة منعزلة ترصعها سلسلة من كثبان الرمال الحمراء التي تشبه أمواج المحيط ، حيث لا وجود لأي نبات ، وحيث لا يستطيع حتى البدو الرحل التجول فيها . وهناك جزء من هذه الصحراء يسمى الأحقاف التي يقال إنها تحوى أكواماً من الرمال تغطي أجزاءها الصخرية السوداء .

والعرب يصفون جزءاً كبيراً من الصحراء بأنه سهل مموج تشقه سلسلة ، التلال المخفضة ومجاري المياه الضحلة الجافة بالإضافة إلي تلال الرمال ويبدو أنه لا يوجد شيء بارز فيه أو لافت للنظر . وتتشكل البرك من خلال سقوط الأمطار ، وبعد أن تتبخر المياه تبرز طبقات الملح التي تغطي تلك البرك مما يضفي عليها

منظراً أبيض اللون . وتلال الرمل الواقعة على الجزء الشرقي من الصحراء تعرف باسماء متعددة منها كواد ، والأحقاف ، والكثيب . وإذا تناولنا الصحراء عموماً فأن البدو يطلقون عليها اسم المنطقة غير المطروقة ، كما يسميها البعض بالصحراء . أما في مؤلفات الجغرافيين العرب فإن الاسم الذي يطلق على هذه الصحراء هو "الربع الخالي " غير أن البدو لهم أسماؤهم الخاصة لمختلف المناطق ، والواحات التي لها سماتها ومعالمها الخاصة . ولعله لا توجد منطقة في العالم كله تضارع الربع الخالي في جدبه وجفافه ، وحيث إذا استثنينا بعض البدو الرحل والجمال والماعز والحيوانات المتوحشة فلا يوجد أي أثر للحياة فيها ويخيم عليها السكون والوحشـــة ٠

وبعــد أن ازداد عدد أولئك الرحالة الذين سافروا إلي بلاد العرب بقيت منطقة لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها ، فقد تركت فرصة الوصول إليها لأولئك الرحالة الإنجليز الثلاثة العظماء وهم جون فيلبي وبرترام توماس و ولفرد ثيسيجر Thesieger وهم الأبطال الثلاثة الذين عملوا جاهدين على ترويض تلك المنطقة المجهولة وهي " الربع الخالي " ٠

وتتميز أهمية كتابات " برترام توماس " ٠٠ كونه أول رحالة يتمكن من عبور صحراء الربع الخالي . تعلم توماس في مدرسة القرية ثم تلقى دروساً خاصة والتحق بالجيش عام ١٩٠٨ وعمل في العراق ، في المكتب السياسي برئاسة السير أرنولد ويلسون ، ومستشاراً للحكومة العربية في شرقي الأردن عام ١٩٢٢ ، ومستشاراً مالياً لسلطنة مسقط عام ١٩٢٤ ، وقام برحلته التي عبر فيها صحراء الربع الخالي عام ١٩٣٠ – ١٩٣١ وكشف عن أسراره المجهولة . بعد تركه الخدمة في الحكومة ، تفرغ إلي الدراسة والكتابة حتى عين مديراً لمركز الشرق الأوسط للدراسات العربية (شملان) عام ١٩٤٤ بلبنان . وكان توماس كما يصفه بيدول رحالة " محترف من قمة الرأس إلي أخمص القدم " . وكانت أمنيته أن يجتاز

الربع الخالي ومن حسن حظه أنه وجد الوقت الكافي لكي يعد نفسه للرحلة بكل لوازمها ساعده على ذلك علاقته بسلطان مسقط حيث عمل مستشاراً مالياً و وزيراً مفوضاً ، وقد اصطحبه السلطان معه في العديد من رحلاته بالمناطق الساحلية لشرق عمان . وهو أول من وصف رمال الربع الخالي " ما أشد وقع هذا البحر الهائل من كثبان الرمال عندما تقع عليه أنظار المرء لأول وهلة ٠٠ فتراه يمتد أمامك أمواجاً بعد أمواج ، وفجأة ترى جبلاً هائلاً منتصباً أمامك يطل عليك من عليائه كئيباً كالشيطان ! ومن ورائه ينبسط الوادي مرة أخرى دون أن تلوح للنظر على مدى أيام نبتة واحدة خضراء ٠٠ الكثبان هنا من كل الأحجام ٠٠ متناثرة بلا نظام . ولكنها كلها كاملة الاستدارة كأنها نهر عذاري أبكار . وتمتد في حزام بعد حزام كأنها سلاسل جبال . والشمس عمودية تماماً فلا تكاد تجد للكثبان ظلالاً على الرمال " ٠ وفي مناسبة أخرى يقول : " وقد تأتي لحظة يجد المرء نفسه أمام لوحة رائعة الفخامة والجلال كأنما أبدعتها ريشة فنان عظيم شديد الكبرياء بلون أحمر وردي عميق الصفاء ، تحت سماء بلا غيوم ، وضوء ساطع بهيج ٠٠ هنا يشعر المرء بنفس الشعور الذي يغلبه مع شتاء سويسرا ٠٠ حيث الطبيعة تتحدى أعظم الرسامين ٠

وعن بداية اهتماماته بمنطقة الربع الخالي ، وكيف تبلورت فكرة وضع خطة لاجتيازها يقول : " عملت ثلاثة عشر عاماً قضيتها في السلك السياسي بعد الحرب العالمية الأولى في ثلاث جهات من الجزيرة العربية وقد مكنني هذا من إتقان اللهجات القبلية والعادات العربية والتأقلم معها ٠ وقد كرست لنفسي سنوات كثيرة لمهمتين ، هما كيف أضمن وسلة للوصول إلي أغوار المنطقة ، ثم كيف يمكنني أن أكسب صداقة القبائل هناك . وقد بدأت صلتي بالناس في المنطقة الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية ، بعد أن عينت مستشاراً في مجلس وزراء عمان وذلك بالنظر إلي العلاقات الودية القائمة بيني وبين سلطان البلاد وقد أتاح لي هذا الوضع أن أعقد صلات كثيرة وعلاقات وثيقة مع الشخصيات العربية ذات

النفوذ في تلك المنطقة ٠ وقد أسفر هذا عن موقف يتسم بالتسامح والود تجاهي كرجل إنجليزي ومسيحي في الوقت نفسه ، ولولا ذلك لكان من المستحيل علي أن أضع قدمي على تلك البقاع ٠

لم يكن الربع الخالي بالنسبة لكل من يعرفونه سوى رمز للعوز والحرمان والموت ، وهذه الصفات التي كانت مرادفة لكلمة (القفار) أصحبت بالنسبة إلي اثنين من الرجال الذين عرفوا بلاد العرب وصحاريها معرفة تامة ، رمزاً للتحدي ، فمن وجهة نظر توماس وفيلبي أصبحت هذه الـ ٢٥٠٠٠ ميل مربع التي كانت تعتبر موطن الدمار أصلاً ، ميداناً يطيب به الصراع من أجل السيادة ٠ فقد كان السباق بين هذين الرجلين ليصبح كل منهما أول رجل أوروبي يعبر الربع الخالي ، هاجساً من الهواجس التي انتابت كلا الرجلين ٠ وأخيراً وعندما حان الوقت لتحويل أحلامهم إلي الحقيقة والواقع ، برهنا على أنهما يستحقان كلاهما أكاليل النصر ٠

ولقد كتب لورنس في عام ١٩٣٢ في مقدمة كتاب برترام توماس Pertram Thomas وهو (بلاد العرب السعيدة) يقول : لا نعرف أول رجل وطئت قدماه تلك الأراضي البكر بقصد الاستكشاف ولكن من المؤكد أن توماس كان آخر رجل قام بذلك ، وقد أتم رحلته بالطريقة القديمة التقليدية راكباً على جمل يزرع الأرض بألم وصمت ، لا يملك شيئاً غير صفات الصبر والإقدام " هكذا وصف لورنس رحلة توماس العتيدة التي لم تكن آخر رحلة إلي شبه الجزيرة العربية إذ أنه قد أتى بعده بعض الرحالة الذين جعلوا رأي لورنس مقبولاً وجديراً بالتصديق ، وفي الوقت الذي كان به توماس على وشك دخول الربع الخالي كان (فيلبي) يستعد للقيام برحلة مشابهة ٠ وهكذا كان هنالك نوع من السباق بين الأثنين للحصول على شرف التغلب على تلك القفار الخطرة المغرية ٠

ومنــذ نهايـة الحـرب العالميـة الأولـى بـدا تومـاس يعمـل بنشـاط فـي الشـئون العربية وبعد تركه الخدمات السياسية ، عين وزيـراً فـي مجلـس الدولـة فـي عمـان ٠ ولم تكن هذه الوظيفة قفزة نحو الاستقلال الشخصي مادام أن عمان كانت ولـم تـزل متصلة اتصالاً مباشراً ببريطانيا ٠ ولكن مركزه قد أمن لـه عدة فوائـد ولا سيما أنـه أصبح صديقاً شخصياً لشيخ عمان ٠

ولمــا كانت عمان تقع على السـاحل المتـاخم للربـع الخـالي لذلك فهـي تصلـح لتكون قاعدة للانطلاق ٠ وكانت استعداداته تشمـل عدداً مـن الـرحلات الاستكشـافية الأولية ٠ فقد قام برحلة يبلغ مداها (٦٠٠) ميل ابتداء من مدينة صويح Suwaih فـي (جعـلان Jaalan) حتـى أطـراف الربـع الخـالي إلـي الجنـوب الغربـي مـن صــلالا Salala ٠

وعــن تحضيراته الأوليـة السرية لرحلتـه التـي سيقطع فيهـا صـحراء الربـع الخالي يقــول : " كنت أعد خططي في الخفاء ، حتى لا يعرف من أمري شـيء إلا بعد البدء فـي الرحلـة ٠ وقد كنـت أتحمل بنفسـي نفقـات هذه الـرحلات ، كمـا كنـت المسئول الوحيد عن تنفيذها . وعلـى امتداد خـدمتي فـي مسقط – اعتدت أن أقضـي فصول الصيف هناك مستغلاً إجازاتي – وهـي التـي كـان من المفترض أن أقضـيها في الهند هرباً من الحر فـي مسقط – لأن عمليـات البحث والاستكشـاف فـي أنحـاء الجزيرة العربية لا يمكن أن تتم إلا في فصل الشتاء (وسنرى أن ثيسجر أيضـاً لـم يكـن يقـوم برحلاتـه إلا فـي فصـل الشـتاء) ، وهـو الفصـل الـذي يمكـن أن يتحمـل الإنسـان فيـه حـرارة القيظ . وهكذا فـي خـلال الإجـازة بـدأت أبحث وأضـع خريطـة للربـع الخـالي منطقة إثر منطقة " ٠

ثـــم قـام بعد هذه التحضيرات بـرحلات قريبـة علـى أطـراف الربـع الخـالي كنوع من التدريبات العمليـة لمـا سيقوم بـه مـن رحـلات أطـول ، ففـي شتاء ١٩٢٧- ١٩٢٨ قام برحلة على ظهور الجمال مداها ٦٠٠ ميل ، عبر الحدود الجنوبية لعمان المطلـة علـى المحـيط الهنـدي إلـي ظفـار . وفـي عـام ١٩٢٩ – ١٩٣٠ قـام باجتيـاز المنحـدرات الواقعـة إلـي الشـمال فـي ظفـار حتـى أطـراف منطقـة الرمـال إلـي امتداد ٢٠٠ ميل ، من تلك المنطقة وكان في كل المناسبات يرتدي الزي البدوي ، كما كان يتحدث باللهجة المحلية الدارجة ، وكان يعيش كما يعيش أهل المنطقة ، ويـذكر أنـه امتنـع عـن شـرب الكحـول والتـدخين ، فـي محاولـة للتظـاهر بـالالتزام بعـادات أهل المنطقة ، الأمر الذي " كان يسهل من مهمتي فـي اجتيـاز منطقـة الصـحراء الكبـرى من البحر إلي البحر "

يـذكـر توماس أنه اختار لمرافقته مجموعة من البدو من قبيلـة الرواشد هم سـهيل وخـويتم ومعيـوف وقـد اختـار ثيسـجر بعـده أيضـاً عـدداً مـن البـدو الرواشـد لمرافقتـه اشـتهر مـنهم (بـن كبينـة) و (بـن غبيشـة) . ويصـف تومـاس هـذه القبيلـة بأنها " أهم قبيلة في منطقة الرمال الجنوبية ولـم أكـن لأستطيع اجتيـاز الربـع الخـالي بنجـاح ودون مسـاعدتها " ، وقـد وجـد تومـاس بالفعـل الاسـتعداد لـدى هـذه القبيلـة لمساعدته " فكرت في تجهيز فرقة تحملني إلي بعض عيون الماء الواقعة على حافة الصـحراء حيث يحتمل وجود ثلاث من هذه العيون ، وأن أعهد إلـي قبيلـة الرواشد بانتظاري هناك لتأخذني إلي وجهتي وقد بنيت هذا القرار على أساس العلاقة السابقة التي تربطني بهذه القبيلة وما لمسته من استعداد لديها لمساعدتي "

وحيـــن التقـى " خويتـم " و " معيـوف " كشـف لهمـا عـن خطتـه لاجتيـاز الرمال بمساعدة من قبيلتهما بعد أن أخذ عليهمـا عهداً بعدم إفشـاء السر و وعدهما بمكافأة سخيــة إن التزما بذلك . وبعد هذا الاتفاق " خرجا مودعين وكانـت لهجتهمـا

إلـي حد كبيـر تبين معدنهما الصلب وقوة إرادتهمـا " ثم تحركـا فـي طريقهمـا إلـي منطقة الجبال حيث كان هناك أحد زملائهما ويدعى " سالم طميطم " وكان الغرض من التوجه إليه أن يزودهمـا بأفضل أنـواع الجمـال ومـن هنـاك يتسلالان سـراً إلـي الصحـــراء ٠

وفـــي العاشر من ديسمبر عام ١٩٣٠ بـدأت مسيرة توماس ومعه قافلة مؤلفة من ١٥ جمـلاً ، متوجهاً شمالاً من ظفار ولـم يكـن أمامـه تلك الصحراء الفسيحة فحسـب ، بـل كـان مـا يشغل بالـه مواقف البدو العدائيـة ، وخصوصـاً (بنـو مـرة) Murra الذي كانوا ينظرون نظرة عداوة وارتياب لكل غريب . وقد سار إلي جانبه الشيخ صالح بن يـاقوت الرشيدي ورجالـه وهم جماعـة لا تخلـو رفقتهم من فائدة . ولكن لم يكن لهم ذلك الوزن اللازم لمقابلة البدو في الصحراء ٠

ولقـــد لبس توماس الملابس العربية غير أنه وضع على رأسه تحت الكوفية خوذته القديمة بعد نزع إطارها ، ولا نعلم لمـاذا فعل ذلك . وقد اضطر أن يعيش كبدوي طيلة مئات الأميال ، ومع أن مرافقية كانوا يعلمون أنه أجنبي ، إلا أنه فضل أن يكون عدد من يعرفون هويته قليلاً ٠

وعلـــى قمـة جبـل (قـــره kara) ألقـى تومـاس نظـرة أخيـرة إلـي المحـيط الهنـدي الواسـع وبعدها بـدأ فـي ذلـك الانحـدار الطويـل الـذي سيوصـله إلـي منطقـة السهـوب التي تنتظره ومن ثم إلي الصحراء ٠

فـــي العاشـر مـن ينـاير عـام ١٩٣١ تحركـت تلـك الجماعـة الصـغيرة شـمالاً لقطـع مسافة (٤٠٠ ميل) . وفـي بضـعة أيـام قطعـوا تلـك المنطقـة المدعـوة داكاكـا Dakaka واتجهوا إلـي صـويحب Suwaihib وهـذه كلمـة تؤلـف اسم الجمـع من

صحابا Sahaba (أي سلاسل الجبال المتوازية) ، وتدل على منطقة من سلاسل الجبال التي تقف بشكل صفوف متوازية بحيث يتخذ المجموع شكل درجات السلم . وكل منها يبلغ علوه من ٥٠ – ٨٠ قدماً . وقد استطاع مرشدهم حمدان أن يرشدهم خلال تلك السلاسل بشكل صحيح دون أي تردد أو خطأ ٠٠٠٠

مـــرت تلك الأيام الصعبة وهم في أقصى حالة من الشدة والقلق ، وبدأ شعور الإرهاق يستولى على توماس ، إذ كانت الحرارة لا تطاق حتى في شهر كانون الثاني . ولكنهم تشجعوا عندما علموا أنهم قد اصبحوا على بعد شاسع من نفوذ الغزاة الذين كان من المحتمل أن يغيروا عليهم ولا سيما جماعة السعر Saar أعداء ابن الرشيد التقليديين الذين كانوا يأتون بانتظام في هجوم من مراكزهم فيما وراء وادي (خضرا) Khadra ولم تستطع القافلة أن تبطيء في مشيتها ، فالمؤن كانت محسوبة بدقة من يوم إلي يوم ومن مساء إلي مساء ، ثم انهم خرجوا من منطقة (صويحب Suwaihib) حيث أمواج الرمل الأحمر والمرتفعات البيض التي كان ضوء الشمس يضفي عليها لمعاناً خاصاً ٠٠٠

في مساء العشرين من يناير ، رأى رجال توماس أول هلال لقمر رمضان وقد حيوا القمر بإطلاق العيارات النارية والصلاة . وبعدها بدؤوا بالصيام طيلة أيام رمضان مع أنه كان يحق لهم الإفطار بصفتهم مسافرين ٠٠

بعد مسيرة قصيرة خرجوا من منطقة السنام ذات الرمال الرخوة ودخلوا منطقة التلال القاسية الحمر حيث وجودا بعض المراعي للجمال ، وحيث خفت حدة الرياح لوجود التلال . وعند وصولهم إلي بئر بنايام Banaiyam بدأ الإشراق يسود وجوههم عند رؤية الماء العذب الوفير . وقد أناخوا الجمال هناك ومع أن توماس كان قد قضى عشر ساعات متواصلة مضنية على السرج إلا أنه شعر

بالسعادة لأول مرة وهو يقول : " لقد أصبحت أراضي الربع الخالي القفرة وراءنا ، وكان البحر على بعد ثمانين ميلاً فقط إلي الشمال وبدأ النجاح وشيكاً " ٠

وهـا هـم قد أمضوا ثمانية عشر يوماً في مسيرتهم هذه خلال تلك الأراضي القفر . ولكنها كانت قفزة أوصلتهم إلي ما وراء منطقة الخطر ، وقربتهم من النجاح والظفر ولكن مسيرتهم الآن تعرضت لخطر من نوع آخر فقد كانوا الآن يعبرون أراضي (الإخوان) المتعصبين الذين اتبعوا تعاليم الوهابيين وكان هؤلاء مستعدين لقتل توماس بصفته كافراً ، وكذلك جميع أفراد جماعته بصفتهم ملحدين . ولكن ولحسن حظ توماس وجماعته كان الإخوان يلجؤون إلي بيوتهم أثناء شهر رمضان المبارك ، ولم يمارسوا أية غزوة ليلية أيضاً ٠٠٠

في العشرين من فبراير وصل توماس وإلي جانبه طالب وحمد إلي سفح تلة تدعى النخلة Nakhala أو (النخالة) ومن خلال أشعة الشمس الشتوية المشرقة استطاعوا رؤية (جفورا Jafura) بأشجارها وبيوتها ٠ ومن خلفها رأوا آفاق الصحراء الوردية الشاحبة التي عبروها بعد شق الأنفس ، وإلي الشرق فيما وراء المرتفعات الرملية المنخفضة استطاعوا رؤية الخليج العربي الواسع ٠ وفي تلك الليلة هطلت الأمطار واصبح الطقس شديد البرودة . ولكن لما كانت الرحلة قد أشرفت على الانتهاء كانوا مستعدين لتحمل كل المشاق والصعوبات ٠

وفي الصباح التالي تحركوا بخطوات سريعة وكانت الجمال نشطة قوية تواقة للسير وكان البدو ينشدون الأناشيد ، وكانت الجمال تعرف هذه الأناشيد وتتجاوب معها . ويقول توماس : " أصبحت آخر التلال الرملية خلفنا وبعدها وصلنا إلي بئر نعيجة Nuaija حيث تزودنا بالماء لآخر مرة ، وبعدها ظهرت أبارج مدينة (الدوحة) Doha التي كانت تلقي بظلالها السود على مياه الخليج

العربي ، وبعد نصف ساعة وصلنا إلي أسوار القلعة ، وهكذا انتهينا من عبور الربع الخالي ٠

وأمــا جــون فيلبـــي فعلى الرغم من التهاني والتبريكات التي أرسل بها إلـي تومــــاس بمناسبة نجاحـــه ، إلا أن هــذا النجاح كان ضربة لجذور طموح فيلبـــي فقـــد مضت عشر سنوات وهو يأمل من كل قلبه أن يكون أول رجل أوروبـــي يعبر الربع الخالـــي . وقد كان يحلــم بتلــك الرحلة منذ تجوله في زوايــا شبــه الجزيرة الرحبـــة وقد خطط قبل سنوات للقيام بتلك الرحلة فعلاً ، وقـــد أمــــل أن ترافقه إحدى السيدات المغامرات المدعوة روزيتا فوربس Rosita Forbes وهـــي سيـــدة مارســـت رحـــلات الصحراء ، ولكنه كتب يقول : " لقد أصبت بمرض الديزونطاريا في جــــدة ، ولذلك لم أستطع الحركة ففاتتنـي تلك الفرصة وهكذا استلم شخص آخر تلك الجائزة التي لا تسلم إلا مرة واحـــدة " !

فـي نهايـة عـــام ١٩٣١ م استأنـــف فيلبي رحلاته في الجزيرة العربية ، على الرغم من إصابتـــه بخيبـــة أمـل حينما علم أن " برنزام توماس " قد سبقه إلـي الربع الخالي وحرمه من الفوز بأولوية الاكتشاف ٠٠ بدأ فيلبي رحلته من الهفوف بعد أن زوده الملك عبد العزيز بقافلة تتألف من اثنتيـن وثلاثين ناقة ، وجملاً واحداً ، وأربعـــة عشر رجـلاً ومؤنــاً تكفيه لمدة ثلاثة أشهر ٠٠ وكالعادة كان فيلبـــي دائم الشجـــار مع رفاق الرحلة ، فبينما كانوا يفضلون السفر خلال الليل حسب عادة العرب لتجنب حر الشمس ، كان فيلبي يصر بالطبع على السفر بالنهـــار لكي يبصــــر الأماكن لمسحهـــا و وضعها على الخريطة ٠٠ كمــــا كان يصر على الخــــروج عن الطريق ليك يطلع على أشياء ليست مهمة في نظرهم ٠٠ لقد كان في نيته أن يستمر في السير جنوباً حتى يصل إلي المحيط

الهندي ، ولكن رفاقـــه أقسموا أن ذلك مستحيل ، فهم لا يعرفون الطريق ، كما توجـــد قبائـــل معاديـــة مما يعرض القافلة كلها للهلاك ٠٠٠ وأخيراً وافق فيلبي على الرجوع : " لقد تغلب الربع الخالي علينا ٠٠ انها ربما تكون أسوأ تجاربي كلها " !

بـــدأ فيلبـــي الرحلـــة في مســـاء يوم شديـــد الضباب في أوائل كانون الثاني عام ١٩٣٢ م ، وكان البـــدو الذين معـــه من القبائل الشمالية ، ولم يكن معه أي بدوي من الجنوب ولا من بدو أبن الرشيد ، وكان يأمل أن تخدم رسائل التعريف التي سلمهـــا له ابـــن جليوي في تأمين سلامته ، وقد أخذ معه كميات كافية من الأرز والتمر والقهـــوة والشاي تكفيه مدة ثلاثة أشهر ، واصطحب معه واحداً وثلاثين جملاً لحمل المؤن والرجال . وكان يأمل أن يقوم برحلة أطـــول وأشد خطراً من رحلة توماس وبذلك يستعيد اعتباره لنفسه بأن يصبح أول أوروبي يرتاد الربع الخالي ٠

كـانــت الطريق تتجه إلي الجنوب الغربي عبر رمال جافورا **Jafura** ومن ثم إلي جبريـن **Jabrin** وهي واحـة عرضها حوالـي أثنـى عشر ميـلاً تظللها بساتين النخيل ، وهي واقعة في منخفض مـن الأرض ، ولكن كـانـت تكثـر بها الحميات أحياناً ، وهي من أراضي بني مـرة **Murra** وقد ظهـر أنـه من الممكن الاعتماد على المرشدين أكثر من الاعتماد على الخرائط التي بحوزة فيلبي وهكـذا لم تصادفهم مشاكل ذات بال ٠

وفـي الطريق زارهم رجل يدعى (جابر بن فضل) الذي كان عائداً إلي الأحساء بعد أن قضى الشتاء في الجنوب . وكان جابر هذا يوجس خيفة منهم خوفاً من نواياهم السيئة أو أنهم قد أتـوا لجباية الضرائب . وبعد أن اطمأن أهدى لفيلبي

كلبة سلوقية نحيفة لطيفة المزاد ، ولقد أفادتهـم تلك الكلبة في الصيد وفي تقصي آثار الرجال عن طريق حاسة الشم القوية لديها ٠

وبعد لقائهم جابر هذا لم يروا أي رجل غيره . إذ كانوا قد توغلوا في الربع الخالي الفسيح لمدة شهرين تقريباً ٠

تابعوا مسيرتهم عبر أراضي خشنة كثيرة الحصى ، وعبر كثبان واطئة وخلال أجمات تمثل السهوب في تلك الصحاري ٠ وقد وجدوا قطعاً صغيرة من بقايا بيضة نعامة سورية ، ولم يرد ذكر النعام في تلك المنطقة منذ حوالي نصف قرن ، ولقد بدأت السهوب بالاختلاط برمال الصحراء الوسطى وعندها توقفوا عند (ماكيناما) Maqainama وهناك لم يجدوا سوى بئر عمقه حوالي ١٧١ متراً . وقال فيلبي أن هذا البئر قد حفرها أناس في منتهى الحضارة ، وليسوا من البدو . واكتشف وجود رأس حربة من البرونز ، وهذا دليل على مجيء رجال إلي تلك المنطقة للتزود بالماء ٠

وكان فيلبي يريد التأكد من موقع مدينة الوبر الأثرية ، إذا كانت تقع قرب بئر أم الحديد ، ويقال إن (الوبر) كانت عاصمة لبعض الملوك الأسطوريين ، وربما كانت هي (أوفير) الشهيرة لدى القدماء . وقد ذكر توماس أنه قد عرف ممراً يقود إليها ٠

وقد أراد فيلبي سلوك ذلك الطريق فعلاً ، فاتجه أولاً إلي الجنوب في خط مواز للخط الذي اختاره توماس ، فوجد آباراً في منطقة الطويرفة Tuweirifa ولكن الجفاف قد حرم هذه الآبار من الماء فدفنت في الرمال ، وقد ذكر مرشد فيلبي

إن بقر الوحش كانت قطعانها تجوب في المراعي المجاورة قبل اثنى عشر عاماً ، ولكن كان كل شيء مقفراً وقاحلاً الآن . وهنا بدأت الصحراء البكر التي لم يطأها أحد ومع ذلك فكان الجو منعشاً ، وقد رأوا طيوراً كثيرة في الفضاء وبعض الأرانب البرية التي تغري الصيادين ٠

وبعد أن قام بمسح المكان اتجه فيلبي إلي الشرق مباشرة وهو ينوي اكتشاف مدينة (وير) وعندها تكلم المرشد قائلاً : " انظر يا شيخ عبد الله لقد وجدت الفلاة ، ثم اظهر حجراً منقوشاً من تلك الخرائب كشاهد . وكان هذا الحجر مربعاً ذا لون أزرق غامق يشبه حجارة الأفران . وقد ظهر أن (وير) كانت عبارة عن فوهة بركانية لها قمنان محاطتان بالمنصهرات البركانية (اللافا) التي خرجت من باطن الأرض . وهكذا انتهى ذلك الحلم إذ أن (وير) ما هي إلا بقايا بركانية ، وقد نسجت حولها قصص خيالية تقول إنها كانت مدينة كبيرة دمرتها نار قد نزلت من السماء بسبب ذنوب الملك ومع ذلك فلا يزال هنالك شك بالنسبة لموقع (وير) هذه ٠

اتجه فيلبي إلي بئر فراجا Faraja وهو مكان كان توماس قد توقف عنده في السنة الماضية . ثم اتجه جنوباً بعد أن طلب من مرشده أن يتحقق إذا كان توماس قد ترك أي أثر عند مروره في تلك المنطقة . وقد بحث البدوي مدة من الزمن ثم قال ، أنه وجد شيئاً من روث جمل وكان هذا الروث متحجراً يدل على أن الجمل قد أسقط هذا الروث وهو تعب وظمآن وأن هذا الروث يعود إلي سنة مضت والله تعالى أعلم !

أما الرحالة الشهير : ويلفريد ثيسيجر ، واشتهر بين بدو الجزيرة بـ " مبارك بن لندن " ! ٠٠ فقد كان متأثراً بتوماس بشكل كبير حتى أنه يقول : " عندما كنت في أكسفورد قرأت كتاب بيرترام توماس عن رحلته في

الربع الخالي ، ثم قرأت كتاب لورنس (ثورة في الصحراء Revolution in the Desert) فاستيقظ في نفسي توق الصحراء ، وتملكتني رغبة لا تقاوم ، تدفعني دفعاً إلي كشف المجهول منها " ٠

ولــد ثيسجر عام ١٩١٠ في أديس أبابا في الحبشة حيث كان والده وزير بريطانيا المفوض هناك ، وعرف مشقة السفر منذ أن كان عمره ثلاث سنوات فقد حملته أمه معها على ظهر جمل من العاصمة إلي ميناء جيبوتي . وعاش متردداً على بلاد إمبراطور الحبشة ، فيسمع قصص رجال يتوغلون في الغابات ، ويلاقون الحيوانات المفترسة والقبائل الفتاكة . فنشأ ، وحب المغامرة يجري في دمه ، وذهب إلي إنجلترا ليدرس في كلية إيتون ثم ليلتحق بعد ذلك بجامعة أكسفورد ٠ وقبل أن يتم دراسته دعي لحضور حفل تتويج هيلا سلاسي إكراماً لوالده الذي آوى ابن الملك أثناء الثورة الكبرى التي قامت في الحبشة . واغتنم فرصة وجوده فحاول أن يعرف سر نهر " أواش " الذي ينبع من الجبال الواقعة غرب أديس ابابا ، ثم يجري في صحراء الدنكلة ، ولا يعرف أحد شيئاً عن مجرى النهر لأنه لا يصب في البحر الأحمر . وصحراء الدنكلة نفسها كانت شبه مجهولة في ذلك الحين ، حيث تقع بين هضبة الحبشة والبحر الأحمر ، وقطعها في غاية الخطورة . وقد حاول رحالون أوروبيون أن يعبروا تلك المنطقة فلقوا حتفهم ، ولم ينجح في قطع صحراء الدنكلة إلا (نيسبت) ، إذ قطعها عام ١٩٢٨ من الجنوب إلي الشمال ، بعد تعرضه للموت مراراً ، وربما كانت تلك المغامرات هي تمريناته الأولى لمغامرته اللاحقة الأهم وهي عبور الربع الخالي . وقد ترك لنا وصف هذه الرحلة في كتابه " رمــال العـــرب "

فــي عام ١٩٣٥ م ، عين ثيسيجر في وزارة الخارجية البريطانية ، فذهب إلي السودان معيناً في الخرطوم ، لكنه سعى لينقل إلي منطقة نائية يستطيع منها أن

يقوم بجولاته في مناطق السودان الجنوبي المجهولة . وتنقل بعد ذلك بين سوريا وكردستان العراق وجبال هندكوش وجنوب العراق (منطقة الأهواز) والمغرب والحبشة . ولم تكن تلك الرحلات والاستطلاعات التي قام بها إلا تهيؤاً للعمل الذي سيخلد ذكره فيما بعد ، وهو اجتياز الربع الخالي ٠

ومن الأمور المشتركة بينه وبين سابقه توماس ، هو استعانته ببدو من قبيلة الرواشد ، كذلك اهتمامه بموضوع لهجات القبائل العربية في جنوب الجزيرة ، وخرج من ملاحظاته بنتيجة وهي أن لهجة قبائل قرة ومهرة لا تختلف كثيراً عن لغات المعينيين والسبئيين والحميريين ، وهي النتيجة التي توصل إليها توماس قبله ٠ كذلك لاحظ أن من عادات القبائل التي تعيش على حدود الربع الخالي أن يلحق باسم الأبناء اسم الأم ، لا الأب . ويبقى كتابه (الرمال العربية) الذي يتميز بأسلوب جميل جذاب ، ليس فيه شيء من أسلوب (داوتي) الملتوي ، أو تكلف برترام توماس في كتابه (العربية السعيدة) ٠٠٠

وفي عام ١٩٤٥م كان توماس وفيلبي لا يزالان الأوربيان الوحيدان اللذان قطعا الربع الخالي وسافرا خلاله ، فقد كانت معظم مناطقه مقصورة على الأوربيين ، ولم يدخلها إلا قليل من البدو ولا سيما الجزء الشمال الشرقي والجنوب الغربي منه ٠

ولقد استطاعت وحدة مقاومة الجراد في الأمم المتحدة التغلب على معظم الصعوبات الدبلوماسية التي تحول دون دخول الأوربيين إلي تلك المنطقة ، وبعد أن هيأ ثيسيجار نفسه في دارفور جمع فرقة مؤلفة من (٣٠) بدوياً ، وافقوا على الذهاب إلي واحة موغشين Mugshin ٠

وقد كتب عن احتماله لمواقف رفاقه البدو المتعنت الذي لا يخلو من روح الغطرسة وتفوق الجنس العربي ، فقد كان هو بالنسبة إليهم رجلاً كافراً لا يستطيع شعبه جمع جيش كالجيش الذي يعمل تحت الراية السعودية . وهو غريب لا يفهم الطرق والعادات التي ينبغي على جميع الرجال فهمها . وهنا نجد " ثيسجــر " يؤكد حقيقة ذكرها توماس ، وأنكرها فيلبي ، وارتاب بها ، لأن توماس عندما تكلم على الربع الخالي ، لم يعرف أحد ماذا يعني ، ولكن الشخص الوحيد الذي فهمه كان ذلك الزعيم البدوي سلطان !

ويؤكد ثيسيجــاو أن جميع البدو في بلاد العرب يقصدون بكلمة (الرمال) أنها تشير إلي الربع الخالي ما عدا البدو الذين يعيشــون فعلاً على حدود الربع الخالي الحقيقي ٠

وبعــد أن سار في الصحراء الوسطى اسبوعاً بعد أسبوع اعتاد (ثيسيجاو) على حياة التنقل فقد أجبر نفسه على المعيشة طبقا لعادات البدو ٠٠

يصف الشاعر الفرنسي " رينيه شار " الإنسان الشاعر بأنه هو ذلك المرء الذي يمتلك الشهية لقلق يؤدي الانتهاء من استهلاكه إلي الغبطة . وبهذا المعنى أمتلك ثيسجر شهية القلق المتأصلة لدى الرحالة باقتدار ، وعبر عنها أيضاً بكل اقتدار . كان يصطاد اللحظة بكل زخمها ، ويسجلها قبل أن تفلت ، قبل أن تخبو جذور الاستمتاع بها . أخبرني مرافقه (بن كبينــة) في أحد لقاءاتي معه أنه (أي ثيسجر) كان دائماً تراه يكتب ، يحمل أوراقه ودفاتره أينما حل وارتحل . دائماً كنا نراه يكتب ويدون . خزن تلك اللحظات التي عاشها ، وتعتق ما دونه (صدرت الطبعة الإنجليزية لكتاب الرمال العربية عام ١٩٥٩ وكان قد انتهى من رحلاته في منطقة الربع الخالي عام ١٩٥٠) عرض ما دونه ، ما اصطاده من لحظات على مدى خمس أو ست سنوات من تنقله في أرجاء المنطقة ، من حضر موت جنوباً إلي

مسقط شرقاً وليوا وأبو ظبي والشارقة ودبي شمالاً ، ملايين اللحظات ، سجلها بأسلوبه ، بعد خمسين عاماً أصبحت تلك المدونات (تاريخاً للمنطقة) أو على الأقل ، أصبح كتابه مرجعاً مهماً من مراجع تاريخ المنطقة .

ومما لا شك فيه أن ثيسيجر استعان بكتب رحالة سبقوه ، وهو لا يخفي إعجابه بتوماس الذي سبقه إلي منطقة الربع الخالي بستة عشر عاماً ، وينظر إليه وإلي فلبي بعين التقدير الاحترام . وقد أشار إلي ذلك في كتابه : " راقبت بن كبينة وهو يمشي بمحاذاة النتوء الرملي ، الذي كان يمتد إلي القمة التي كنت أجلس عليها ، حاملاً البندقية العسكرية التي أعرته إياها في هذه الرحلة ، وما لبث أن أنضم إلي وجلس وبدأ يتحدث ، ثم فك مزلاج البندقية ، فالعرب يحبون تفكيك البنادق ، وقال انه سيشتري بندقية بالنقود التي استعارها عندما أتى معي إلي حضر موت . ثم سألني عما إذا التقيت (توماس) ، وهو البريطاني الوحيد الآخر الذي كان مع قبيلته ، فقلت له أنني التقيته . وعندما توقف ، واستسلم للنوم – أي بن كبينة – أخذت أفكر بالرحلة التي قام بها (توماس) لقد كان اجتياز هذه الصحراء بمثابة آخر وأعظم جائزة في إطار استكشافه للجزيرة العربية !

بل واجتاز ثيسجر الصحراء مع أفراد من القبيلة نفسها التي استعان بها توماس من قبل لعبور الصحراء : " كل ما كان بإمكاني عمله هو أن أضع الترتيبات على أساس أن مغشن هي نهاية المطاف ، على أمل أن أتمكن بعد وصولي إلي هناك أن أقنع بعض البدو بعبور الصحراء معي . وقد حاول توماس اجتياز الربع الخالي للمرة الأولى مع بيت كثير واضطر للعودة بعد أن اجتاز مسافة قصيرة ، ثم حاول ثانية مع آل راشد وكنت أعلم أنني إذا قررت عبور الرمال فلا بد أن أضمن وجود آل راشد معي .

وقـد سنحت لـه الفرصـة بالفعل بعد هذه السنوات أن يستعين بأحد الأدلاء الذين استعان بهم توماس نفسه وهو الشيخ صالح بن كلوت من آل راشد ٠٠

ومـا يميز أسلوب ثيسجر في كتابه ، أننا نعيش معه أحياناً في فضاء أدبي محض ، حتى ننسى أحياناً موضوع الرحلة ، أو أين وصلت . فهو لا يقدم بورتريهات للقطات يمكن وصفها بأنها بورتريهات صحراوية . صور نابضة بالحياة ومؤطرة بالشاعرية إلي حد بعيد ومسكونة بتلك النوستالجيا التي لازمته بعد مغادرة الصحراء ، وكانت تظهر كلما ودع رفاق رحلته ٠

نصبنـا الخيام في مجرى ماء ضحل على هضبة كلسية ، وكنا قد قطعنا الرمال . كان الوادي عندما استيقظت فجراً مغموراً بضباب كثيف دوار ، وبدت فوقه الخطوط الخارجية للكثبان الممتدة شرقاً كالجبال الساحرة في مواجهة الشمس الصاعدة . وكانت السماء متوهجة بلطف وبأطياف من حجارة عين الهر الثمينة ، والكون بسكينته يبدو مثل الوعاء القابل للتحطم في أية لحظة . وأخيراً وقفت على هذه الهضبة البعيدة عن الرمال ، وتطلعت إلي الوراء بنظرة حسرة وأسف إلي الطريق التي كنا قد قطعناها "

علـى أن كتابه لا يخلو بطبيعة الحال من لمسات إنسانية (بالأحرى شاعرية أوروبا وهي تستلهم رومانسية الصحراء في الخيال الغربي) تلك الصورة التي ساهمت في رسمها كتب التاريخ وأوصاف الرحالة السابقين ، وما تضمنته من رسوم ، تصورهم على نسق واحد اعتاد عليه الغرب ، ثياب ناصعة البياض ، و وجوه سمراء ، نظرات لاهية ، لحي فاحمة السواد ، وشكتهم الباذخة من الأسلحة ، وجلستهم المرتخية المرتاحة ، وحياتهم السهلة البسيطة ، وطبائعهم الجانحة إلي الشهوة ، النسوة الصامتات ، والمناخات المسربلة بالأحلام والمسرات والرعب ٠٠

كـانــت القرب التي تحوي الماء ترشح ويقل ماؤها بالتدرج . وكـانوا يـرون بقعاً يوداً تلوح من بعيد ثم تختفي ، وكانوا يتوقفون عند الغروب لتنـاول لقيمـات من الطعام ، ثم يجدون في السير . وقد سأل ثيسيجار رفيقه (العـوف) هل قطـع الربـع الخـالي ومتى كان ذلك ؟ فأجابه (العوف) : إنه قطع الربع الخـالي فعلاً قبل سنتين ، وبعد مجيئه من (أبو ظبي) ٠

فسـألـه ثيسيجـر " ومن كان معك ؟ " فأجابه : " لقد كنت وحيداً " . ويعلــق ثيسيجار على ذلك بقوله " إن ركوب الإنسان وحيداً في تلك القفـار المخيفـة هو أمر فظيع . ويعد من الإنجازات والمفاخر العظيمة لكل من يقوم به " ثم ساد الصمت ولم يـتكلم أحـد ، ولكـن ثيسـيجار عـاد يسـأله " ومـن كـان رفيقـك ؟ " فأجابـه " كـان الله رفيقـــي "

ويصــف ثيسجــر (بـن كلـوت) بقولـه :
" كـان (بن كلوت) رجلاً لافتاً للنظر ، قصير للقامـة ، مملـوء البنيـة ، قويـاً ، ثقيل الجسم ، وبسبب تقدمـه بالسـن ، يتحـرك بصـعوبة ، ويـنهض علـى قدميـه بعـد جهـد جهيـــد ، وبعـد كثيـر مـن الأدعيـة إلـي العلـي القـدير . كـان كثيـر التـأني فـي كلامـه وتحركاتــه وإيماءاتــه ، عــريض الوجــه ، غلــيظ القسـمات ، بــارز الأنــف ، ثابــت العينيـــن ، واسع الفم وكث اللحية ، التـي يكسوها الشيب ، وأصـلع الـرأس تمامـاً . كان نادراً ما يتحدث ، ولكني لاحظت أنه عندما يتحدث لا يجادلـه أحـد . وكـان معه ابنه (محمــد) وهو أخو سالم بن كبينة من أمه . وهو شاب ممتلـيء البنيـة كوالـده ، طيــب المعشــر " ٠

ولـم تقتصـر صحبته لآل راشد فقط ، بل استعان بالبدو من بيت كثير أيضاً ، ومن الصـاعر والمناهيل ، وألعوامر والمهرة والجنبا والوهيبة بل وحتـى من الـدروع

وهي القبيلة التي سببت له الكثير من الأرق حين أصرت على منعه من المرور بأراضيها ٠

تحـــدث ثيسيجر في مواضع كثيرة عن رفاق رحلته من البدو : محمد وابن قبينة وصدر وصالح وعمير وابن عبيشة وكتب عن ابن غبيشه :

كـــان ابن غبيشة أكثرهـــم كفاءة ، فمال الآخرون إليه ، واعتمدوا على حكمه ، كما فعلت أنا ٠٠ كان أفضل فارس وأحسن صياد ، رشيقاً دائماً في كل ما يفعله ، وكان ذا ابتسامة سريعة خلق لطيف ٠٠ أما عمير فكان متهوراً ، لم يكن عنده شيء من سحر ابن غبيشة ، تميزه عينين قاسيتين وروح مادية لا دفء فيها ، لم أحبه ، ولكني كنت أعلم أنه كفؤ يعتمد عليه ، لقد كنت وحيداً في أسفاري بين هؤلاء البدو ، بل تحت رحمتهم تماماً ، وكان في استطاعتهم أن يقتلوني ويطمرون جسدي في جرف رملي ٠٠ ومع هذا ، فقد كان إيماني بهم مطلقاً إلي درجة أن فكرة الخيانة أو الغدر لم تمر في خاطري أبداً ٠٠

وها هو ثيسجر على الرغم من الصعوبات والمشاكل ، قد قطع الربع الخالي وحقق ذلك الحلم ، الذي كان يراوده من عدة سنين ٠

وقد نوى عند هذا النجاح عبور الربع الخالي عدة مرات وأن يعيش به شهراً بعد شهر لمدة خمس سنين ، ولكن لم يشعر في السنوات الخمس التالية بأية لذة أو نشوة تضاهي تلك اللذة والنشوة التي شعر بها عند عبوره الربع الخالي لأول مرة ، عندما احتفلوا بنجاحهم بتناول قليل من الخبز واحتساء شيء من القهوة وهم مضطجعون براحة وهناء تحت ضوء القمر ، على حين كان ثيسيجر متمدداً بكسل إلي جانب النار يسمع ثرثرة رفاقه حوله بكل هدوء بال !

كتـب ثيسيجـر :

" كـان داوتـي وغيره من مشاهير الرحالة الذين تجولوا في جزيرة العرب : يحلمون بهذا الإنجاز .. غير أن تحقيق هذا الحلم كان يستحق : توماس وفيلبي اللذان سيظل إسماهما متلازمين عند الحديث عن اجتياز الربع الخالي " !

الليدى آن بلنت

الأديبة والرحالة والمستشرقة البريطانية " آن بلنت – Ann Blunt " حفيدة الشاعر البريطاني الشهير اللورد " بايرون " هي من أهم الرحالة في القرن التاسع عشـر ، وقد رافقت زوجهـــا الدبلوماسي والمستشرق المعروف " ولفريد بلنت " في بلاد الشـــــرق عام ١٨٧٨ م ، لاستطلاع الطرق البرية في الشام والعراق ، ثم توجهت إلي شمـــال الجزيرة العربية ، خاصة بعد تنامي فكرة أن الفرات هو طريق المستقبــل إلي الهنـــد وأن امتلاك هذا الطريق يجب أن يأتي على رأس المصالح البريطانية في الشرق ، فارتحلت في العام التالي إلي " حائـل " في شمال الجـزيـــرة العربية ، في عهـــد الأمير محمـــد بن عبد الله الرشيد ، وقد تبلورت في ذهنها عدة أهداف ، كان من بينها : وضع تقريـــر نهائي عن إمكانية مد خط للسكك الحديدية من البحر المتوسط إلي الخليج ، وعاونها زوجها " ولفريد بلنت " الذي سعى إلي فصل المنطقة العربيـــــة ، خاصة شبه الجزيـــرة العربية عن الدولـــة العثمانية وتأسيـس مملكـة عربيـة بزعامـة الأميـــر " عبـد القـــادر الجزائـــري " !! ٠٠ وزارت " آن بلنـــت " حـريم ابـن الرشيـــد ، فاستقبلتها قرينتــه وابنـــة عمه الأميـــرة " عمشـــة بنت عبيـــد " وشاركتهـــا حديث شيق طويل ، وكم كانت دهشتها عندما دخل الأمير ابن الرشيد مجلس الحريـــم فوقفـــن كل النساء عدا زوجته !

وتجـــدر الإشـــارة إلي " آن بلنـــت " كانت رسامـــة وشاعـــرة ، وشاركها ولفريـد في هوايـة دراســة واقتنـــاء ســلالات الخيـول العربيـة ، ومن الحصـــان والفـرس " هديـة ابن الرشيـد " لها أسســت اصطبـل في حائل ، ومنه تأسســت السلالة العربية التي تعد أهـم ممتلكات الأســرة المالكة البريطانية اليوم ...

ويأخذنا كتابها. فى رحلة قصيرة معها فى جزيرة العرب برفقة زوجها المستشرق والأديب " ولفريد بلنت " .. كان وصولهما الى " حائل " فى يناير ١٨٧٩م وعلى خلاف جميع من سبقهم من الرحالة الذين دخلوها متنكرين فى شخصيات مختلفه ، فقد رحل كل من : آن بلنت وقرينها الى " حائل " كنبلاء بريطانيين يرغبان فى زيارة عائلات عربية نبيلة .. وأشادت الليدى آن بلنت بالأمير " محمد بن رشيد " حاكم امارة جبل شمر ، وأفاضت فى وصفه ، وبمناقبه ، ولم يكن استقبال سيدات القصر لها بأقل عظمة .. أحبت آن بلنت مزايا النبل والفروسية والشجاعة والكرم فى البدو ، وأقامت معهم صداقات حميمة .. وقد تكونت لديها خبرة ومعرفة شاملة بحياة الصحراء وضحت ملامحها فى كتابها " A pilgrimage to Nejd - حج الى بلاد نجد " و الذى أعده تتويجاً للنشاط الاستكشافى لجزيرة العرب ووثيقة حية لحياة البادية فى ذلك العصر ، أيضاً تجدر الاشارة الى أنها ـ من واقع خبرتها بالخيول العربية ـ تحدثت عن أنواع الخيول وقدمت وضعاً دقيقاً لأجسامها وألوانها وأساليب تربيتها وتدريباتها ، وأصالة وندرة خيل " نجد " .

وقد جاءت مذكرات " آن بلنت " التي لا تزال تعد من أهم المصادر التاريخية عن تلك الفترة : لوحة أدبية رائعة تختلف عن أساليب الرحالة الرجال ، من حيث العاطفة و الإثارة ودقة التصوير ، فتحملنا برشاقة لمعايشة الأحداث على الرغم من تباعد الزمان !

جيرترود بل .. بين رمال الصحراء والسياسة .. المتحركة !

كتب رحالة العرب فى العصر الحديث " أمين الريحانى " فى وصف " جيرترود بل " الرحالة والمستشرقة البريطانية الشهيرة : " العراقيون يسمونها ـ الخاتون ـ أى سيدة البلاط التى تعنى بخير الدولة و ازدهارها ، وقد وجدت فى الآنسه بل موهبتين أخريين : لسانها وعقلها ، إن مظهرها انجليزى تماماً .. طويلة ، ناحله ، ارستقراطية الملامح ، وشعرها الفضى متناسق مع لون بشرتها المائل الى اللون الزهرى .. انها تملك ناصية الحديث ، وتتحدث العربية بدون لكنه تقريباً تخلصها دائماً بشىء من الانجليزية ، وبإشارات من يديها زيادة فى التأكيد .. لقد أذهلتنى طاقتها وسرعة الحركة لديها .. لقد كانت جيرترود بل واحدة من أربع مستعربات تحولن الى ما يشبه الاساطير هن : الليدى استر ستانهوب ، فرايا ستارك و روزيتا فوربس " !

واذا كانت ذاكرة التاريخ قد حفظت لنا عدد من أسماء عدد من النساء الشهيرات ، فمما لا شك فيه أن " جيرترود بل " من بينهن ، نشأت بل فى عائلة أرستقراطية بالغة الثراء ، ففى الرابع عشر من يوليو ١٨٦٨ ولدت جرترود ، والدها رجل الصناعة الكبير " هيولوثيان بل " وأمها " مارى " ابنة أعمال ثـــــرى أيضا من نيوكاسل ، وكانت جرترود متينة البنيان ، عادية الجمال ، ذات شعر ثائر مائل إلى الاحمرار ، وعينين خضراوين ، وبشرة بيضاء ، وفم متمرد ، وأنف كحد السيف . وبعد ثلاثة أعوام ولد لهما طفل ذكر أسمياه موريس ، ولكن الزوجة توفيت بعد ان وضعت . وآلى الأب ألا يتزوج توفيت ليكرس نفسه لتربية طفليه ، ولكن شاء القدر أن يقع الأب بعد خمسة أعوام فى غرام فتاة فى الثانية والعشرين اسمها فلورنس أوليف وقاوم هذا الحب ، وحاربه مدة عامين ، الى ان شهد عرض أوبرا من وضعها و اخراجها ، فانهارت مقاومته ، ورافقها بعد الحفلة الى البيت ليعبر

لوالدتها عن رغبته فى الزواج من ابنتها ، وهكذا دخلت قصر بل فى واشنطون هول بمقاطعة درام ، زوجة شابة موهوبة ، لتكون والدة وصديقة للطفلة " جرترود " ولتضيف الى الأسرة الثرية بعد زواجها أخا وشقيقتين .

وتلقت جرترود دروسها فى قصر والدها ، مثلها مثل سائر ابناء البيوتات الثرية فى ذلك العصر ، ولكنها رغبت أن تشذ عن عادة العصر ، فطلبت من والدها أن يسمح لها بالالتحاق بكلية الملكة فى لندن ، فوافق والدها على طلبها ، وهو الذى قضى حياته كلها لا يرفض لها طلبا مهما كان . وفى لندن زادت جرترود من ثقافتها بزيارتها للمتاحف بأنواعها ، وحضورها للمسرحيات ، واستماعها للمحاضرات ، وتعرفها برجال الفكر ونجوم المجتمع . وما أن أنهت دراستها فى كليتها حتى عبرت لوالدها عن رغبتها فى دراسة التاريخ بجامعة أكسفورد فتم لها هذا .

فى اكسفورد

و تصف لنا جرترود فى رسائلها لوالديها وأخويها الحياة فى الجامعه ، وصفا دقيقا ، ممتعا : فهناك كليتان للبنات فى اكسفورد هما كلية صمرفيل ، وليدى مرجريت هول ، ولم يكن قد مر على افتتاحهما غير سبع سنوات . وكانت القوانين المفروضة على الطالبات غاية فى الصرامة : فالفتاة محظور عليها أن تسير برفقة رجل الا اذا كانت تصحبها امرأة متقدمة فى السن . وفى المحاضرات التى تحضرها الطالبات اللواتى لم يكن يزيد عددهن عن ست ، مع الطلبة ، كان يشترط أن تصحب كل طالبة سيدة حارسة لها ، وأن تجلس الفتيات فى زاوية ، بعيدا عن الطلبة . وكان لها فى الجامعة صديقتان صدوقتان احداهما شقيقة المستشرق الكبير والعالم الأثرى الدكتور هوجارث . وانهت جرترود دراستها الجامعية بتفوق باهر حقق لها قصب السبق بين الطلاب والطالبات .

وعادت جرترود الى قصر العائلة ، ولكن روحها المتمردة تأبى الاستقرار ، وكان من حسن حظها أن شقيقة زوجة أبيها كانت متزوجة من سفير بريطانى فى بخارست ، ثم فى طهران ، فذهبت وأقامت مع قصيدة من ديوان حافظ الشيرازى وتنشرها بعنوان " الديوان Divan " وفى العائلة زمنا . وقد استطاعت وهى فى طهران أن تجوس خلال البلاد قاصيها ودانيها ، وأن تتعلم اللغة الفارسية وتتقنها بحيث تترجم الى الانجليزية ثلاثين المقدمة كتبتها لترجمتها عقدت مقارنة بين حافظ و دانتى . ودرست رباعيات عمر الخيام فى أصلها .

وفى طهران التقت بحبها الأول ، وهو السكرتير الأول فى السفارة البريطانية ، اسمه هنرى كادوجان . وخطبها ولكن أهلها ترددوا فى القبول ، فجاء الحل بأن وافاه الأجل بعد أشهر معدودة وأما حبها الكبير فقد كان لعسكرى برتبة مقدم اسمه دوتى - ويلى Doughty-Wylie فقد حياته فى معركة غليبولى فى ابريل (نيسان) ١٩١٥ ، وهكذا كتب لجرترود أن تهب حياتها للعنوسة !

جاذبية الصحراء و سحر الشرق

وقد بدأت أنظار جرترود تتجه الى الشرق العربى منذ أن قرأت (ألف ليلة وليلة) فعشقتها ، ومنذ أن زارت اسطامبول فأعجبت بمآذنها .
وطوفت جرترود فى العالم كثيرا قبل أن تقوم برحلتها الجريئة عبر صحراء النفود الى حائل. فقد زارت قبل ذلك بلدان أوروبا وتسلقت قمم جبالها الخطرة ، ثم زارت شمال أفريقية ، وبدأت رحلتها حول العالم فى ديسمبر ١٨٩٧ برفقة أخيها موريس .

وفى ديسمبر ١٨٩٩ استقر بها المقام زمنا فى القدس ، وبدأت تدرس اللغة العربية ، وفى ١٩ مارس ١٩٠٠ قامت بأول رحلة لها عبر الصحراء ، مارة بأريحا ثم متوغلة فى صحراء الاردن ، متعرفة بقبائلها من بنى صخر والعدوان ، وزارت الكرك والبطراء .. وهى فى رحلتها تعيش مع البدو أياماً ، وتسمر معهم فى لياليهم ، وتضع يدها معهم فى اناء طعام واحد . ورغم تشديدات الحكومة العثماينة تزيت بزى عربى بالكوفية والعقال ، وقامت بجولة فى جبل الدروز ، حيث عقدت صداقات مع رؤسائة ، ثم اتجهت الى دمشق ، ومن هناك اشترت لشقيقتها الصغرى ثياب فتاة درزية ، واستهوتها عاصمة زنوبيا ، فقامت برحلة عبر بادية الشام الى تدمر ، وتركت سوريا الى لبنان ، لتعود الى انجلترا ، و كتبت لوالدها من بلاد الشام تقول : " أن المرء اذا عرف هذه البلاد لا يطيق فراقها " . وكتبت الى قريبة لها فى انجلتره : " يا الله ما أجمل هذه البلاد ! ليتنى أقضى حياتى كلها متنقلة بين ربوعها " !

ولم تطق جرترود بعدا عن الشرق العربى ، فعادت اليه فى ربيع ١٩٠٢ ، و رحلت الى حيفا ، واقبلت على دروس جديدة فى اللغة العربية ، وعادت الى بريطانيا تلقى المحاضرات الموضحه بالصور عن الشرق العربى .

ولم يطل بها المكث ، اذ قبل نهاية العام قامت برحلة ثانية حول العالم برفقة أخيها من أبيها ، هوجو ، فمرت بالهند ، وبرما ، والصين ، واليابان ، وأمريكا ، الى بريطانيا ، فوصلا ليفربول فى يونية (تموز ١٩٠٣) ، وتعلمت فى طريقها الهندستانية بحيث لم تكن بحاجه الى مترجم ، كما بدأت بدراسة اليابانية .

وفى أواخر يناير ١٩٠٥ وصلت جرترود الى بيروت ، وبعد تسعة أيام كانت فى حيفا ، ومنها اتجهت الى نابلس ، فالقدس ، فالسلط ، ثم زارت أصدقاءها فى

جبل الدروز ، ومرت بدمشق ، فحمص فبعلبك ، فآسيا الصغرى ، وفى قونية قابلت العالم الأثرى وليم رامزى Ramsay وشاركته فى بعض أعمال الحفر . وعادت الى انجلتره لتكتب كتابها " سوريا : الصحراء والارض الزراعية Syria : the desert and the sown كما صدر لها عام ١٩٠٨ ، بالاشتراك مع وليم رامزى ، كتاب " الف كنيسة وكنيسة " "A thousand and One churches ".

وعادت الى الشرق العربى فكانت فى حلب عام ١٩٠٩ ، ثم فى دمشق عام ١٩١١ ، ومنها ترحل الى كركميش ، ثم تقوم بزيارة قصر الأخيضر الأثرى القائم وسط الصحراء وهو فى رأيها أثر من آثار اللخميين ، وقد كتبت عنه كتابها الجميل " الأخيضر Ukheidir " الذى نشر عام ١٩١٤ . ومن هناك زارت كربلاء والنجف وآثار بابل والمدائن ، وبغداد والموصل ، فكركميش ثم حلب ، وفى كركميش " قابلت شابا انجليزيا يسمى تى.أى.لورنس " . وفى يونية ١٩١١ كانت فى انجلترا .

وتنقطع عنا أخبار جرترود فلا نسمع عنها شيئا حتى نوفمبر ١٩١٣ فاذا هى فى دمشق تعد العدة ، وتجهز سبعة عشر جملا لاختراق الصحراء متجهه الى حائل ، وبعد تسعة أسابيع كانت على أبوابها ، وتصف لنا فى رسائلها هذه الرحلة وصفا حيا ، وما لقيت من متاعب .

إلى حائل :

كانت رحلة جرترود بل إلى " حائل " عام ١٣٣٣ هـ / ١٩١٤ م مليئة بالمغامرات ، لكن عند وصولها الى " حائل " لم يسمح لها بالدخول ، وأعطيت منزلاً خارج أسوار المدينة التى لم يسمح لها بدخولها إلا فى اليوم الأخير من زيارتها !.. ومن هناك توجهت إلى العراق حيث أمضت معظم حياتها فى خدمة حكومة الامبراطورية البريطانية .

خلال رحلتها عرفت جرترود بل مصطلح " بنات النفود " الشائع استخدامه عند العرب فى إشارة إلى سلاسل الكثبان الرملية ، وحاولت تحديد امتدادها وهيئتها واتصالاً بالدهناء أو الربع الخالى فى الجنوب ، وهذه السلاسل هى عروق رملية تمتد فى المحيط العظيم من الرمال ، الذى يغطى ثلث شبة الجزيرة العربية تقريباً ، ويخترق بعمق هضبتها الوسطى المخصبة ويتقاطع معها فى بعض الأماكن ، وخصائصها العامه ـ كما يشير علماء جغرافية جزيرة العرب ـ هى خصائص " الدهناء " نفسها ، أو خصائص الصحراء الحمراء " النفود " نفسها .

وقد سمعت جرترود من البدو الكثير عن " النفود " حتى أنها هيأت نفسها " لشيء رهيب ".. غير أن الأمور صارت إلى " أسوأ مما سمعت وتخيلت " ! وكتبت جرترود : " اننا الآن نقطع محيطاً واسعاً ، لا يحده النظر ، من الرمال الحمراء غير المتماسكه ، المتراكمه فى سلاسل هائلة تجرى متحاذية من الشمال إلى الجنوب ، ترتفع كل منها إلى مئتين أو ثلاث مئة قدم فى المتوسط ، بجوانب منحرفه ومتجعده فى كل الاتجاهات بفعل أنواء الصحراء المتقلبة الأطوار ، وفى أعماقها ، يجد المسافر نفسه كما لو كان حبيساً فى حفرة رملية خانقة ، محاطاً بأسوار لاهبة من كل جهة ، وبينما نكد فى صعود المنحدر ، نظل على ما يبدو وكأنه بحر واسع من النار ، تتصاعد منه ريح موسمية شديدة ، فى موجات حارة حمراء " !

و طوال تسعة أسابيع عانت جرترود إرهاق أيام صيف طويلة من الكدح ، والخوض فى رمال ـ متحركة ـ على ظهور إبل واهنة ، وساعات نوم قليلة و متقطعه ليلاً ، مع عدم الراحة بالنهار لعدم وجود أى ظل ، وبالقليل من الطعام والأقل من الشراب ، فالماء الفاتر ـ والذى تغير لونه وطعمه ـ فى القرب يتناقض بسرعه اكبر بفعل التبخر .. و " شمس عموديه تخترق الملابس والمتاع ، ويتخذ كل غطاء رائحة الحريق ، وانقضى سريعاً مرح البدو ، ومضوا فى طريقهم فى صمت لا يقطعه سوى رغاء الابل الغاضبة " !

وقبيل غروب اليوم التالى ، وصلت قافلة جرترود الى مكان شاهدت فيه " قمتين هرميتين من الجرانيت الداكن " يشمخان وسط أمواج من الرمال ، يطلق عليها البدو " عليم السعد " لأنهما دليل على أن ثلث المسافه بين " بئر شقيق " و " جبل شمر " قد قطعت .. وتواصل القافلة سيرها حتى لاحت فى الافق قمم ضخمه .. " تلك هى جبال جبه وهى أقرب الحدود الى جبل شمر " .. وقابلت مجموعة من البدو الرحل القادمين من الجنوب .. وكلما تقدمت القافلة إزدادت الصحراء سوءاً ، وأصبحت اكثر وحشة و " مفقدة للأمل بكثبانها الرملية المقفرة " !

واصلت القافلة مسيرتها ليلة بأكملها " مع توقف قصير لتناول طعام عشاء فقير "!.. وأمضوا الليل فى صعود وهبوط لتلك المتاهة المتموجة ، واجتازوا عقوداً من صخور الجرانيت السوداء ، ورائها سهل قاحل مكسو بقشرة من الملح ، مرصع ببعش الزراعات وبساتين النخيل .. و " تبينا وسطها قرية جبة على مسافة ليست بعيدة ، وهى تشبة الجوف فى مظهرها العام ، إلا انها أصغر وليس بها قلعة أو حصن ، وإلى ما وراء الوادى نلمح خط من الكثبان الرملية ولكنها أقل وحشة ، وعلى البعد فى العمق شاهدنا الجبال الوردية لسلسلة جبل شمر ، ومشهدها اكثر من

رائع .. والى أقصى الجنوب الغربى بساتين النخيل بقرية تيماء وهى مكان ذو شهرة فى تاريخ العرب " .

وخلال فترة الاسترخاء والراحة التى قضتها القافلة قبل رحلة الأيام الثلاثة التى ستقودها الى حائل .. كانت جرترود أحيانا تتسلق الجبال لتحظى بمدى رؤية أوسع ، وتتجول حول قرية جبة وتتحدث مع سكانها .. ثم عبرت القافلة الوادى الى الجنوب الشرقى ، لتدخل مرة أخرى فى صحراء رملية لكنها " ذات طبيعة ألطف وأقل قسوة " .. حتى وصلت الى قرية كبيرة تسمى " اللقيطة " ! .. وبالقرب من قاعدة جبل شمر ، يمتد الى اسفل سهل يؤدى الى حائل .. وكتبت جرترود " تقع المدينة فى الوسط بين سلسلة الجبا ل ، وكانت محجوبة عنا تماماً بسبب تعرجات الطريق وسط تلال هائلة من الصخور " وتحدثت عن المظهر العصرى للمدينة " فهى محوطه بسور يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدماً بأبراج محصنة ، بعضها مستدير والبعض الأخر مربع وبوابات متباعده ذات مصاريع ، وتزدان بعدد كبير من البساتين والمساحات المزروعة داخل وخارج الأسوار ، بينما يحتل قصر الأمير وملحقاته وبساتينه نحو عشر المدينة " !

وشاهدت جرترود بل عند الطرف الأقصى للسهل بساتين " فقار " و " العدوة " وغيرها من القرى الواقعة عند مداخل الممرات الجبلية الموصلة للعاصمة .. و " المشهد بأكمله مبهج للنظر ويبعث على الطمأنينة .. وبيوت شعر قليلة من بيوت البدو منصوبة قرب الأسوار " .. وكانت حركة الناس ، الفلاحين والبدو ، الصبية والنساء ، وراكبى الخيل والجمال والحمير .. تضفى بهجة وحيوية للمشهد .

و توجهت القافلة الى بوابة البلدة المقابلة للقصر ، بعد أن قطعت " الشارع ذا الأسوار العالية " الى أن وصلوا إلى الساحه المفتوحة أمام القصر ، و " المشهد الغريب بالنسبة للأجنبى " بالطبع يتوافق تماماً مع طبيعة البلاد .. فالجدران الطينية السميكه الضخمة للقصر ترتفع نحو ثلاثين قدماً ، تتخللها بالقرب من قمتها كوات ، تمتد بطول خمسمائة قدم ، والبوابة الرئيسية مشيدة طبقاً لتقاليد البناء المتعارف عليها ، وبطول الواجهة ترتفع أبراج عالية مربعة ودائرية متباعدة ، وتحت السور مباشرة " مصطبة " من الطين والحجارة يتوسطها مقعد مرتفع مخصص للأمير عندما يعقد مجلسه العام .. وكتبت جرترود " أنخنا رواحلنا قرب بوابة القصر إلى جانب نحو خمسين آخرين ، ثم جلسنا لنريح أجسادنا على دكة حجرية تقابل المدخل ، وانتظرنا ما سيحدث لنا "!

و تذكر جرترود بل أنها فى آخر صباح لها خلال زيارتها لحائل ، وبالرغم من الصعوبات التى واجهتها فى البداية : " أتاحوا لى مشاهدة كل شىء وسمحوا لى بتصوير كل شىء وبأن أفعل ما يرضينى تماماً " !

فى عالم الحرب والسياسة

ومن حائل ، عادت جرترود إلى بغدادا ، ثم تدمر ، وبعد أربعة أشهر ونصف وصلت إلى دمشق ، واعترفت فى رسائلها بأنها كانت منهكه ومرهقه ، وقد رسمت لرحلتها خرائط تفصيلية تبين مواضع آبار الماء ، كما دونت معلومات كثيرة عن القبائل ولهجاتها وعاداتها وتقاليدها الموروثة .

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى بدأ فصل جديد فى حياة جرترود ، فالرحالة المغامرة أصبحت من العاملين فى السياسة ، وقد استغلت الحكومة

الانجليزية معرفتها الدقيقة بالشرق العربى ، فأرسلتها الى دائرة الشرق الأوسط بالقاهرة ، ومن هناك أرسلت فجأة الى دلهى لأن نائب الملك فى الهند يود أن يراها.

ومكثت فى دلهى اسبوعين ، عادت بعدهما لتكون فى البصرة تابعه للمكتب الحربى ، وانتدب للعمل معها فى البصرة أيضاً من حكومة الهند سانت جون فلبى ، و ريدر بولارد .

وبعد هزيمة الانجليز فى الكوت بقيادة الجنرال " تاونسهند " ، عادوا فقاموا بحملة جديدة بقيادة سير ستانلى مود Maude فدخلوا بغداد فى مارس ١٩١٧ ، وقد مات هذا القائد بعد ثلاثة أشهر من دخوله بغداد مريضا بالكوليرا !

و هكذا بدأ الاحتلال الانجليزى للعراق وأرسل السير بيرسى كوكس (١) لتظيم الأمور ، وأصبحت جرترود بل سكرتيرته للشؤون الشرقية ، ولكنها كانت فى الواقع تقوم بدور أهم من ذلك بكثير ، اذ كانت نفوذ كبير ، وهى التى كانت تسير الأعمال من خلف الستار .

" الخاتون " أو " أم المؤمنين "

فى ابريل ١٩١٧ استقرت جرترود فى بغداد ، ولها من العمر ثمانية و أربعون عاما . وبنشاط بالغ بدأت تعقد صلات وثيقة مع العائلات العراقية البارزة ، وشيوخ العشائر ، كما دعت اليها أصدقاءها من رحلاتها المتعددة ، واستضافتهم واحتفت بهم . وقد بلغ من حب العراقيين لها أنهم كانوا يلقبونها بـ " الخاتون " (وهى لفظية تترية معناها المرأه الشريفة ، والعرب يلقبون بها نساء الملوك)

ويطلقون عليها لقب " أم المؤمنين " . ومن أطرف ما نقرأ فى رسائلها صداقتها القوية للحاج ناجى ، وهى دوما تشير اليه قائلة : صديقى الحميم .

العراق المضطرب دوماً..!

وتطورت الاحداث فى العالم العربى فاذا بالفرنسيين يخرجون فيصل من سوريا ، ويثور العراقيون لوضعهم تحت الانتداب البريطانى ، وهم الذين كانوا يتوقعون حكما عربيا ، وأمام هذا الوضع الحرج فى العراق اضطرت الحكومة البريطانية الى ارجاع سير بيرسى كوكس " وقد عرفه العراقيون باسم كوكس Kokus " من طهران الى بغداد ، ليجد حلا ، وكان كوكس و جرترود بل يؤمنان أن الحل الوحيد لمشكلة العراق ، وتهدئة الحالة فيها ، هو أن يقوم فيها حكم عربى ، يرتبط بمعاهدة صداقة مع بريطانيا ، على أن يكون فيصل ملكا على البلاد ، بهذه الفكرة أقنعت بيرسى كوكس ، وبهذه الفكرة كتبت الى تى.اى.لورنس حيث هو فى بريطانيا ، وكان يعارضها الرأى سانت جون فلبى ويدعو الى حكم عربى جمهورى ولما فشلت دعوته ترك العراق ، وكان من المرشحين للعرش أيضا السيد طالب باشا النقيب ، و أمير من آل عثمان اسمه برهان الدين و آغا خان ، والشيخ خزعل أمير المحمرة .

ولما أصبح تشرتشل وزيرا للمستعمرات ، أراد أن يضع حلا لمشاكل الشرق العربى ، وخاصة وضع حد للقلاقل فى العراق ، فدعا الى مؤتمر عرف بمؤتمر القاهرة عقد فى مارس ١٩٢١ ، وحضره سير بيرسى كوكس ، وكلايتون ، و كورنواليس Cornwallis و يونغ ، و لورد ترينكارد .. و جعفر باشا العسكرى ، ثم جرترود بل ، ولورانس مستشار تشرتشل للشؤون العربية .. وقد استطاع الأخيران بنشاطهما أثناء الاجتماعات و خارجها أن يقنعا تشرتشل برأيهما ، وهو

الذى كان حديث عهد فى الشؤون العربية ، ولا يدرك منها الكثير . وانتهى هذا المؤتمر بترشيح فيصل ملكاً للعراق ، ووضع الأمير عبدالله أميراً على شرق الأردن !

ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن تشرتشل كان يقضى وقت فراغه فى المؤتمر ، الذى عقد فى فندق ميناهاوس ، يرسم الأهرامات ، وبعد ان انتهى المؤتمر أقام فى الفندق معرضا للرسوم التى رسمها . ويشاء القدر أن يفكر تشرتشل والرئيس روزفلت فى مكان يجتمعان فيه أثناء الحرب العالمية الثانية ، فلا يجدان خيرا من هذا الفندق .

ولما انتهى المؤتمر قال لورنس : " الآن استطيع أن أقول أن بريطانيا قد كفرت عن سيئاتها نحو العرب " !!

وعادت جرترود بل الى العراق ، وهناك وكل اليها تنظيم أمر الدعايه للمخطط المرسوم ، فكانت تعمل ليل نهار تجتمع بالعراقيين وتقنعهم ، ولما وصل الأمير الى البصرة كانت فى استقبالة ، وتم التصويت فكان نجاحه باهراً ، ونصب فيصل ملكا على العراق فى ٢٣ أغسطس ١٩٢١ .

لقد أدت جرترود مهمتها ، ورضيت عن نفسها أخيرا رضى دفعها الى ان تقول : " لقد أقمنا فى بلاد ما بين النهرين دولة حديثة متقدمة ، بحيث لم يكن هناك عربى فى سوريا وفلسطين لا يتمنى أن تكون بلاده جزءا منها " .

وقد حظيت جرترود بل باهتمام المستشرقين والرحالة ، وفى كتابه " نذير وسفر فى الجزيرة العربية " كتب الرحالة " برترام توماس " الذى عبر الربع الخالى ، يصف مجلس جرترود بل فى بغداد : " مرت الشهور الأولى من عام ١٩٢٠ بسرور فى بغداد ، فقد كانت هناك : عصريات بعد ظهر أيام الآحاد مع

الآنسه جرترود بل التى كنا نلتقيها عقب رحلات ركوب الخيل فى الصباح ، التى غالبا ما كانت ترافقنا فيها ، وكانت تلك العصريات تعقد فى حديقة دارها ، وتدعى اليها النخبة السياسية فى بغداد ، وهى مجموعة من أولئك الذين كانوا فى معسكر الأمير فيصل ـ أمير سوريا ـ وكانت اللقاءات تتحول الى حوارات حرة ، يبدى خلالها الشباب العرب آراءهم فى اتفاقيات سايكس بيكو ، والحركة الصهيونية ووعد بلفور ، والاعلان الفرنسى ـ البريطانى ، وقضية الموصل والمسألة التركية ، كما كانوا يعبرون عن طموحاتهم الحقيقية ، كما كان يقال مثل ذلك فى حديقة المعتمد البريطانى ، وكانت بريطانيا تريد أن تسمع وتعرف كل شىء " !

واذا كان هذا بعض مما كتبه التاريخ عن " عاشقة الصحراء " .. خريجة اكسفورد .. والداهية السياسية .. والرحالة العظيمة .. ولكن أية إنسانة كانت جرترود بل ؟ .. هذا ما سنحاول أن نستقرئه من أحداث حياتها .

تناقضات بين الفكر والعمل !

ان الدراسه المتأنية لجرترود بل ، تكشف عن تناقض بين الفكر والعمل ، فهى تؤمن اليوم بغير ما آمنت به فى الأمس . ومن أمثلة ذلك أنها كانت تعارض عند بدء الحكم الانجليزى للعراق فى قيام حكومة عربية غير خاضعة لأوامر " وايتهول " خضوعا مباشرا . ولما اثبتت لها ثورة العراقيين ان وجهة نظرها غير قابلة للتطبيق ، تبنت بحماسه أشد قيام دولة عربية على رأسها فيصل ملكا ، مرتبطة مع بريطانيا بمعاهدة لا بانتداب ، كما كانت الفكرة أولا . وقد وجهت كل همتها فى هذا السبيل حتى نجحت فكرتها .

ومن مظاهر تناقضها مع نفسها ايضا ما تفيض به رسائلها من حب للعرب وتقدير لهم : فهى تؤمن بالخلق العربى فتقول " اقسم بشرفى ان العرب قوم الصدق من طبعهم ، ونحن نفتقر الى هذه الصفه " وهى تؤمن بالذكاء العربى وتنادى بان العرب قادرون على بناء دوله حديثة متحدة ، وتعارض تقطيع أوصال العالم العربى . ومع هذا نراها تكره الشباب العربى المثقف ، وتحاربهم فى السر والعلانيه : وقد رصدت عليهم حركاتهم باقامتها جهاز للتجسس رهيبا ، وبهذا زرعت الحقد فى النفوس .

وهى لم تكن تتورع عن قذف قرية بالقنابل لمظاهرة سياسية ، واعتقال المعارضين السياسيين جماعات . ان العرب الذين تحيهم هم العشائر ، وقد بلغ من حبها لهم ان كتبت مخاطبة بنى قومها : " انكم لا تفضلون العشائر فى شىء ، فهم يتمتعون بكل الصفات الطيبة التى تفخرون بها ، واكثر .."

و كانت جرترود بل معجبة بونستون تشرتشل ، وخاصة بعد مؤتمر القاهرة ، فهو فى رأيها " رائع ، ومستعد للتفاهم ، ومناقشة الآراء المعارضة ، وهو لبق فى ادارة المؤتمرات السياسية ، كبيرها وصغيرها " . ولما سقطت الحكومة الائتلافية عام ١٩٢٢ ، وساءت علاقتها به ، قالت عنه :
" يا الله ! كم أكره العمل تحت رئاسة ونستون . أنا لا أنكر انه بالغ الذكاء ، ولكنك لا تستطيع أن تثق به ، فأنت لا تدرى متى يتخلى عنك ويتنكر لك " .

وحال سير آرنولد ويلسون معها ، كحال تشرشل ، " فمهما اختلفت معه كانت الامور تنتهى دوما الى وفاق . انه من اعز اصدقائى واقربهم الى نفسى ، وانا اجله كل الاجلال لذكائه الخارق .. واحب العمل تحت امرته " . ولكن هذا لم يكن غير تفريط مؤقت ، اذ بعدها اخذت تصب عليه الاتهامات ، وينتهى بها الامر الى ان تقول " اننى لا أثق به ابدا " ، ويشاء التاريخ ان يصدق رأيها فى آرنولدويلسون

، فهو لم يستطع ان يقنع رجال وايتهول بكفاءاته والاعتماد عليه ، كما انه لم يستطع ان يقيم له صلات طيبه فى البلاد التى عمل فيها ، وكان من سوء حظه ، بعد ما نجح فى الانتخابات البرلمانية فيما بعد أصبح عضوا فى مجلس العموم ، ان ثارت زوبعه ضده بأن نجاحه لم يكن سليما ، وانه قد احدث تزويرا ، ولكنا للتاريخ ايضا نذكر ان هذا الرجل كان يعرف الشرق العربى معرفة المرء لراحة يده ، وقد اشتهر بكتابه " الخليج الفارسى The Persian gulf " .

والذى لا شك فيه ان جرترود بل امرأة ذات شجاعه فائقة ، وحياتها تثبت ذلك ، ومن أقوالها : " لا شيء يجعل للحياة معنى كالجرأة وحب المخاطر ".

وهى امرأة جياشة القلب بالعواطف ، تجد متعة فى ازدياد المعارف والاصدقاء يوما عن يوم ، ولكن اصدقاءها ارستقراطيون يبدأون من أعلى رأس فى الدولة ال كبار رجال السياسة وشيوخ القبائل . وهى تكره كل الكره أربع فئات : تلك الطبقة من الموظفين البريطانيين الذين يعيشون فى ابراجهم العاجية فلا يتعلمون اللغة العربية ، ولا يحاولون ان يقيموا صداقات بينهم وبين سكان البلاد ؛ وفئة المثقفين المتحمسين من القوميين العرب الذين ينادون بخروجها وخروج قومها من أرض العرب ؛ والصهاينة ؛ والفرنسيين . لقد كانت ذكية بعيدة النظر ، يوم ان رفعت صوتها محذرة من المشاكل التى سيجرها وعد بلفور على بريطانيا : وقد كتبت لوالدها من بغداد فى ١٨ يناير ١٩١٨ تقول : " لقد أزعجنى التصريح الذى صدر على لسان مستر بلفور ، وزير الخارجية ، بشأن الوطن القومى اليهودى فى سوريا ، وانا على يقين من انه غير عملى ... وانه لا منطق فيه ، وسيخلق لنا المشاكل الكثيرة .. وانا شخصيا اتمنى له الفشل الذى هو اهل له ..." .

ومن الثابت ان جرترود بل كانت خبيرة بشؤون القبائل العربية فى العراق ، وبادية الشام ، وشرق الاردن والنفوذ " فقد عشت فى وسط بيت العنكبوت ، وعرفت كل خيط فيه ".

وهى تبدو لنا ايضا عاشقة للغة العربية ، فتقول : " ان انتشائى بجمال هذه اللغة ، لا يقل عن النشوة التى يحس بها العاشق لموسيقى " موتزارت " ، عندما يستمع الى احدى سوناتاته ". وهى ذات موهبة لغوية ، فقد كانت تتقن خمس لغات ، وتفهم لغتين أخريين . تقول جرترود بل فى رسالة لها الى والدها : " أن صديقى جعفر باشا العسكرى يتقن سبع لغات ، وعندما نكون معا نتبارى احيانا فى اثبات مقدرتنا اللغوية فنتحدث بيسر العربية والانجليزية و الالمانية والفرنسية والفارسية ، أما الكردية والتركية فهو يتقنهما وانا لا استطيع التحدث بهما ، ولكنى أستطيع أن أفهم ما يقول ".

وهى امرأة جمة الحيوية والنشاط ، حتى بعد أن غرقت فى السياسة ، فهى دوما فى حركة مستمرة : من الاجتماعات السياسية ، الى الاستحمام فى نهر دجلة ، الى صيد القطا ، الى مطاردة الغزلان فى الصحراء ، الى الزيارات المتكررة لشيوخ العشائر تجالسهم وتقيم معهم الصداقات ، وتلقى بالنكتة البارعة أثر النكتة ، فيضحكون ويستلقون على ظهورهم . لقد كان المرح - كما يبدو - من طبيعتها الاصيلة . ام تراه تمثيل يقتضيه الدور الذى تقوم به ؟ واحيانا نشاهدها فى الصباح الباكر على ظهر جمل أو حصان ، عائدة من رياضتها الصباحية من قلب الصحراء.

وهى على هذا كله ، دوما انيقة ، أناقة خاصه بها ، لا تنسى زينتها ، وفساتينها الحريرية ، وعقودها ، وقد كانت تغالى احيانا فى نوع الملابس التى

ترتديها فتثير التعليق من حولها . انها ملابس تعبر عن شذوذ صاحبتها ، من ذلك انها كانت تلبس فى حفلات الشاى احيانا جاكته حريرية خضراء موشاة مشجرة ، فوق جونلة خضراء ، وحذاء أخضر ، وجوارب خضراء !! ومن مظاهر شذوذها استنكارها مطالبة احدى الضواحى بالكهرباء قائلة :" وما فائدة الكهرباء ؟ انها من مساوىء المدنية الحديثة !! ".

وهل كان الا شذوذا منها ان تقبل ممتطيه حصانها بأقصى سرعة ، والملك فيصل على المنصة فى الميدان مستعد لالقاء خطابه بعد انتخابه ملكا ، ثم تقف فجأه بجانبه !!

هذه هى جرترود بل: فيها الكثير من الشذوذ ، وفيها الكثير من الصفات الحميدة والمستنكرة !

رسائل جرترود

بالاضافة الى كتبها وآثارها العلمية ، وما كتبه عنها معاصروها وما تناوله بالدراسة والنقد الباحثون فى أدب الرحلات من بعد ، تظل رسائلها التى كتبتها لعائلتها واصدقائها هى أهم مصدر ، ولا شك . وقد نشرت زوجة والدها ، ليدى بل ، التى كانت تقوم منها مقام الأم ، أول مجموعة من رسائلها عام ١٩٢٧ فى جزأين ، وبعد عشر سنوات نشرت شقيقتها ، ليدى رتشموند ، مجموعة أخرى ، ومن المآخذ عليهما فى المجموعتين انهما لم تنشرا الرسائل كما هى ، بل حذفتا منها ما بدا لهما محرجا .

ولما زالت الاسباب الباعثه على الحيطة ، وحان الوقت لنشر الرسائل كاملة ، جاءت اليزابيث يرجون Elizabeth Burgoyne فنشرت مجموعة ثالثة من الرسائل عام ١٩٥٨ كتبتها جرترود بل بين عامى ١٨٨٩ ـ ١٩١٤ ، واتبعتها بمجموعة أخرى عام ١٩٦١ تكمل بها قصة حياتها من ١٩١٤ حتى سنة وفاتها عام ١٩٢٦ .

واليزابيث بيرجون ، ناشرة هذين الجزأين من الرسائل ، مدرسة موسيقى و كاتبه قصصيه ، وقد صدرت لها قصتان طويلتان ، ثم صدر لها كتاب عن الملكة اليصابات ملكة رومانيا ، عام ١٩٤١ . وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ اهتمامها بجرترود بل ، فأقبلت على دراسة ما تركت من أوراق خاصه .

وهذه الرسائل التى نشرتها مؤخرا " اليزابيث بيرجوين " تكمل ما نشر من قبل ، ولا تنقضة ، وآخر مجموعة من هذه الرسائل تبدأ بأول وظيفة شغلتها فى الحرب فى بولون ، وتنتهى بأخر وظيفة شغلتها فى العراق ، وهى مديرة متحف الآثار . وهذه الرسائل قصة حياة ، وكل قصة فيها البطل الذى تغدق عليه صفات الكمال ، والنذل الذى تلقى على رأسه كل الرذائل ، والبطل هنا هو سير بيرسى كوكس السفير البريطانى فى العراق ، والنذل المكروة سفير آخر جاء الى العراق هو سير آرنولد ويلسون .

و المجتمع العربى الذى تصفه هذه الرسائل الأخيرة مجتمع ارستقراطى ، كمجتمعها الانجليزى الذى نشأت فيه ، ففيها الكثير عن السياسيين ، والاحزاب السياسية وشيوخ القبائل ، والمؤامرات السياسية ، والقليل جدا عن الزراعة ، وأحوال الفلاحين وبؤسهم . وتبدو " جرترود بل " فى رسائلها كاتبه بارعة ، ذات

أسلوب طلى ، رغم كثرة أخطائها الاملائية . وهذه الرسائل حافلة بالاشارات الى اسماء قبائل ومواقع لا يمكن أن يعرفها إلا الخبير الجغرافى !

لقد أدت جرترود دورها ، وانتهت مهمتها ، وتخلى عنها المساندون والانصار . وبدأ نجمها فى الأفول يوم ان تولى " سير هنرى دوبس Dobbs " منصب المندوب السامى فى العراق . ولم تكن معه على وفاق . فلما انشئت دائرة للآثار ، عينت بأمر من الملك ، مديرة لمتحف الآثار . وقامت فى هذا الميدان بنشاط كبير ، وعملت على وضع حد لتهريب الآثار العراقية الى الخارج .

ولكن النكسة دوما مؤلمة : فقد أخذت فى أخريات ايامها تحس بكراهية للحياة وبسوداوية ، فقالت قبل وفاتها بأيام : " اننى لم أعد أجد لذة فى الحياة " . ولما حضرتها الوفاة كانت انقاذا لها ، وقيل أنها أقدمت على الانتحار عندما شعرت أن دورها فى الوطن العربى قد وصل الى نهايته .. ومما لاشك فيه أنها توفيت عام ١٩٢٦ فى ظروف غامضة .. تماما مثل " لورنس العرب " !

ولعل هذه العبارة ، من رسالة كان قد أرسلها تى.أى لورنس الى والدها عام ١٩٢٧ ، تلخص حياة عاشقة الصحراء المغامرة . يقول لورنس : " ... انا على يقين من انها ماتت سعيده ، ناعمة البال ، راضية عن نفسها ، لأنها قد انجزت مهمتها السياسية التى انيطت بها على أحسن وجه ، وهى مهمه من أخطر المهام التى وكلت الى امرأه ، لقد انتهى دورها التاريخى ، كما انتهى دورى من قبل " .

ببليوجرافيـــا

أولاً : المراجع العربية :-

- أربعون عاماً في الكويت ، فيوليت ديكسون ، تقديم وتعليق : سيف مرزوق الشملان ، دار قرطاس للنشر ، الكويت ، ١٩٩٥ م
- اكتشاف جزيرة العرب ، جاكلين بيرن ، ترجمة قدري قلعجي ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، ١٩٧٤ م
- الاستشراق ، ادوارد سعيد ، تعريب : كمال أبو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط . ثانية ، بيروت ، ١٩٨٤ م
- البدو بعيون غربية ، عمار السنجري ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط . أولى ، ٢٠٠٨ م
- الحج إلي نجد ، آن بلنت، ترجمة : صبري محمد حسن ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠٧ م
- الربع الخالي ، عبد الله فيلبي ، تعريب : حسن عبد العزيز أحمد ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط . أولى ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م
- الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية ١٨٤٥ – ١٩٢٢م ، عوض البادي ، الدار العربية للموسوعات ، ط . ثانية ، بيروت ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢ م
- الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية ، روبن بدول ، ترجمة : عبد الله آدم نصيف ، الرياض ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م
- الرحالة المستشرقون في بلاد العرب ، شركة المختلف للنشر والتوزيع ، الكويت ، ٢٠٠٦ م
- الرياض المدينة القديمة ، وليم فيسي ، ترجمة : عبد العزيز بن صالح

الهلابـي ، مكتبـة الملـك عبـد العزيـز العامـة ، الريـاض ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

- الريـاض فـي عيـون الرحالـة ، أمانـة مدينـة الريـاض ، ط . أولـى ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠ م
- العربية السعودية ، عبد الله فيلبي ، تعريب : عاطف فالح يوسف ، مكتبة العبيكان ، ط . أولى ، الرياض ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م
- بلاد العرب القاصية ، بيتر برينت ، ترجمة : خالد أسعد ، أحمد غسان سبانو ، دار قتيبة ، بيروت ، ١٤١١ هـ / ١٩٩٠م
- رحالة الغرب في ديار العرب ، أسعد الفارس ، صقر الخليج للنشر ، الكويت ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م
- رحلـة إلـي الريـاض ، لـويس بيلـي ، ترجمـة : عبـد الـرحمن الشـيخ ، عويضه الجهني ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م
- رحلة بيرتون إلي مصر والحجاز ، ترجمة : عبد الله الشيخ ، ٣ أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤ م
- رحلة جوزيف بيتس إلي مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، ترجمة : عبد الله الشيخ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٥ م
- رحلة عبر الجزيرة العربية ، فورستر سادلير ، ترجمة : أنس الرفاعي ، الناشـر سـعود بـن غـانم الجمـران ، الكويـت ، ط . ثانيـة ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م
- رحلـة مـن الكويت إلـي الريـاض عـام ١٨٦٥ م ، لـويس بيلـي ، ترجمـة وتعليـق : أحمـد ايبسـن ، دار قتيبـة ، ط . أولـى ، بيـروت ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م
- رحلات داوتي في الجزيرة العربية ، ترجمة : عدنان حسن ، شركة دار الوراق المحدودة ، بيروت ، ٢٠٠٩ م

- رحلات في الجزيرة العربية ، ج. آر . ويلستد ، ترجمة : محمد درويش ، ماجد النجار ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ، ط. أولى ، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م
- رمال العرب ، ولفريد ثيسيجر ، تعريب : نجدة هاجر ، إبراهيم عبد الستار ، دار الوراق للنشر ، بغداد ، ٢٠٠٧ م
- الطريق إلي الجزيرة العربية ، راشد شاز ، الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، ٢٠٠٧ م
- شبه الجزيرة العربية في كتابات الرحالة الغربيين ، ترجمة : غازي عبد الرحيم شنيك ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٩ م
- عبد الله فيلبي حياته وآثاره ، عمر بن صالح العمري ، مجلة الدارة ، العدد الثالث ، السنة الخامسة والعشرون ، ١٤٢٠ هـ ، ص ١٣١ - ١٨٦
- عرب الصحراء ، ديكسون ، دار الفكر ، دمشق ، ط . ثانية ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م في الغزو الفكري ، أحمد عبد الرحيم السايح ، كتاب الأمة ، عدد ٣٨ ، قطر ، ١٤١٤ هـ
- فيلبي الجزيرة العربية ، اليزابيث مونرو ، ترجمة : أحمد عمر شاهين ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، ١٤٢٥ هـ
- قافلة الحبر ، الرحالة الغربيون إلي الجزيرة والخليج ١٧٦٢ ـــ ١٩٥٠ م ، سمير عطا الله ، دار الساقي ، بيروت ، ط . أولى ، ١٩٩٤م
- قلب الجزيرة العربية ، عبد الله فيلبي ، تعريب : صلاح علي محجوب ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ط . أولى ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢ م
- مرتفعات الجزيرة العربية ، عبد الله فيلبي ، تعريب : حسن مصطفى ، مكتبة العبيكان ، ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م

- مكة المكرمة في عيون رحالة نصارى ، أغسطس رالي ، تعريب : حسن سعيد غزالة ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ، ١٤٣٠ هـ
- المتظاهرون بالإسلام – طلائع الاختراق الغربي ، حسن السعيد ، دار الهادي ، بيروت ، ٢٠٠٧ م
- المؤلفات النادرة عن المملكة العربية السعودية ، مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، الرياض ، ١٤١٦ هـ
- وسط الجزيرة العربية وشرقها ، وليم بلجريف ، ترجمة : صبري محمد حسن ، المشروع القومي للترجمة ، القاهرة ، ٢٠٠١ م

ثانياً : المراجع الأجنبية :

1 - Burton, R. : Aplain and literal Translation of Arabian Nighto, Entertainments, London, 1984
2 - Daniel, N. : Islam and west, the Making of an image, Adenbra, 1960
3 - Freeth Z., Vegeance V. : Explorers of Arabia, London, 1978
4 - Warlurton, E. : The Crescent and the Cross, London, 1859
5 - Winston, H.V.F : Leachman, O.C. Desert, London, 1982